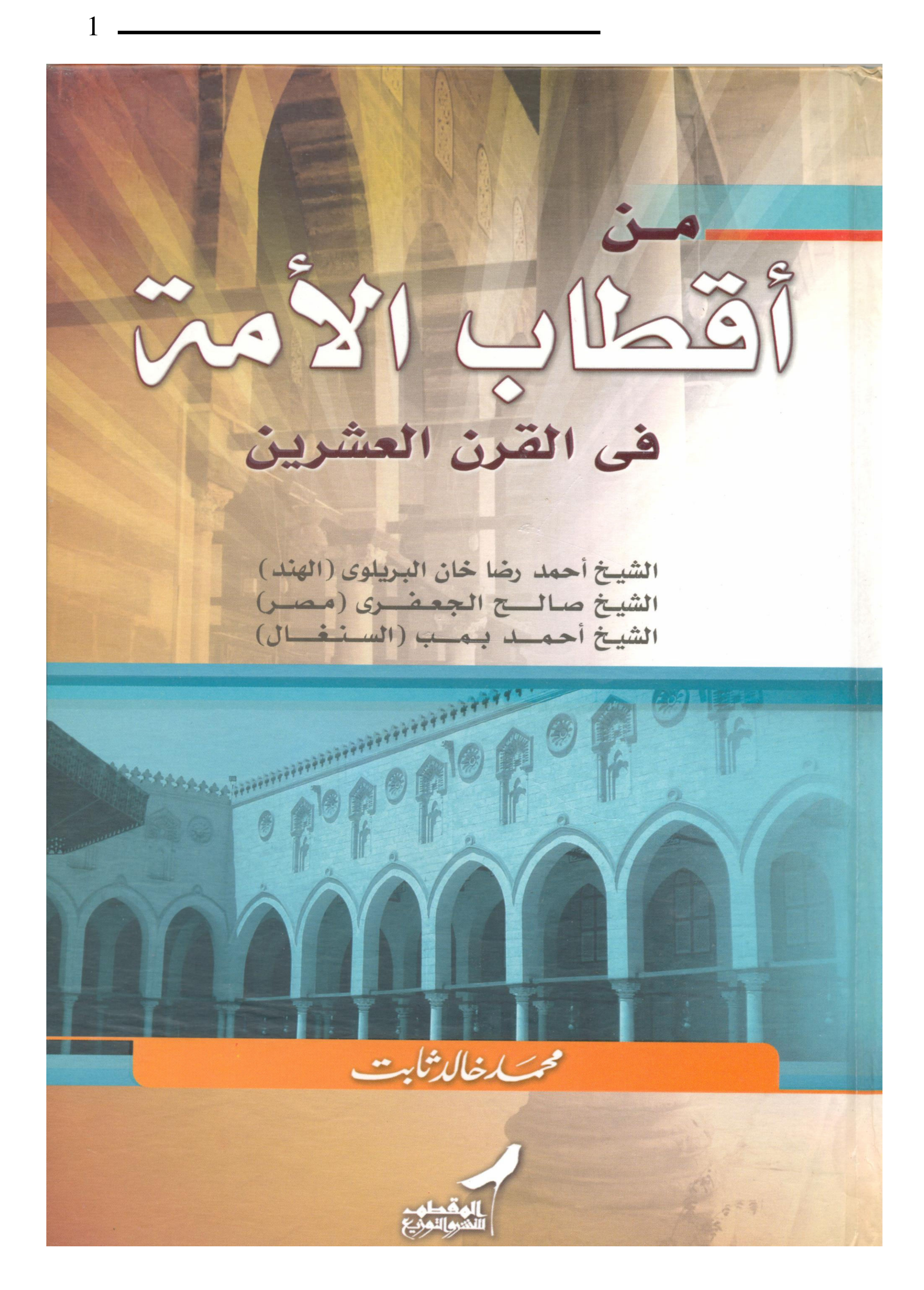

من
أقطاب الأمة
فى القرن العشرين
الشيخ أحمد رضا خان البريلوى (الهند)
الشيخ صالح الجعفرى (مصر)
الشيخ أحمد بمب (السنغال)
محمد خالد ثابت
المقطم للنشر والتوزيع

من أقطاب الأمة
فى القرن العشرين

- سيدى أحمد رضا خان البريلوى (الهند)
- سيدى صالح الجعفرى (مصر)
- سيدى أحمد بمب (السنغال)

من أقطاب الأمة

فى القرن العشرين

- سيدى أحمد رضا خان البريلوى (الهند)
- سيدى صالح الجعفرى (مصر)
- سيدى أحمد بمب (السنغال)

محمد خالد ثابت

الطبعة الثانية مزيدة

المحرم ١٤٣٠هـ ـ يناير٢٠٠٩م

القاهرة

طبع لأول مرة فى

ربيع الأول ١٤٢٨هـ - إبريل ٢٠٠٧م

الناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان ـ عابدين

القاهرة

ت: ٧٩٥٨٢١٥ ـ فاكس: ٧٩٤٦١٠٩

email: elmokatam@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إليك يا رسول الله

فى عيد مولدك الحبيب البهيج

أهدى هذا الكتاب

عن ثلاثة من أحبابك

تعلقت أرواحهم بك

ورأوا الدنيا بنورك

وجاهدوا فى الله حق جهاده

بذكرهم أتودد إليك

وأدنو من رحابك

فتقبل هدية العاجز الضعيف

ياذا الخلق العظيم

صلى الله تعالى عليك وسلم

وبارك وكرم

مقدمة هذه الطبعة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله، وبعد..

فهذه طبعة جديدة من كتاب "أقطاب الأمة فى القرن العشرين" اختلفت عن الطبعتين السابقتين، إذ زادت فى الحجم كثيرًا، والسبب فى ذلك أننى – بعد صدور الطبعتين الأوليين – تلقيت من بعض الإخوة – جزاهم الله خيرًا – مراجع جديدة لم تكن قد أُتيحت لى قبل ذلك.

فيما يخص الكتاب الأول عن الإمام المجدد أحمد رضا خان حصلت على:

- الشيخ أحمد رضا خان البريلوى شاعرًا عربيًا.
- الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى (رسالة ماجستير).
- الإمام أحمد رضا خان القادرى وجهوده فى مجال العقيدة الإسلامية فى شبه القارة الهندية. (رسالة ماجستير)

وفيما يخص الكتاب الثانى عن الشيخ صالح الجعفرى حصلت على:

- الشيخ صالح الجعفرى حياته وجهوده فى الحياة الروحية فى ميزان الإسلام.

وفيما يخص الكتاب الثالث عن الشيخ أحمد بمب:

- منن الباقى القديم فى سيرة الشيخ الخديم.
- إرواء النديم من عذب حب الخديم.
- النهج القويم فى سيرة الشيخ الخديم.
- الأدب السنغالى العربى.

ولقد وجدت فى هذه المراجع أشياء مهمة لا يجدر بى أن أتغافل عنها مادمت قد تعرضت للكتابة عن هؤلاء الثلاثة من أقطاب الأمة الكبار الذين لن ينقطع الانتفاع بهم إلى ما شاء الله.

أرجو أن أكون قد وُفقت فيما أردت، وأن تكون الزيادة التى أضفتها هنا وهناك زيادة فى الخير، وزيادة فى النفع، وزيادة فى القرب من أهل الله وخاصته، والله سبحانه وتعالى هو الفعال

لما يريد، ولا حول ولا قوة إلا به.

تقديم

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد حبيب الله ومصطفاه وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد روى عن هارون الرشيد أنه صوّب نظره إلى السماء فى يوم، فرأى سحابة سابحة عن بعد، فخاطبها قائلا: شرِّقى أو غرِّبى فأينما ذهبت فسوف يأتينى خراجك!

هذه كلمة ملك قد دانت له الدنيا بأسرها، ولم ير لنفسه ندًا ولا نظيرًا بين الملوك، كان يحكم دولة واحدة امتدت من حدود الصين شرقا إلى المغرب العربى غربًا، هى أوسع الدول رُقعة، وأكثرها خيلاً ورجالاً وأموالاً..

لكن زمن هارون الرشيد – أيضا – لم يسلم من الفتن، ولم يكن المسلمون فى عهده بمنأى عن الدعوات الفاسدة والدعاة المضلين! كم من الناس سقطوا فى شراكهم، حتى إن العديد من الروايات تُروى عن تحول وجوه كثير من سكان المقابر عن القبلة دليلاً على سوء الخاتمة، وكان عمر بن عبد العزيز – الخليفة الراشد رضى الله عنه – ممن أُخبر بهذا ورآه بعينه فأمضى حياته خائفًا من ربه.

كلنا نحب أن نعيش فى عز الإسلام، ونرى دولة الإسلام قوية وعزيزة ولكن أحب من ذلك – للعاقل – أن يكون عز الإسلام فى نفسه، وقوته راسخة فى قلبه سواء كانت دولة الإسلام عزيزة أو ضعيفة مهزومة.

هذا القرن الذى ولى عنا منذ سنوات قليلة، القرن العشرون الميلادى، هو قرن الهزائم والانتكاسات، رأى سقوط الخلافة الإسلامية وانقشاع ظلها عن الأرض، ورأى تسلط الأعداء على بلدان الإسلام وتخريبهم فيها، ورأى سقوط فلسطين فى أيدى اليهود، ورأى انتشار الفتن فى الدين فى ظل تسلط الأعداء النصارى واليهود على المسلمين بما لم يحدث نظيره من قبل، ورأى.. ورأى..

ولكن الله سبحانه وتعالى الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى يرينا محكم تدبيره وعظيم لطفه بأمة حبيبه، فقرنُ المصائب والانتكاسات هذا هو نفسه القرن الذى شاهد بزوغ شموس أضاءت للمسلمين ظلمات الدنيا، ونشرت عليهم الدفء والأمان. بهم ثبت الله المؤمنين، وحفظ الإسلام فى الأرض ووسّع رقعته.

هم رجال من أقطار شتى، منهم الأبيض والأسود، والأحمر والأصفر، طووا قلوبهم على سر الوجود وغاية الحياة التى أودعها الله فى كلمات قليلة قد تحققوا بها:

لا إله إلا الله محمد رسول الله

هذه البذرة الطيبة، لما غُرست فى صدور رجال الله، وتعهدوها بالرى والرعاية نبتت واشتد عودها، وآتت ثمارها وانتشر خيرها وبرها.. لذلك وصفهم النبى ﷺ بأنهم ورثة الأنبياء، فهم على خطاه يسيرون.

هؤلاء الرجال هم بحق ثروة الأمة، لا الذهب والفضة، بل هم أثمن من كنوز الأرض، لا يصح أن يوضع أحدهم فى كفة وشىء من هذه الدنيا – مهما بلغ – فى الكفة المقابلة. ذلك لأن مهمتهم التى أقامهم الله فيها هى النيابة عن رحمة الله للعالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد. فهم أرحم عباد الله بعباد الله وأنصحهم لهم، يقومون ليل نهار على ما قام عليه سيد المرسلين ﷺ الذى قال:

"مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبّهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدى" رواه مسلم.

إنها الرحمة التى تشمل الدنيا، ويذهب أثرها إلى أبد الآبدين..

هؤلاء الهُداة.. هؤلاء القادة.. هؤلاء الأطباء والمرشدون المؤيدون من ربهم، بذكرهم تتنزل الرحمات، وبمحبتهم تتفتح أبواب من العطاء لا يعرف قدرها إلا من تعرّضوا لها..

من هؤلاء الأبرار وقع اختيارى على سبعة ممن سعد بهم القرن الرابع عشر الهجرى، العشرون الميلادى، فكانوا لأمة الإسلام منارات هدى فى الظلمات الحالكة.

كانت نيتى – فى البداية – أن أكتب عنهم جميعًا فى هذا الكتاب ولكن القلم استرسل مع الثلاثة الأول منهم استرسالاً لم أستطع له كبحًا، فملأ من الصفحات ما أصبح كافيا لكتابٍ مناسبٍ فى حجمه، هذا الاسترسال الفرح المستبشر مع الثلاثة الأول أخذ من الوقت ما خشيت معه أن تفوتنى فرصة تقديم هذا الكتاب هدية إلى السيد الكامل صلوات الله وسلامه عليه فى عيد مولده المبارك الذى أهلت إشراقاته وتضوعت فى الكون أعطاره مع إهلالة شهر صفر. لذلك اكتفيت بهذا القدر، فجاء الكتاب مشتملاً على ثلاثة منهم، لم أتعمد أن أرتبهم بأى نوع من الترتيب، وإنما جاء ترتيبهم حسب ما جرى به القلم وهم:

سيدى أحمد رضا خان البريلوى الهندى

سيدى صالح الجعفرى المصرى السودانى

سيدى أحمد بمب السنغالى

اللهم ارض عنهم وعن جميع رجالك الصادقين

اللهم انفحنا من بركاتهم واحشرنا فى زمرتهم

وصل اللهم على الحبيب المحبوب من بذكره تحيا القلوب

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين.

محمد خالد ثابت

الكتاب الأول

الإمام العلامة

الشيخ أحمد رضا خان البريلوى

المبعوث على رأس المائة الرابعة عشرة

(١٢٧٢هـ - ١٣٤٠هـ = ١٨٥٦م - ١٩٢١م)

وعـالِمُ أهـلِ سُنَّـةِ مُصْطفـانـا

مُجـدِّدُ عَصْـرِه الفَـردُ الفَريـدُ

المحتـوى

لم أصادف قط – فيما قرأت – عبارة أجمل ولا أدق فى وصف كمال الإيمان وجِدَّته من تلك التى قالها سيدى أحمد رضا خان البريلوى إمام أهل السنة والجماعة فى الهند فى قرنها العشرين حين قال:

"لو قسم قلبى إلى جزئين لكان أحدهما مكتوبا عليه: لا إله إلا الله، والآخر مكتوبا عليه: محمد رسول الله"

فكانت كلمته تلك خير تعبير عن ذلك الميزان الدقيق الذى أقامه الله فى الكون يوم بعث حبيبه ومصطفاه خاتما للأنبياء والمرسلين، فلا يستوى هذا الميزان إلا فى قلب مؤمن، ولا يختل ويضطرب إلا عند منافق أو مبتدع. وكان للإمام – رضى الله عنه – مع أهل البدع والنفاق مواقف وجهاد طويل، ما أسعده به عند ربه!

وقبل أن نحوض مع الإمام فى غمرة جهاده فى الله الذى لم يهدأ طوال حياته يحسن بنا أن نقترب منه لنتعرف عليه، وعلى جانب من تربيته وعلومه.. فمن هو؟

۞۞۞

أسرتـه:

أصل الأسرة من الأفغان من قبيلة"برهيج" التى كانت تسكن قندهار بأفغانستان، وانتقل بعض أجداده إلى الهند فى عصر السلاطين المغول، ونال لديهم حظوة ومكانة وأموالاً وضيعات، واستمرت الوظائف العالية والثروة فى نسله حتى رغب أحدهم عن الدنيا، فسلك طريق الزهد والمجاهدة والعبادة وأصبح صنيعه هذا سُنّة فى عقبه بحيث تحولت الأسرة من مراتب الأمراء والأثرياء إلى مراتب أهل الله من الزهاد والفقراء.. ومن ثم تأصل فيها – عبر أجيالها – العلم والتصوف والدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله.

۞۞۞

أبوه وجدّه:

جده هو الشيخ رضا على خان (١٢٢٤هـ - ١٢٨٢هـ) وهو من كبار العلماء والصلحاء، قام بالإفتاء والإرشاد والتدريس والتصنيف، واشتهر بأنه من شيوخ التصوف الأكابر الذين التف حولهم المريدون، وقضى حياته فى زهد وعبادة وأظهر الله على يديه الكرامات.

أما أبوه فهو الشيخ محمد نقى على (١٢٤٦هـ — ١٢٩٧هـ) كان مولده بمدينة بريلى، وكان من شيوخ المتصوفة ومن علماء الأحناف الكبار، اشتهر بالزهد والورع وسعة العلم، والسخاء والتواضع والاستغناء عن الناس.

أخذ العلوم عن أبيه الجامع بين علوم الشريعة والطريقة، وتخرج عليه، وبذل حياته فى إشاعة السنة وإماتة البدعة، وله مواقف ومآثر جليلة فى الردّ على المبتدعة، وله فى ذلك تصانيف مهمة ذكر منها ولده الإمام أحمد رضا خان ثلاثين مصنفًا، منها:

(١) الكلام الأوضح (٢) وسيلة النجاة فى سيرة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأكرم التسليم (٣) سرور القلوب بذكر المحبوب، خلاصة وسيلة النجاة (٤) جواهر البيان فى أسرار الأركان أى الصلاة والصيام والزكاة والحج (٥) أصول الرشاد لقمع مبانى الفساد فى إبطال البدعة النجدية (٦) هداية البرية إلى الشريعة الأحمدية. فى الرد على عشر فرق من أهل الفتن (٧) إذاقة الآثام لمانعى عمل المولد والقيام (٨) إزالة الأوهام. فى الرد على أوهام النجدية (٩) تزكية الإيقان فى الرد على "تفويت الإيمان" (١٠) فضل العلم والعلماء (١١) الكواكب الزهراء فى فضائل العلم وآداب العلماء.

۞۞۞

مولده ونشأته:

وُلد الشيخ ببلدة "بريلى" وهى مدينة مشهورة بالهند تقع على بعد ١٣٥ ميلا من مدينة "دلهى" فى الجهة الجنوبية الشرقية. وكان مولده يوم العاشر من شوال سنة ١٢٧٢هـ الموافق ١٤ يونيو سنة ١٨٥٦م، ونشأ فى أسرة دينية وبيئة صالحة. تولى جده وأبوه تربيته، وعرفانا بفضلهما عليه يقول فى إحدى قصائده باللغة العربية التى يثنى فيها عليهما ويدعو لهما:

وارحم أبى وأباه رحما دائما — واجعل قبورهما رياض جنان

آنِسْهما اللهم فى جدثيهما — بالحور والغلمان والرضوان

أبدلهما دارا وجارًا خيرًا — من هؤلاء الدور والجيران

۞۞۞

اللغة العربية:

اللغة العربية لغة الإسلام.. هى الوعاء الطيب المبارك الذى اختاره الله ليقدم فيه لخلقه أعظم هدية وأثمن نعمة ألا وهى الإسلام. فارتباط العربية بدين الإسلام ارتباط لا تنفصم عراه مدى الدهر، بل إن العربية محفوظة بحفظ الله لاينال منها عدو ولا تنمحى فى أيدى الجاهلين لأنها لغة القرآن وبها نطق خير الأنام حبيب الله ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ.

وكما قيض الله للغتنا العربية من أعدائه من يحاولون هدمها، أقام فى الناس من أوليائه وأحبابه من يرفعون شأنها ويبثون أسرارها وعلومها وأنوارها حفاظا على الدين ومحبة فى الله والرسول.

من أولئك البررة الكرام الإمام أحمد رضا الذى نشأ فى بيت يتنفس بالعربية، وتتدفق فى عروقه دماء الإيمان والمحبة..

وصف الدكتور حازم محفوظ فى تقديمه لكتاب "الدولة المكية" تلك الروح العربية

التى نشأ فيها الإمام، وكانت هذه الروح سائدة فى بلاد الإسلام قاطبة قبل أن يتمكن منها الأعداء الصليبيون، فيشنوا على الإسلام وأهله ولغته العربية حربًا لا هوادة فيها..

قال الدكتور حازم:

"نشأ الإمام محمد أحمد رضا خان فى أسرة لها مع اللغة العربية وآدابها باع وتاريخ حافل، فكان والده وجده على سبيل المثال –ممن يجيدون اللغة العربية إجادة تامة وقد ألفوا بها مؤلفات كثيرة. كما وجدنا والده الإمام محمدًا نقى على خان يفتتح مدرسة للغة العربية وآدابها فى موطنه مدينة بريلى تحت اسم: "مصباح العلوم" من أجل تعليم ونشر اللغة العربية وآدابها ليس فى مسقط رأسه فحسب، بل فى كل ربوع شبه القارة. وقد توافد على هذه المدرسة طلاب من جميع الأنحاء.

إن عمل الإمام محمد نقى على خان فيه الدليل على شغفه باللغة العربية ومعرفته بأنها المطلب الأول لكل داع صادق فى طريقه إلى الله تعالى على بصيرة وهدى. هذا هو النهج الأمثل الذى صار عليه الإمام محمد نقى على خان وقد وفق فى تحقيق ما سعى من أجله. وكانت هذه رغبته من أجل العامة من المسلمين، فإذا نظرنا إلى اهتمامه الخاص وجدناه قد وفق فيه توفيقا منقطع النظير، حيث إنه حرص كل الحرص على تنشئة وتعليم ابنه محمد أحمد رضا خان فى بيئة علمية قوامها اللغة العربية وآدابها. وقد لاقى استجابة كبيرة من ابنه هذا – الذى ورث عن أبيه وأجداده حب اللغة العربية والإقبال على الاغتراف من علومها الكثيرة الغزيرة..

إن هـذه اللبنـة الأولى كـان لهـا عظـيم الأثـر فى حياتـه كلهـا. وقـد استمر تأثير هذه النشأة والتربية والتعليم العربـى -فى مدرسـة والـده- طيلة حياته الحافلة وتجلى لنـا فى مـصنفاته كلهـا حتـى التـى كتبهـا بغـير العربية فلا يستطيع أى ناقد يطلع على مؤلفاتـه -الأرديـة والفارسـية- إلا وأن يصرح بأن مؤلفها لابد وأن يكون عالما وأديبا فى اللغة العربيـة نظرا للأثر الكبير الذى تطبعت به هذه المؤلفات.

وبالإضـافة إلى كـل هـذا انكـب الإمـام محمـد أحمـد رضـا خـان فى شغف منقطع النظير -بعـد أن أجـاد اللغـة العربيـة إجـادة تامـة- عـلى علوم اللغة العربية فاطلع عليها، كما قرأ كل مـا وصـلت إليـه يـده مـن كتب باللغة العربية -فى العلـوم والفنـون المختلفـة- التـى ألفهـا علـماء وأدباء من شبه القارة والعالم العربى. وقد كانت أكثر قراءاتـه -باللغـة العربيـة- فى العلـوم الإسـلامية خاصـة علـوم الـشريعة والطريقـة. وقـد وجدناه يصرح فى كثير مـن مـصنفاته بأنـه اطلـع عـلى مؤلفـات لعلـماء أعلام وأئمة مشاهير من أمثال العارف بالله سيدى الإمام جلال الدين الـسيوطى المـصرى -رضى الله تعـالى عنـه- وقـد افتخـر بـه وبمؤلفاتـه كثيرا، وعد نفسه تلميذا لهذا الإمام الجليل.

ومما لاشك فيه أن هذا الشغف الكبير باللغة العربية وعلومها لازمه شغف أكبر بأهل هذه اللغة وهم العرب. إن الشعب المسلم – على العموم – فى شبه القارة محب للعرب، وهذا الحب نابع من حب سيد العرب والعجم المصطفى – صلوات ربى وتسليماته عليه – وحب لغته ووطنه.. الخ. وإذا كان هذا هو حال العوام من هذا

الشعب المسلم فى شبه القارة، فكيف بالخواص من العلماء والأدباء الذين اطلعوا على فضل العرب ولغتهم وعلومهم فى مضمار الحضارة الإسلامية..

إن الإمام محمد أحمد رضا خان تعلم كل هذا من والده وجده، الذين طالما تحدثا عن أمجاد العرب، فشغف حبا للذهاب لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، ومن ثم التعرف عن قرب على علماء العرب والاتصال بهم والتتلمذ على أيديهم..

ويكفيه فخرا أنه كان يتحدث إليهم باللغة العربية الفصحى، وكانوا يتعجبون من مدى مقدرته عليها على الرغم من عدم زيارته لأى بلد عربى من قبل. (انتهى مع اختصار يسير)

۞۞۞

تحصيله للعلم:

إن أكثر التلاميذ استفادة من أستاذه هو أكثرهم له محبة، ومحبة معلم البشرية السيد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه تضع فى يد من أسعد بها مفاتيح كل خير وبركة، هذا إضافة إلى ما وهبه الله سبحانه وتعالى من نبوغ مبكر، ومواهب خارقة..

اشتهر عنه أنه حفظ القرآن الكريم كله فى شهر، وهو أمر لا يمكن حدوثه إلا بعطاء وهبى، وأتم دراسته فى مختلف العلوم العقلية والنقلية وهو دون الرابعة عشرة من عمره، وعلوم أخرى كثيرة حصلت له عن طريق الوهب ولم يكن له فيها معلم. وفى سن العاشرة صنف أول كتاب باللغة العربية وهو "شرح هداية النحو"، وبلغت العلوم التى برع فيها خمسة وخمسين علمًا، وهو – كما قيل – مالم يعرف عن غيره من قبل، وقد سرد تفاصيل تلك العلوم والفنون فى أحد كتبه، وكانت له ابتكارات لم يسبق إليها، منها

– على سبيل المثال – أنه ابتكر عشر قواعد لمعرفة القبلة من أى جزء من العالم، وإلى جانب هذا كان شاعرا مجيدًا، نظم الشعر باقتدار فى لغات ثلاث: العربية والفارسية والأردية، وسيجىء الحديث عن ذلك – إن شاء الله تعالى – عند ذكر مدحه لسيد الكائنات ﷺ.

۞۞۞

شيــوخه:

أولهم أبوه وجده، تعلم منهما حب الله ورسوله، وتلقى عليهما التربية، والعلوم العقلية والنقلية، وفوّض إليه أبوه الإفتاء، فكان يكتب فتاواه ويعرضها على والده للتصويب، وبعد مدة قال له: لا تحتاج الآن إلى العرض، وفى ذلك يقول:

"إن سيدى وأبى وظل رحمة ربى، خاتم المحققين، وإمام المدققين، ماحى الفتن، حامى السنن، سيدنا ومولانا المولوى محمد نقى على خان القادرى البركاتى أمطر الله تعالى على مرقده الكريم شآبيب رضوانه فى الحاضر والآتى، أقامنى فى الإفتاء للرابع عشر من شعبان الخير والبشر سنة ١٢٨٦ من هجرة سيد الثقلين عليه وعلى آله الصلوات من رب المشرقين، ولم تتم لى إذ ذاك أربعة عشر عامًا من العمر".

وتتلمذ كذلك على أيدى عدد من كبار العلماء فى الهند ممن جمعوا بين العلم والعمل، أبرزهم الشيخ "آل رسول المارَهْرَوى" الذى سنلتقى معه – إن شاء الله – عما قليل.

فى رحلته الأولى إلى الحجاز التى كانت فى شرخ شبابه أخذ عن فطاحل علماء الحرمين الشريفين.

فهو إذا ذكرهم فاضت كلماته بمعانى المحبة والتقدير والإجلال، فيقول عن

أحدهم:

"شيخ العلماء بالبلد الأمين المحدث الفقيه الرزين المولى السيد أحمد بن زين بن دحلان المكى قدس سره الملكى".

ويقول عن أستاذ آخر: "المولى الأجل الفقيه الأبجل درة التاج وبدر الداج مفتى الحنفية بمكة المحمية سيدنا الشيخ عبد الرحمن السراج بن المفتى الأجل عبد الله السراج الوهاج".

ويقول عن أستاذ ثالث: "الشيخ المبارك الصالح السيد حسين بن صالح جمل الليل المكى".

۞۞۞

العالم الربانى:

وقد ظهرت على وجه الإمام الأنوار الربانية التى لا تخفى على أهل الصلاح، ففى الحجة الأولى التى قام بها مع والده سنة ١٢٩٠هـ، وكان آنذاك فى الثامنة عشرة من عمره، رآه فى المطاف إمام الشافعية فى المسجد الحرام الشيخ حسين بن صالح جمل الليل، فابتدره بقوله: والله إنى لأرى نور الله من هذا الجبين.

وكان إذا مشى بين الناس تعلقت به القلوب، تصديقًا لقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله إذا أحب عبدًا نادى جبريل: يا جبريل إنى أحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض".

قال الشيخ محمد كريم الله المهاجر من علماء المدينة المنورة للشيخ الإمام:

"إنى مقيم بالمدينة الأمينة منذ سنين، ويأتيها من الهند ألوف من

العالمين، فيهم علماء وصلحاء وأتقياء، رأيتهم يدورون فى سكك البلد
لا يلتفت إليهم من أهلها أحد، وأرى العلماء الكبار العظماء إليك
مهرعين، وبالإجلال مسرعين، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو
الفضل العظيم".

لم يغتر بهذا الكلام، ولم يقف عند هذا المقام ولا ركن إليه مع ما يتغشّاه من الأنوار، ذلك لأن ما يطلبه أعلى من ذلك وأجل: الله نور السموات والأرض..

لما رجع من الحجاز كانت نفسه قد زاد شوقها إلى الآخرة، فراح يطلب رجال الله وأهل الدلالة على الله، فساقه الله إلى واحد من أكابرهم وهو الشيخ "آل رسول المارهروى" الذى جمع بين العلم والعمل وكان من أكبر العلماء وشيوخ التصوف فى عصره، اشتهر بالولاية، وكان منارة تنير للسالكين وطالبى طريق الحق، ومرجعًا للعلماء من شتى أنحاء البلاد وخارجها.

فسافر إليه فى بلده "مارهرة" سنة ١٢٩٤هـ ولزمه ثلاث سنوات، نال فيها من أنواره وفيوضاته، وتربيته له بمجاهدة النفس وأنواع الرياضات حتى صفت نفسه من الكدورات وزال حجابها الكثيف الذى وصفه العارفون بقولهم: "النفس هى الحجاب الأعظم دون شهود الحق"، وأصبح العلم فى حياته مرهونا بالعمل.

يقول الأستاذ سيد محمد جلال الدين فى رسالته للماجستير عن الإمام:

"وتمرس على إشارات الصوفية ولوامع خواطرهم بعد طول
الرياضة والمجاهدة حتى أصبحت أحوال الصوفية خُلقًا له وفطرة،
مع تضلعه فى سائر العلوم".

وهذه العبارة الأخيرة: "حتى أصبحت أحوال الصوفية خلقا له وفطرة" سنتبين

مدى صدقها كلما توغلنا فى سيرة الإمام.

۞۞۞

الطهـر والعفاف ومكارم الأخلاق

حاطته العناية الإلهية منذ الصغر، ثم جاء العلم وصحبة شيوخ التربية فصقلا جوهره، وأخلصا سبيكته..

قال الذين رأوه إن "آثار الزهد والورع والتمسك بالأخلاق الفاضلة والتواضع والحلم فى معاملته مع الناس" كانت بادية عليه منذ صباه..

قال الأستاذ جلال الدين فى رسالته لنيل درجة الماجستير والتى عنوانها: "الإمام أحمد رضا خان القادرى وجهوده فى مجال العقيدة الإسلامية فى شبه القارة الهندية":

"عاش حياة نظيفة لا يشوبها شىء من الدنيا، فقد رغب عنها وعن كل ما فيها رغبة كاملة، يعيش عيشة الفقراء والمساكين، ويلبس من الملابس ما غلظ، ويأكل من الطعام ما جشب، وأقبل على الآخرة إقبالاً من قلبه وقالبه، وأقام على الناس الحجة على أن غاية خلق الإنسان هى أن يعيش فى الدنيا ليمهد السبيل للآخرة، ويقدم للغد من يومه زادًا يساعده فى النجاح الأبدى.. وكانت مجالسه تبعث فى النفس زهدا فى الدنيا وانصرافا إلى الآخرة وتواضعًا لله تعالى..

وكانت تبدو على وجهه دلائل الخضوع أمام قدرة الله تعالى مع غلبة التفكر والحزن..

وكان مؤثرًا للمساكين يكره المتكبرين والمغرورين، يسوى فى مجلسه بين الغنى والفقير، ولا يتفاضل عنده العباد إلا بالتقوى. كان قليل الطعام، قليل المنام حتى قيل إنه لم يكن ينام من الليل إلا ساعة

ونصف.. وكان جوادًا كريمًا لايردّ سائله خائبًا أبدًا.

الغنى الشاكر

اختلف سلفنا الصالح فى أيهما أفضل: الفقير الصابر أم الغنى الشاكر.

والغنى لا يفضل الفقير بحال، لأن الفقر مقام رفيع وكبير، لا يصل إليه الغنى إلا إذا كان شاكرًا بحق، بمعنى أن يكون شكر النعمة من صنف النعمة، فيظل الغنى الشاكر ينفق من ماله حتى تستوى حياته بحياة الفقراء، فيكون كمن حاز المقامين معًا..

هكذا كان ذو النورين رضى الله عنه. كان -فيما رواه المناوى فى طبقاته- يطعم الضيفان طعام الإمارة ثم يدخل داره فيأكل الخل والزيت، وكان ينام فى المسجد ويقوم وأثر الحصى فى جنبه وهو يومئذ خليفة المسلمين، ويخطب الناس وعليه إزار عدنى غليظ ثمنه أربعة أو خمسة دراهم.

لعل شيخنا الإمام كان من أهل هذا المقام العزيز.

قال الأستاذ جلال الدين نقلا عن مصادره باللغة الأوردية:

"كان من أثرياء عصره، وأغنياء زمانه، فقد رزقه الله تعالى مع العلوم والمعرفة أموالاً طائلة لينفقها فى سبيل الله تعالى، وكان ذا كرم وجود وسخاء، ويمثل فى شخصه نموذج المؤمنين الصادقين الذين قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ "البقرة: ٢٦٢" .

وكان يستعين بأمواله فى خدمة العلم والدين وينفقها على

المستحقين من طلبة العلم والفقراء والمساكين والأرامل.. يقول الأستاذ الشريف أيوب على: إنه لم يكن يرد سائلا دون أن يعطيه ويمد له يد المعونة، وعلاوة على هذا كان يخصص مبلغا من المال لمساعدة اليتامى والأرامل والمحتاجين، ولم تكن هذه المساعدات قاصرة على أهل مدينتة فقط، بل كان يبعث بها إلى مدن أخرى إذا احتاج إليه الأمر.

وكان هذا دأبه طيلة حياته، فإنه كان يسعد بالإنفاق فى سبيل الله تعالى حتى أنه كان فى أحيان كثيرة ينفق كل ما يملكه فى سبيل الله، ولم يهتم بجمع المال، فقد كان يؤثر الصدقة النافلة على الزكاة فلم يبلغ المال عنده نصاب الزكاة.. يقول الإمام نفسه: "ما أدّيت زكاة المال طيلة حياتى ولو قرشًا واحدًا".

أضف إلى هذه الصورة ما سبق ذكره من أنه -رضى الله عنه- كان "يعيش عيشة الفقراء والمساكين، ويلبس من الملابس ما غلظ، ويأكل من الطعام ما جشب..".

* * *

ثم انظر - أيضا - إلى هذا الجانب الآخر من الشكر الذى تبينه القصة التالية التى ذكرها الاستاذ جلال الدين عن رواية الأستاذ محمد ظفر الدين البهارى الذى كان تلميذًا للإمام، وكان يقرأ عليه الرسائل التى ترد إليه حيث قال:

"جاءت رسالة إلى الشيخ الإمام ضمن الرسائل اليومية، فقرأت منها بعض السطور فوجدتها مليئة بالشتم والسِّباب، فوضعتها فى جانب، وأخبرت الشيخ بما فيها بإيجاز، فحملها أحد المريدين إلى الشيخ وأخذ يقرأها فتألم الإمام قليلا، وبعد صلاة المغرب حين أراد

الشيخ أن يدخل البيت طلب هذا الرجل أن يرفع القضية إلى المحكمة ضد كاتب هذه الرسالة نظرًا للإهانة، فما كان رد الشيخ إلا أن طلب إليه الانتظار قليلا. فدخل الإمام البيت وخرج ومعه عدد كبير من الرسائل، فأعطاها للرجل، وأمره بقراءتها، فلما بدأ الرجل يقرأ أشرق وجهه فرحة وسرورًا حين وجد الرسائل تتضمن المدح والشكر للإمام على خدماته الجليلة، فلما انتهى الرجل من قراءتها توجه إليه الشيخ قائلا:

"لتكرم هؤلاء الناس - المادحين له - أولاً بالجزاء والعطايا والثناء عليهم ثم تفكر فى أمر الشاتمين"

أى كما أن الشَّاتم يستحق العقاب، كذلك الشاكر يستحق العطاء والثناء، فأنا عاجز عن تقديم الشكر والعطاء للمادحين لكثرة عددهم، فكيف المؤاخذة لشاتم واحد؟

حقا.. سبحان، العاطى الوهاب.

ما أجمل العالِم إذا اتصف بمكارم الأخلاق، عندئذ يصبح ربانيًا، يبث فى الناس روح الحق ونور الحقيقة.

۞۞۞

مصنفـاته:

قال الدكتور حسين مجيب المصرى فى تقديمه لكتاب "الشيخ أحمد رضا خان البريلوى:

"ونحن إذا ذكرنا أحمد رضا خان فقد ذكرنا مفكرا وداعية إسلاميا له من رفعة المكانة فى شبه القارة الهندية وغيرها من آفاق

البلاد الإسلامية وكذا فى بلاد الغرب، ولا عجب فهو عالم علامة فى أصول الدين، وفقيه متبحر فى شتى المذاهب والتيارات الدينية الإسلامية. إنه قطب من أقطاب الإسلام فى القرن العشرين، وهو أعرف من أن يُعرّف، إنه يختلف عن كثير من أقطاب العلماء والفقهاء بكثرة ما أخرج من كتب قيل إنها تجاوزت الألف، وهذا مالا علم لنا بمثله عند من سواه من أهل العلم..".

وقد أفاض من كتبوا عنه فى بيان سعة علمه وعظيم فضله، وقالوا إنه لا يكاد يخلو كتاب له من إفادات بديعة، وابتكارات مدهشة، وحلول لم يُسبق إليها، أما فى الفقه وعلم الكلام والعلوم الدينية فقد اشتهر نبوغه، وبلغ صيته الآفاق، واعترف بمكانته العالية حتى أعداؤه.

ترجمته لمعانى القرآن الكريم:

لم يكن زاده فى هذه الترجمة تمكنه من اللغة العربية، وغوصه فى علوم القرآن والحديث، وسعة معارفه بالعلوم والصناعات، وغير ذلك، فحسب، وإنما كان زاده الأكبر حب الله والرسول، وتعظيمهما إلى أبعد مدى، فتفتحت أمامه المغاليق، واستنارت المشاهد، وتكشفت المعانى، فكانت ترجمته أفضل مما سواها، وصفها العالم السلفى الشيخ سعيد بن عبد العزيز يوسف زئى بقوله:

"إنها أول ترجمة لمعانى القرآن الكريم روعى فيها علو حضرته تعالى وجلالته وعظمته ومجده وكبرياؤه عند ترجمة معانى الآيات المتعلقة بذاته تعالى، ولا توجد هذه المزية فى غيرها من التراجم القرآنية، سواء كانت من علماء أهل الحديث أو من أصحاب مدرسة

فكرية أخرى. كما راعى الإمام أحمد رضا فى ترجمته لمعانى آيات تتعلق بسيد الأولين والآخرين، حبيب رب العالمين، إمام الأنبياء، شفيع يوم الجزاء محمد المصطفى – صلى الله تعالى عليه وآله وسلم – راعى فى الترجمة مكانته السامية ومنزلته الرفيعة، ولم يساير فى هذا الصدد غيره من المترجمين الذين أتوا بترجمة لمعانى هذه الآيات من الناحية اللغوية والحرفية فحسب، وهذه فضيلة تخلو منها التراجم الأخرى تماما..".

فبينما ترجم كبار علماء الهند قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴾ فى سورة الضحى بأشياء مثل:

- "ووجدناك تائها فهديناك"
- "ووجدناك غافلاً عن الطريق فهديناك الطريق"
- "ووجدناك لا تعرف الطريق فأرشدناك"

ترجمها الشيخ الإمام الترجمة اللائقة بمقام الرسالة المحمدية فقال:

- "ووجدناك فانيا فى محبتنا وتائها فى وديانها فهديناك إلينا".

وهذه الترجمة من الإمام المحب العاشق أكثر ملائمة لروح القرآن الكريم الذى قال فى سورة النجم ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ التى تجزم بأن النبى ﷺ لم ينحرف عن سبيل الهداية ولم يضل قط.

۞۞۞

ثلاثة أهـداف:

لم يكن طلب العلم عنده من أجل دنيا يصيبها، أو شهوة نفس يشبعها، حاشا أن يكون هذا شأن مثله، من نشأ فى بيت العلم والزهد والعفاف، ومن نشأ فى كنف والده وجده العالمْين الربانيين.

إنما طلب العلم، وبثه، وصنف فيه المصنفات تقربًا إلى الله، وطلبا لمرضاته. وقد حدَّد لحياته العامرة، وعلومه الفائقة، ومصنفاته الكثيرة ثلاثة أهداف، لا يخرج عنها، فكانت بحق نعمت الأهداف التى سعى بها إلى درجات الإحسان ومنازل أهل القرب والوداد.

قال شيخنا الإمام فى "الإجازات المتينة لعلماء مكة والمدينة" مبينا هذه الأهداف:

"أما فنونى التى أنا بها ولها، ورُزقت حبها فثلاثة:

١. أول الكل، وأوْلى الكل، وأعلى الكل، وأغلى الكل: حماية جانب سيد المرسلين -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين- من إطالة لسان كل وهابىّ مَهين، بكلام مُهين، وهذا حسبى إن تقبّل ربى، وهذا ظنى بربى وقد قال: "أنا عند ظن عبدى بى".

٢. ثم نكاية بقية المبتدعين ممن يدعى الدين، وما هو إلا من المفسدين.

٣. ثم الإفتاء بقدر الطاقة على المذهب الحنفى المتين المبين.

***

وقبل أن نسترسل مع الإمام فى رياضه المونقة وبساتينه المزهرة يحق لنا أن نسأل مندهشين: أهناك مسلم يجحد فضل الرسول عليه، ناهيك عن أن ينال من مقامه العالى بلسانه القبيح؟؟!!

أهناك حقا مثل هذا؟؟!!

۞۞۞

فتنة التطاول على المقام النبوى المقدس:

عندما ظهر ابن تيمية فى القرن الثامن الهجرى لمع نجمه بسرعة إذ أن الله سبحانه وتعالى أنعم عليه بنعمة الحفظ وغزارة العلم وطلاقة اللسان، وسيولة القلم.. لكنه لم يقابل نعمة الله بالشكر إذ تملّكه الإعجاب بنفسه، والزهو على غيره، وأصبح يردّ على العلماء، ولم يسلم من لسانه أئمة الأمة وأولياؤها الصالحون، بل نال به جلة الصحابة حتى خاض فى المقام النبوى الشريف. فعندما اطلع على كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ" للقاضى عياض الذى تناول فيه بعض صفات النبى ﷺ ومواهب الله له قال قولته الشنيعة: "غلا هذا المغيربى".

وأفتى بمنع زيارة النبى ﷺ حتى ادعى أن السفر لزيارة حبيب رب العالمين مُحُرَّم بالإجماع(!؟) وأن الصلاة لا تقصر فيه لعصيان المسافر به، وأن سائر الأحاديث الواردة فى فضل الزيارة موضوعة.

وأفتى كذلك بأن النبى ﷺ لا يُستغاث به.

ذكر ابن حجر العسقلانى فى "الدرر الكامنة" بعض هذه الفتاوى وكيف تصدى له العلماء حتى قال: "ومنهم (أى من العلماء) من نسبه إلى الزندقة لقوله أن النبى ﷺ لا يُستغاث به، وأن فى ذلك تنقيصا ومنعا من تعظيم النبى ﷺ".

وكانت هذه الفتاوى – مع غيرها – وراء سجنه بإجماع مشايخ المذاهب الأربعة درءًا للفتن التى أثارها بين عوام المسلمين..

❋ ❋ ❋

ولكن فتنة ابن تيمية لم تنته بسجنه، وبتصدى علماء الأمة له. إنما كُبتت إلى حين. حتى كان القرن الثانى عشر الهجرى، أى بعد ما يقرب من أربعمائة عام إذ نهض بجزيرة العرب داعية جديد، استخرج من علم ابن تيمية الغزير هذه الفتاوى فلم ير غيرها،

وبنى دينه كله على أساسها.

أقام محمد بن عبد الوهاب الداعية النجدى دعوته على أساس أن الأمة قد ارتَّدت عن الإسلام بسبب توسلها بالنبى ﷺ وبأولياء الله الصالحين، وبسبب زيارتها لقبر نبيها ﷺ وقبور الصالحين، وسماها أتباعه بعبادة القبور، واعتبروا تعظيم النبى ﷺ إشراكا له فى عبادة الله إلى غير ذلك من الشذوذ القبيح.

وصلت هذه الأفكار إلى الهند، فيما وصلت إليه من بلاد الإسلام، فوقع فى حبائلها من هم أهل لها، وقامت لها مدارس ومعاهد، ونشأ بها علماء وأسماء كبار وصغار، اجتهدوا فى نشر هذا الفكر وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وتطاول بعضهم فى كتبه على مقام الألوهية ومقام النبوة.

وكما أقام الله فى بلاد العرب رجالاً يقفون فى وجه الفتنة ويثبتون أهل الإيمان على إيمانهم أمثال العالم الربانى مفتى الشافعية بالبلد الحرام الشيخ أحمد زينى دحلان، والإمام الربانى الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهانى وغيرهما.. أقام فى بلاد الهند آخرين لهم نفس الصفات وذات المهمة، على رأسهم الإمام الربانى المجدد الشيخ أحمد رضا خان البريلوى، الذى من الله علينا بالتعرف عليه من خلال هذه الصفحات القليلة الموجزة!

❊ ❊ ❊

كتب فضيلة الأستاذ كوثر النيازى وزير الشئون الإسلامية والأقليات بباكستان سابقًا كتابًا عن شيخنا الجليل بعنوان "الإمام أحمد رضا الحنفى البريلوى وشخصيته الموسوعية" قال فيه:

"ومما يؤخذ عليه أنه كفر كبار العلماء وأكابر المسلمين، ولكننى أقول إن هذا الأمر وحده هو الذى جعله فريدًا بين زعماء المدارس

الفكرية.. فهذه الفتاوى المتعلقة باحترام المقام النبوى والزود عنه هى ما يميز مدرسته عن باقى المدارس.

إن هذا التشدد الذى يتهم به الإمام أحمد رضا هو الذى يبين لنا مفتاح شخصيته، ألا وهو الفناء فى حب الرسول ﷺ، لقد بلغ فى فنائه هذا إلى أكمل الدرجات وأعلاها، ووصل فى محبته للحضرة المحمدية إلى ذروة صفائها؟؟ لذلك لم يكن يصبر على أى شىء يشم منه أدنى إهانة لمقام الرسول الكريم ﷺ . وعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة أوصى ورثته ومحبيه بقوله:

"ابتعدوا عن كل من تجدون منه أدنى إهانة لحضرة الرسول ومقامه ﷺ أو أدنى استخفاف بشريعة الله ونظامه، مهما يكن ذاك الرجل معظما، حتى ولو كان شيخًا مكرمًا، انزعوه من قلوبكم مثل نزع الذباب من الحليب".

***

وينقل الأستاذ كوثر النيازيعن بعض كبار مشايخ "ديوبند" كلمات قالوها فى حق شيخنا الإمام المجدد عندما بلغتهم وفاته فقال:

"لقد درست صحيح البخارى على شيخ الحديث حضرة الأستاذ محمد إدريس الكاندهلوى من أشهر العلماء الديوبنديين، وكان يقول عند ذكر الإمام أحمد رضا: "إن مولانا أحمد رضا خان سيُغفر له بسبب هذه الفتاوى وسيقول الله له: يا أحمد رضا غفرت لك على حبك لحبيبى ذلك الحب الذى تمكن من سويداء قلبك حتى أنك لما تيقنت بإهانتهم للحضرة النبوية القدسية لم تترك هؤلاء العلماء الكبار

وكفّرتهم، أذهب فقد غفرت لك بسبب هذا العمل الوحيد".

ومثل هذا سمعته من المفتى الكبير بباكستان الشيخ محمد شفيع الديوبندى يقول: "عندما وصل مولانا أشرف على التانوى خبر وفاة الإمام أحمد رضا أسرع برفع يديه إلى السماء للدعاء، ولما فرغ من دعائه سأله أحد الحاضرين مندهشا: لقد استمر هذا الرجل يُكِفّركم طوال الحياة فكيف تدعو له الآن بالمغفرة؟ فقال: إن الشيخ أحمد رضا أفتى بكفرنا لما تيقَّن أننا ارتكبنا جريمة إهانة المقام النبوى، ولو لم يكفرنا مع وجود هذا اليقين لديه لكفر هو بنفسه".

۞۞۞

عقيـدته:

وصفها العلامة الدكتور حسين مجيب المصرى بقوله:

"إنه سنى حنفى المذهب، قادرى المسلك، راسخ الاعتقاد، وتجلى ذلك بتمام الوضوح فى كل ما أخرج من كتاب وديوان.

واهتم معاصروه بدراسة عقيدته والكتابة عنها فى تحليل وتعليق، واجتمعت كلمتهم على صحة تلك العقيدة، وهو القائل فى ذلك وبعربيته الرصينة: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الله أحد، لا معبود إلا هو وسيدنا محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– رسوله الصادق، آمنت به. ودينى هو دين الإسلام، وكل معبود سوى الله تعالى باطل. لا عبادة لغير الله، المحيى هو الله الواحد، والمميت هو الله الأحد، والممطر هو الله الفرد، والرزاق هو الله الأحد، الإسلام هو الدين الحق، والأديان كلها غير الإسلام باطلة".

❊ ❊ ❊

كان الإمام أحمد رضا يعتقد أن محبة الله والرسول ومحبة أولياء الله تعالى بهجة الإيمان ورونق الدين، ويعتبر أن ضعف هذه المحبة فى القلوب، وإساءة الظن بالسلف الصالح أمر خطير، ومصيبة عظمى، وهذه آفة الأمة فى القرن العشرين لتفشى العقيدة الوهابية فى أجزاء كبيرة من العالم الإسلامى، وفى الهند خاصة حيث تأثر بها علماء "ديوبند" و"ندوة العلماء" و"جماعة التبليغ" وأهل الإصلاح والتجديد..

قال الاستاذ جلال الدين فى رسالته الجامعية المعنونة "الإمام أحمد رضا خان القادرى وجهوده فى مجال العقيدة الإسلامية فى شبه القارة الهندية":

"إن الميزة الحقيقية فى حياة الإمام هى الحرص الشديد على اتباع السنة والعمل بالعزيمة. إنه ارتقى القمة فى هذين الجانبين، ولم يرض بأى حال أن يتنازل عن اتباع السنة والتمسك بالعزيمة.. وكان شديد الكراهية للبدعة، كبير الاجتناب من كل مالا يوافق السنة المطهرة".

۞۞۞

علـم النبى ﷺ:

كان الإمام -رضى الله عنه- يؤكد على المحبة لسيد الكائنات ﷺ. والوعى بعظمته، وجليل عطاء الله له، فلما كتب كتابه العظيم "الدولة المكية بالمادة الغيبية" وبين فيه أن الله أطلع حبيبه ومصطفاه ﷺ على العلوم الغيبية، هاجمه علماء "ديوبند"، واتهموه بالغلو وأنه أشرك المصطفى ﷺ مع الله فى العلم، فبين لهم أن علم الله تعالى ذاتى مختص به تعالى، ومن أثبت منه شيئا لغيره تعالى فقد اقترف كفرًا صريحًا، وشركًا بواحًا، أما العلوم الغيبية التى شرف الله تعالى وأكرم بها حبيبه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فحاصلة له من ربه تعالى وليست بذاتية، ومن أثبت منها شيئا للنبى فقد كفر.

قدّم الإمام لكتابه المبارك بهذه المقدمة الضافية التى أنقلها كما هى تبركًا بها، وطلبا للنيل مما امتلأت به من فوائد ودُرر:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلى على رسوله الكريم

الحمد لله علام الغيوب، غفار الذنوب، ستار العيوب، المظهر من ارتضى من رسول على السر المحجوب، وأفضل الصلاة وأكمل السلام على أرضى من ارتضى وأحب محبوب، سيد المطَّلعين على الغيوب، الذى علمه ربه تعليما وكان فضل الله عليه عظيما، فهو على كل غائب أمين، وما هو على الغيب بضنين، ولا هو بنعمة ربه بمجنون، مستور عنه ما كان أو يكون، فهو شاهد الملك والملكوت ومشاهد الجبار والجبروت، ما زاغ البصر وما طغى، أفتمارونه على ما يرى، نزل عليه القرآن تبيانا لكل شىء فأحاط بعلوم الأولين والآخرين، وبعلوم لا تنحصر بحد، وينحسر دونها العد، ولا يعلمها أحد من العالمين، فعلوم آدم، وعلوم العالم، وعلوم اللوح وعلوم القلم كلها قطرة من بحار علوم حبيبنا ﷺ، لأن علومه، وما يدريك ما علومه، عليه صلوات الله تعالى وتسليمه، هى أعظم رشحة، وأكبر غرفة من ذلك البحر غير المتناهى، أعنى العلم الأزلى، الإلهى فهو يستمد من ربه والخلق يستمدون منه، فما عندهم من العلوم إنما هى له وبه ومنه وعنه:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وبارك وكرم، آمين.

وبعد!

فقد أتانى وأنا حلّ بالبلد الحرام، سؤال من بعض الهنود فى علم سيد الأنام، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، وقت العصر يوم الاثنين لخمس بقين من ذى الحجة، عام ألف وثلاثمائة وثلاث وعشرين من هجرة من أتم الحجة، وأوضح المحجة، عليه من الصلوات أكملها، ومن التسليمات أفضلها - وأظنه ناشئا من بعض الوهابية الذين قد سبوا الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم سبا، وأشاعوا بذلك فى الهند كتبا، وذلك لأن السُنّى إن احتاج هاهنا أن يسأل علماء، فهذا بلد الله الأمين ممتلئ بحمد الله علما وعلماء، فمن كان عند البحار الزواخر، فما مضيه إلى نهر فى الآخر، على أن سادتنا علماء مكة المكرمة حفظهم الله تعالى قد شرحوا مسألة علمه صلى الله تعالى عليه وسلم، وسائر المسائل التى يخالف فيها الوهابى الأظلم، لا مرة ولا مرتين وقد كشفوا الرين، وأفادوا الزين، وأبادوا الشين، وأقاموا على الوهابية الحين.

وهذا العبد الضعيف، بفضل ربه القوى اللطيف، أبان عن جد فى خدمة السنة الزهراء، مقيم على الوهابية الطامة الكبرى، صنف كتبا تزيد على مائتين ودعا كبراءهم إلى المناظرة لا كرَّة ولا كرَّتين، فما أحار أحد منهم جوابا، فهذا ما يغيظهم وقد علموا أنى بمكة منقطع عن كتبى، مشتغل بزيارة بيت ربى، مستعجل إلى بلد مولاى وحبيبى، صلى الله تعالى عليه وسلم فأثاروا هذا السؤال، طمعا منهم أن يمنعنى

الاستعجال وشغل البال، وفقدان الكتاب، عن إبانة الجواب، فيكون في ذلك عيد لهم ومسرة، ونوع عوض عما أصابهم من المعرة، أن سَكتُّ أيضا مرة كما أسْكتُّ كبراءهم ألف مرة، وجهلوا أن هذا الدين المتين مأمون، وكل من ينصره منصور ومصون، وإنما أمر الله إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فهذا ما فهمت من هذا السؤال، والعلم بالحق عند ذى الجلال، فالأحسن تقسيم الجواب إلى قسمين: قسم للسائل المستفيد، وآخر على الصائل العنيد، ليصل كلاًّ ما يستأهله، ويجاوب كل بما هو أهله..

۞۞۞

تأييد علماء السنة:

وقد حصلْتُ على طبعة من كتاب "الدولة المكية" مطبوعة بباكستان، وذيّلها الناشر بعدد من تقريظات علماء أهل الزمان بلغت تسع وخمسين تقريظًا، نعرض بعضها، وفي البعض ما يدل على الكل.

- قال السيد إسماعيل بن خليل:

"اعلم أن شيخنا المذكور الشيخ أحمد رضا خان لما فرغ من كتابته على السؤال المعروض عليه أمر شريف مكة الشيخ صالح كمال -مفتى مكة سابقًا- بأن يقرأه في مجلسه على ملأ من الناس، وكانت الفئة الطاغية حينئذ جلوسًا، وعلماء الوهابية حضورا، فقرأ مولانا الشيخ صالح كمال الجواب، وما أودع فيها مولانا من جزيل الخطاب، وبين لقولهم الباطل ومذهبهم العاطل. فكُبتوا وبُهتوا خذلهم الله أين ما كانوا..

فحينئذ ظهر لأمير مكة أن مولانا أحمد رضا على الحق والصواب، وأخصامه – وهابية كانوا أو غيرهم – على الضلال والارتياب"

- وقال الشيخ عبد الله سراج مفتى الحنفية بمكة المكرمة:

".. ولقد أجاد مؤلفها وأفاد، وأوضح سنن الهداية والرشاد، فما كُلُّ مَن جَمَعَ ألّف، ولا كل من أكثر النقل والعَزْو صنّف، إنما تلك مواهب وهب بها المولى لمن شاء وجعله أولى، وكلٌ يَدَّعى وصلا بليلى، فمن تأمل ما فيها ونظر فى ظاهرها وخافيها تحقق عنده كذب زعم قول القائل بأن مؤلفها ذكر فيها مساواة علم نبينا ﷺ بعلم الله عز شأنه وتعاظم برهانه وغير ذلك من الكذوبات والأقاويل..

- وقال الشيخ عبد الله بن حميد مفتى الحنابلة بمكة المشرفة:

"فقد نظرت إلى هذه الرسالة التى قابلها بالقبول كل رئيس، فوجدت شموس براهينها قد جَلَتْ كل ظلمة، وأشرقت أنوار هداها على هذه الأمة.. فعند لثم ثغرها الباسم حمدت الله تعالى ألفًا وعشرًا، ولو كنت على وضوء لسجدت لله شكرًا على أن منّ الله علينا بهذا العالِم المحقّق المدقّق، لا زالت شجرة علمه نامية على ممر الأزمان، وثمرة عمله مقبولة لدى الملك الديان..".

- وقال الشيخ محمد صالح مفتى الأحناف بمكة المكرمة:

"فإن الرسالة المسماة بالدولة المكية بالمادة الغيبية خالية عما ادعاه على مؤلفها أهل الزور والبهتان من أنه ادعى فيها مساواة علم الرسول ﷺ لعلمه عز وجل إلى آخر ما ادعاه أهل الطغيان..

اللهم إنا نعوذ بك من المكر والاستدراج والتفوه فى حق كبار العلماء بما يوجب الطرد عن سبيل النجاة إلى سبيل الاعوجاج. اللهم زِد وبارك وأطل عمر هذا الأستاذ الكبير والعالم النحرير ليكون غُصّة وشوكة فى حلق كل مبتدع جهول لا يقدِّر قدر سيدنا ونبينا ومولانا محمد..".

- وكتب الشيخ محمد جمال بن محمد الأمير مفتى المالكية:

"أما بعد: فإنى قد اطلعت على هذه الرسالة المسماة بالدولة المكية بالمادة الغيبية فوجدتها قد وشحت بالآيات الوهبية.. كيف لا وهى للعالم العلامة المفرد، والسيد الحبر الأمجد شيخنا الشيخ أحمد رضا خان، ووجدتها خالية عما نسبه إليه أهل الزور والبهتان..".

- وكتب العلامة الشيخ حمدان الوينسى القسنطينى الجزائرى:

"أما بعد: فإنى لما اطلعت على الرسالة المسماة بالدولة المكية لأوحد جهابذة الهند العلامة النحرير الإمام الشهير المفسر المحدث الأصولى الفقيه اللغوى الجدلى المناظرى، الشيخ أحمد رضا خان الهندى دام مجده وعُلاه، وأمعنت النظر فى تراكيبها ومبانيها، وتأملت جيدًا فى مفاهيمها ومعانيها وجدتها بحرًا عبابًا وعجبًا عجابًا، آخذة من التحقيق أعلاه، ومن التدقيق أقصاه، مؤيدة بالكتاب والسنة وإجماع هذه الأمة، وجلى القياس، مُدعمة بالحجج العقلية والبراهين اليقينية التى لا يبقى معها بعد التأمل العارى عن المكابرة ريب ولا التباس، دلت على تبحر مؤلفها المذكور أبقاه الله حجة للأنام وكهفا للنوازل العظام".

- وكتب السيد علوى بافقيه الحسينى العلوى مفتى الشافعية ونقيب الأشراف بالمدينة النبوية المشرفة:

"أما بعد: فقد مَنَّ الله علينا ذو الجلال أن جعل فى كل عصر رجالا أبطالاً أسهر عيونهم وشغل قلوبهم بالتدريس والتأليف والتصنيف مع الترصيف ورد شبهة أهل الهوى والضلال والافتراء، وكان من رؤسائهم وأكابر عظمائهم أفضل الفضلاء وأنبل النبلاء فخر السلف وقدوة الخلف الشيخ أحمد رضا خان البريلوى عامله الله بلطفه الخفى.

وقد اطلعت على الرسالة المسماة بالدولة المكية بالمادة الغيبة فقد ألف وأفاد، وصنف وأجاد، وإنها لجديرة بأن تكتب بالتبر بدل المداد والحبر، كيف لا وقد كشفت لنا عن معنى الحقائق وغامض الدقائق، وحلت معضل المشكلات بالحجج الدامغة والبراهين البينات، فجزاه الله تعالى خير الجزاء".

- وكتب العلامة الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهانى تقريظًا نُشر فى مجلة "البيان" السورية جاء فيه:

"أما بعد: فإنى لما تشرفت بالمجاورة فى أعتاب سيد المرسلين فى بلدته الطاهرة ومدينته المنورة فى هذا العام سنة ١٣٣١هجرية طلب منى بعض العلماء الأفاضل من أهل السنة والعترة الطاهرة أهل المدينة المنورة، أن أقرظ هذا الكتاب المسمى بالدولة المكية بالمادة الغيبية تأليف الإمام العلامة الشيخ أحمد رضا خان الهندى.

فلما أرسله إلىَّ قرأته من أوله إلى آخره، فوجدته من أنفع الكتب

الدينية وأصدقها لهجة وأقومها حجة ولا يصدر مثله إلا عن إمام كبير علامة نحرير فرضى الله عن مؤلفه وأرضاه وبلغه من كل خير مناه..

وأختم كلامى بسؤال الحق تعالى بجاه هذا النبى الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم أن يكثر من أمثال مؤلف هذا الكتاب الأئمة الأعلام حماة الإسلام المتصدين للرد على الكفرة والمبتدعين اللئام فإنهم من أفضل المجاهدين الذابين عن حوزة الدين والحمد لله رب العالمين".

۞۞۞

يارسول الله!

إن التوسل بالنبى ﷺ ومناداته والاستغاثة به أمر لا ينشرح له إلا من فُطِر على الإيمان، وجُبل على التوحيد.. على رأس هؤلاء يجىء أصحاب النبى ﷺ - خير القرون، رضى الله عنهم – حين نادوا مجتمعين على حبيبهم ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى يوم اليمامة الرهيب، مستغيثين به فجعلوا شعارهم يومئذ: يا محمداه.. يا محمداه.

أما المبتدعون وأهل الأهواء؛ من أظلمت عقولهم وقست قلوبهم، فهم بعيدون كل البعد عن هذه المعانى السامية، لا يشمّون لها رائحة.

هؤلاء أئمة الأمة وسلفها الصالح لم يكتفوا بأن يطووا قلوبهم على عظيم نعمة الله لهم حتى أعلنوها للناس فى قوالب شعرية يسهل حفظها وتداولها إلى ما شاء الله.

استمع إلى الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان وهو يقول مخاطبًا سيد الأكوان صلوات الله وسلامه عليه وعلى آلاه وصحبه فى قصيدة طويلة مشهورة:

أنا طامع بالجود منك ولم يكن ... لأبى حنيفة فى الأنام سواكا

والإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى يقول:

نبـــى الله يـــا خيـــــــــر البرايـــا   بجاهك أتقى فصل القضـــــاء

وأرجو يا كريم العفـــو عمـــا   جَنَتْـــه يداى يارب الحبـــــاء

فقل يا أحمد بن على اذهب   إلى دار النعيــــم بلا شقـــــاء

عليك سلام رب الناس يتـــلو   صلاة فى الصباح وفى المساء

وإمام المادحين البوصيرى يقول فى "البردة" االشريفة:

يا أكرم الخلق مالى مَن ألوذُ به   سواكَ عِند حُلولِ الحادث العَمِمِ

فعقَّب عليه الإمام البيضاوى فى تسبيعة الشهير على قصيدة البردة المباركة بقوله:

الله علاك يا مـــن هـــو أجـــل نبى   يا من يُرَجّى لما أرجوه من طلبِ

يا زاكيالأصل والأوصاف ياعربى   أنت الشفيع لذنبى يـوم مُنقـــلبى

وأنت غوثى إذا ما ضقت فى نسبى

يا سيد الرسل آت النفس نصرتها

والإمام العلامة السيوطى يقول لحبيبه ﷺ:

فمطلبى أنت أولى فى النجاح له   وأنت أدرى به يامُسبغ النِّعَمِ

والإمام الزملكانى يدعو على "فرقة الزيغ" الذين ينكرون التوسل بالمصطفى ﷺ قاصدًا بهم ابن تيمية وفرقته فيقول متوسلاً ومخاطبًا صاحب الجاه العظيم صلوات الله

وسلامه عليه:

يا صاحب الجاه عند الله خالقه — ما رَدّ جاهك إلا كل أفاك

أنت الوجيه على رغم العِدا أبدا — أنت الشّفيع لفُتّاكٍ ونُسّاكِ

يافرقة الزَّيْغ لا لُقِّيتِ صالحةً — ولاشفى الله يوما قلب مَرْضاكِ

ولا حَظِيتِ بجاهِ المصطفى أبدا — ومن أعانكِ فى الدنيا ووالاكِ

يا أفضل الرُّسل يامولى الأنام ويا — خير الخلائق فى إنسٍ وأملاكِ

هاقد قصدتك أشكو بعض ما صَنَعَتْ — بىَ الذنوبُ وهذا ملجأ الشّاكى

***

كثيرون لا يحصون من علماء الأمة وصلحائها رصَّعوا كلماتهم شعرًا ونثرًا بهذه المعانى العالية، ولمن أراد الاستزادة منها فليرجع إلى كتاب الإمام النبهانى حزب الاستغاثات بسيد السادات ﷺ إعداد محمد خالد ثابت.

وإمام الهند الكبير ولى الله المحدث الدهلوى يقول أيضا:

وصلى عليك الله يا خير خلقه — ويا خير مأمول ويا خير واهبِ

ويا خير من يُرجى لكشف رَزِية — ومن جوده قد فاق جود السّحائبِ

وأنت مجيرى من هموم مُلمّةٍ — إذا أنشَبَت فى القلب شرّ المخالبِ

***

ماذا يقول المحب الكبير، المنافح عن سنة الحبيب ﷺ الشيخ الإمام أحمد رضا خان البريلوى فى هذا المقام الشريف: مقام المشاهدة لنبى الإسلام ﷺ والاستمداد منه؟

إن ما قاله كثير، وقصائده فى الحبيب ﷺ كثيرة جدا – كما سنرى بعد قليل – ولكنا نسوق منها نموذجين أو ثلاثة، هى حسبنا فى هذا المقام.

قال رضى الله عنه:

رسـول الله أنت بُعثت فينـا كريمـا رحـمـة حصنًا حصينا
تُخـوِّفنى العِـدى كيـدًا متينًا أجِـرْنى يا أمـانَ الخـائفينـا

وقال:

رسـول الله أنـت المستـجـارُ فلا أخشى الأعادى كيف جاروا
بفضـلك أرتجى أَن عـن قريبٍ يمـزّق كيـدهم والقـوم باروا

وقال:

رسـول الله أنت لنـا الرجـاء وفضـلك واسـع ويـداك جـودُ
حبيب الله مـن تُقْريـه حِفظًـا فكـل كريهـةٍ عنـه بعيـدُ
ومن يدرى علاك وقد علا العـر ش قدرك والسماء سما الوصيـد

وليـــىٍّ ثُـــم أنت بِنـــا مِن أنفُسِنـــا ورَبِّ بِذا لأَوْلـى شهيـــــد

غُلَيِّمُكَ الوحيـــدُ رجـا إذ أنت العدل والقاضى رِضاكا الوحيـــدُ

۞۞۞

جهـــاده:

رأى أحد الصالحين النبى ﷺ فى المنام، فسأله عن الجهاد، فقال له صلوات الله وسلامه عليه: جهاد أمتى فى قرنكم هذا بالعلم والكلمة.

والذى يتأمل أحوال أمة الإسلام فى أيامنا هذه يدرك يقينا أن أعظم الجهاد هو هذا الذى أشار إليه النبى ﷺ فى هذه الرؤيا، لأن الأمة قد تفرقت شيعًا، وانتشرت فيها البدع وانقلب المعروف منكرا والمنكر معروفا، وعظمت الدنيا فى القلوب وبهتت معالم الدين والإيمان وأصبحت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا، ولا يعرف أولها من آخرها. لذلك كان أعظم الجهاد إماطة البدع عن جوهر الدين، ودلالة المسلمين إلى حقيقته، وإبراز العقيدة الصحيحة فى الله والرسول، وتشييد الرغبة فى الآخرة فى القلوب من جديد.

* * *

كان الإمام أحمد رضا خان البريلوى من خير من قام بهذا الدور، وقد هيأه الله له، وأمدّه بأدواته ووسائله، فلم تقتصر جهوده على جهاد طوائف الوهابية فحسب، وإنما شملت جميع الأخطار التى تهددت عقيدة الإسلام النقية الصافية.

قال الأستاذ محمد أحمد المصباحى فى كتابه القيم "حدوث الفتن وجهاد أعيان السنن" واصفا جهاد الإمام:

"رد على النصارى والهنادك والرافضة (الشيعة) والقاديانية، والوهابية، والديوبندية، والندوية.. وغيرها، وكلما ظهرت بدعة ردّ عليها حتى قال العلماء إن كثيرا من المبطلين كان يمتنع من إعلان بدعته زمنا طويلا مخافة من قلم الإمام أحمد رضا، وكذا كان شديد الإنكار على كل حرام ومنكر وسوء يظهر فى المجتمع الإسلامى، وتصانيفه تزخر وتتدفق بالردّ على البدع والمنكرات.

والمبتدعة لما لم يتمكنوا من الرد عليه بحجة ودليل لجأوا إلى البهت والافتراء فقالوا: إنه يسوِّى الرسول بالرب الجليل، ويبيح السجود للصالحين أو لقبورهم، ويتصدى للرد على كل حركة إصلاحية، وأسموا أهل السنة: "البريلوية" لينخدع من لا يعرف حقيقة الأحوال والظروف، ويظن أن هذه فرقة جديدة.."

***

من ضمن كتبه الكثيرة التى تصدى فيها لأهل البدع والأهواء كتاب "المعتمد المستند" الذى اطلع عليه الشيخ تاج الدين إلياس مفتى السادة الحنفية بالمدينة المنورة فقال:

"لقد اطلعت على ما حرره العالم النحرير والدراكة الشهير، جناب المولى الفاضل الشيخ أحمد رضا خان من علماء أهل الهند – أجزل الله مثوبته وأحسن عاقبته– فى الرد على الطوائف المارقة من الدين، والفرق الضالة من الزنادقة الملحدين، وما أفتى به فى حقهم فى كتابه وهو تحت عنوان "المعتمد المستند" فوجدته فريدًا فى بابه، ومجيدًا فى صوابه، فجزاه الله عن نبيه ودينه والمسلمين خير الجزاء،

وبارك فى حياته حتى يزيح به شبه أهل الضلال الأشقياء، وأكثر فى الأمة المحمدية أمثاله وأشباهه وأشكاله.. آمين".

۞۞۞

الشيعـة:

الشعية -فى الأصل- هم أنصار سيدنا علىّ كرَم الله وجهه، ومن حاربوا معه أعداءه، ثم دخل فيهم - تحت ستار محبة أهل البيت- من أضمروا العداوة للإسلام وأهله، وسعوا إلى الإفساد فى الدين ما استطاعوا، فأنشأوا -وراء ستار التشيع لأهل البيت- عقيدة جديدة تهدم الإسلام برمته.

ذلك أنهم قالوا بأن على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- هو الوصى الذى أوصى النبى ﷺ له بالإمامه من بعده، ولكن أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم اغتصبوها منه بموافقة جميع الصحابة باستثناء عدد قليل منهم، فأصبحت كراهيتهم من صلب عقيدتهم بل وتكفيرهم.

ولما كان الصحابة -رضوان الله عليهم- هم حملة الدين لمن بعدهم فقد شككوا فيما قالوا، ولم يقبلوا كتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما، وحتى القرآن، زعموا أن الصحابة حذفوا منه ما يدل بصريح القول على إمامة على، وبنوا حول هذه القضية كثيرا من العقائد الشاذة والآراء الساقطة حتى لم يعد لهم من الإسلام إلا اسمه، ووضعوا للقرآن تفاسير حسب أهوائهم تؤيد معتقداتهم، ورفضوا تفاسير غيرهم، ولم يأخذوا بالإجماع ولا بالقياس ضمن مصادر التشريع، وأسسوا عقيدتهم على نظرية الإمامة..

قال الدكتور مصطفى الشكعة فى كتابه القيم "إسلام بلا مذاهب":

"والإمامية يزيدون على أركان الإسلام ركنًا آخر، هو الاعتقاد بالإمامة، أى أنهم يعتقدون أن الإمامة منصب إلهى كالنبوة، فكما أن

الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، فإنه كذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه إماما للناس من بعده للقيام بالوظائف التى كان على النبى أن يقوم بها.. وهم يرون أن الإمام معصوم -كالنبى- عن الخطأ، والإمام دون النبى وفوق البشر".

إلا أن الخمينى وهو من متأخرى أئمتهم يجعل الإمام فوق النبى أيضا، فى كتابه: "الحكومة الإسلامية ص٤٤" فيما نقله عنه الدكتور الشكعة – إذ قال:

"وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لايبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل".

لذلك وجدنا ادعاء الألوهية للأئمة عند بعض فرقهم مثل الإسماعيلية والدروز والعلويين..

* * *

دخلت الشيعية القارة الهندية فى زمن السلطان المغولى همايون الذى توفى سنة ٩٦٤هـ، وكان فى حروب مع أعدائه انتهت بهزيمته، فالتجأ إلى إيران حيث أكرمه ملكها وأحسن ضيافته لمدة سبع سنوات تقريبا، رجع بعدها ليطلب ملكه وهو محاط بعدد من الأعوان والقواد الشيعة، وجيش صغير أمدّه به ملك إيران.

قال الدكتور عبد المنعم النمر فى "تاريخ الإسلام فى الهند":

"ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان لمكثه مدة كبيرة فى إيران، ومعاونة امبراطورها الشيعى له، وقوة نفوذ "بيرم خان" الشيعى فى بلاطه أثر كبير فى وفود كثير من الشيعة من إيران والعراق وغيرهما إلى الهند، والعمل فى حكومته واتساع نفوذهم فى البلاط المغولى، مما سنرى آثاره

فى عهد "أكبر" ومن بعده من الملوك".

توفى "همايون" وخلفه ابنه "أكبر" الذى كان من أكبر الأباطرة الذين حكموا الهند، وظلت حوله بطانة أبيه الشيعية، ومع أنه بدأ حياته صالحًا، يحب العلماء والصالحين إلا أن الأمر انتهى به إلى اختراع دين جديد، وأنزل نفسه منزلة النبى، بل أكثر..

يصف الدكتور النمر كيف حدث هذا التحول فى حياته فيقول:

".. وإن الذى قام على إرشاده وتوجيهه، وكان له أكبر الأثر والفضل عليه هو "بيرم خان" الشيعى المتعصب، وكان لهذا أثره فيما بعد حين قرّب إليه كثيرًا من علماء الشيعة وجعلهم مستشارين له، مثل "فتح الله الشيرازى" و "أبى الفضل الناكورى" وأخيه "أبى الفيض" ووالدهما "مبارك"، بل كان كثير من العلماء يرمونهم بالإلحاد والزندقة"..

"تحول "أكبر عن هذه الروح المسالمة الخاضعة إلى إنسان آخر ملأه الكبر والغرور، ونفخ فيه من حوله من الشياطين، فزينوا له أنه ظل الله فى أرضه، وأنه لذلك لا يصح أن يستمع لهؤلاء العلماء، ولا أن يقلدهم. بل الرأى مايراه هو، وهو مجتهد، بل إن مرتبته باعتباره إمامًا وخليفة فوق مرتبة المجتهدين، وهذه الفكرة قريبة جدًا من فكرة الشيعة عن الإمام واجتهاده، إن لم تكن هى، وكان هؤلاء الذين زينوا له ذلك هم المشايخ: "مبارك الناكورى" وولداه: "أبو الفيض" و "أبو الفضل" وغيرهم، وقد ذكرت بعض كتب التاريخ أن التحول فى عقيدة "أكبر" حدث بعد اتصالهم به ودخولهم فى حاشيته، وقد كانت

نفس "أكبر" مستعدة لمثل هذا التغيير، ميّالة إلى التحرر من قيود الشريعة..".

وعن الدين الجديد الذى ابتدعه قال الدكتور النمر:

"وهى عبادة متحررة من مراسم الإسلام، ومقتبسة من الأديان كلها.. وسماه "الدين الإلهى"، ونادى بأن الدعوة الإسلامية قد مضى زمنها بمرور ألف سنة عليها، وأنها أصبحت لا تتفق مع زمانه.. وبدّل الكلمة الطيبة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" إلى "لا إله إلا الله، أكبر خليفة الله".

وكتبت له بطانة السوء بيانًا يقضى بأن "أكبر" ظل الله فى أرضه، وأن له أن يشرّع ما يشاء، حتى يوقع عليه العلماء، وكانت فتنة نجا منها من آثر النفى والتشريد وأنواع الشدائد على أن يبدِّل دينه الذى أكرمه الله به، وسقط فيها البعض ممن آثروا الدنيا.

***

بموت "أكبر" زالت هذه الفتنة، ولكن النفوذ الشيعى فى البلاط ازداد عما كان عليه، إذ كان ولده وخليفته "جهانكير" متيمًا بزوجته الشيعية، حتى أسلمها كل شىء وجعل أباها رئيسًا للوزراء يفعل ما يشاء ويعين من يشاء، فكأن الإمبراطورية المغولية العظيمة فى الهند أصبحت فى قبضة الشيعة، فزاد توغلهم فى البلاد وتمكنهم من المناصب المهمة..

وكان لابد أن ينشب الصراع على أشده بين علماء أهل السنة وبين هذا الفكر الإلحادى الوافد على البلاد.

***

فى رسالته لنيل درجة الماجستير بعنوان "الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى" قال الأستاذ مشتاق أحمد شاه:

"تصدّر المجدد للألف الثانى (الشيخ أحمد الفاروقى السَّرهندى) لآراء الشيعة الإمامية، وألف رسالة فى ردها، ثم جاء الشيخ الشاه ولى الله الدهلوى وألّف كتابا فى تفضيل الشيخين سمّاه "إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء"، وألف ابنه الأكبر الشاه عبد العزيز الدهلوى كتابًا فى الرد عليهم سماه بـ"التحفة فى الرد على الشيعة الاثنى عشرية".

***

وكان على الإمام أحمد رضا الذى أوقف حياته للذبِّ عن دين الإسلام أن ينزل بثقله إلى ميدان الصراع محاولاً أن يغلق بابًا من الفتن قد فُتح على مصراعيه..

***

فى التاسع من شهر الله المحرم سنة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦ م زار مؤلف كتاب "تاريخ الإسلام فى الهند" فضيلة الدكتور عبد المنعم النمر مقرًا للشيعة فى "لكنو" وقال:

"فدهشت لفخامته وضخامته.. رأيتهم يستعدون فيه للاحتفال بيوم عاشوراء الموافق ذكرى استشهاد الحسين فى كربلاء. ولهذه الذكرى فى الهند أهمية بالغة بحيث يشترك فيها السنيون والشيعيون على تفاوتٍ بينهم فى هذه المشاركة، فالشيعة قد اعتادوا أن يصنعوا من الخشب ما يشبه "النعش" أو قبة الحسين، ويسيرون خلفها فى بكاء وحزن، ويسمونها "التعزية" ويضربون خدودهم وصدورهم بالحديد والحجارة حتى تسيل دماؤهم، ويسقطون صرعى وتحملهم عربات الإسعاف لعلاجهم، وذلك حزنا على ما جرى للحسين رضى الله

عنه، وتتجمع هذه التعزيات، وفيها يكون الاحتفال الرسمى، حيث يجلس زعماء الشيعة يستقبلون المعزين، كأن جثة الحسين بجانبهم، وكأنه قُتل منذ لحظات.

والحكومة الهندية تعطل الأعمال الرسمية فى جميع أنحاء الدولة ثلاثة أيام بهذه المناسبة، مع أنها تعطل أعمالها يومًا واحدًا بمناسبة عيد الفطر ويومين فى عيد الأضحى. وهذا التقليد من أيام الانجليز الذين كانوا يجاملون الحكام السابقين من الشيعيين وجميع الشيعة فى الهند، وكل القرى والمدن هناك تجد فيها هذه الظاهرة يفعلها الشيعة، ويجاريهم بعض العوام من السنيين..".

***

سُئل الإمام أحمد رضا عن تعزية الحسين رضى الله عنه، فأجاب بأن ذلك الفعل حرام، وألف فى ذلك كتابًا ملأه بالبراهين الساطعة على حُرمة هذا الاحتفال وسماه "أعالى الإفادة فى تعزية الهند وبيان الشهادة".

ولم يترك جانبا من جوانب هذه الفتنة الشيعية إلا تعرض له وبحثه وبين بطلانه بالأدلة الدامغة، وبما عُرف عنه من تدقيق وتحقيق وعلم غزير.

وقد ذكر الأستاذ مشتاق أحمد تسعة عشر مؤلفًا للإمام وقال إنها جزء من كل ساقها على سبيل المثال، لا الحصر، وقد وجدت عند غيره – أيضا- كتابًا وضعته فى آخر القائمة برقم ٢٠، وها هى ذى:

١. ردّ الرافضة (١٣٢٠هـ).
٢. أعالى الإفادة فى تعزية الهند وبيان الشهادة (١٣٢١هـ).
٣. غاية التحقيق فى إمامة على والصديق.

٤. الكلام البهى فى تشبيه الصديق بالنبى (١٢٩٧هـ).
٥. اعتقاد الأحباب فى المصطفى والآل والأصحاب.
٦. وجه المشوق بخلوة أسماء الصديق والفاروق (١٢٩٧هـ).
٧. جمع القرآن وبم عَزوه لعثمان (١٣٢٢هـ).
٨. مطلع القمرين فى إبانة سبقة العمرين (١٢٩٧هـ).
٩. البشرى العاجلة فى تحف آجله (١٣٠٠هـ).
١٠. الزلال الأنقى عن بحر سبقة الأتقى.
١١. أعلام الصحابة الموافقين للأمير معاوية وأم المؤمنين (١٣١٢هـ).
١٢. عرش الإعزاز والإكرام لأول ملوك الإسلام (١٣١٢هـ).
١٣. ذب الأهواء الواهية فى باب الأمير معاوية (١٣١٢هـ).
١٤. الأحاديث الراوية لمدح الأمير معاوية (١٣١٣هـ).
١٥. الجرح الوالج فى بطن الخوارج (١٣٠٥هـ).
١٦. الصمصام الحيدرى على حُمق العيّار المفترى (١٣٠٤هـ).
١٧. الرائحة العنبرية عن الجمرة الحيدرية (١٣٠٥هـ).
١٨. لمعة الشمعة لهدى شيعة الشنعة (١٣١٢هـ).
١٩. شرح المطالب فى مبحث أبى طالب (١٣١٦هـ).
٢٠. الأدلة الطاعنة فى أذان الملاعنة.

۞۞۞

جهلة المتصوفة:

إن موقع التصوف من الدين كموقع الروح من الجسد، فكما أن الروح إذا قويت شغلت البدن بالطاعات، كذلك التصوف إذا قوى فجّر فى الأمة طاقات الخير..

لكن التصوف -أيضا- يمر بأوقات يضعف فيها، وذلك حين يقل رجاله الصادقون، ويكثر الأدعياء والمتفعون! مما حدا بالربانيين العارفين أن يبذلوا جهودهم فى سبيل الإصلاح..

فى أوائل القرن الخامس الهجرى، سنة ٤٣٧هـ كتب الإمام القشيرى رسالته الشهيرة التى أصبحت دستورًا لأهل التصوف فى العالم، والتى توجه بها "إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام". فى هذه الرسالة سعى لتصحيح بعض الانحرافات التى ظهرت على بعض المنتسبين إلى التصوف فى زمنه ورسم معالم الطريق للسالكين، وقدم نماذج من رجالات التصوف الصادقين.

ولم يزل هذا دأب المصلحين فى كل زمان ومكان، ولعل نموذج الإمام حجة الإسلام أبى حامد الغزالى من أوضح النماذج، وكذا الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ أبو مدين وغيرهم كثيرون أكثر من أن يحصيهم مثل هذا المقام.

ولعل هذا الحديث يسلمنا -بالضرورة- إلى ساحة الإمام أحمد رضا خان الذى هو -بلا شك- واحد من أولئك المصلحين المخلصين. والحديث عن إصلاحه الصوفى هو نفسه الحديث عن حياته كلها منذ نشأته إلى أن لقى ربه؛ سلوكه ودعوته وجهوده وأنفاسه وخطراته فإن التصوف حال فى القلب يجعل صاحبه لا يقدم على الله أحدًا.

لذلك كان كل ما احتوته هذه الصفحات عن شيخنا الإمام هو فى صميم الحديث عن إصلاحه الصوفى.

***

ركّز الإمام على فئة المنتسبين إلى التصوف، والمتحدثين باسمه من أهل الطرق الصوفية وكانت قد فشت بينهم بعض مظاهر الفساد التى تبعد التصوف عن جوهره، فشمّر عن ساعد الجد، وراح يقتلع من بستان التصوف الحشائش الضارة حتى تستقيم

عيدانه وتهتز خضرة وأزهارًا وثمارًا.

كتب الأستاذ جلال الدين فى رسالته فصلاً جميلاً طويلاً بعنوان "موقف الإمام أحمد رضا خان القادرى من التصوف" أشار فيه إلى عشرات القضايا المهمة التى تكلم فيها الإمام، وإنى أقتطف لك -أيها القارىء الكريم- من هذا الفصل بعض العبارات من هنا وهناك على سبيل المثال فقط لعلها تشير إلى بعض جهود الإمام فى هذا المجال. قال:

- "نادى العلماء والصوفية فى عصره إلى إصلاح الطرق التى يتبعونها فى سبيل تزكية النفس، وأبان لهم الفرق بين التصوف الصحيح السنى الحقيقى الذى يتناول معنى الإحسان والوصول إلى الله تعالى وطلب مرضاته، والتصوف الباطل البدعى المجازى الذى ينحصر فى الرّقى والتمائم والمراسم والمظاهر فقط. وألف فى ذلك كتبا قيمة لئلا يختلط التصوف بغيره".

-"فإصلاح التصوف فى رأى الإمام لا يكون إلا بإرجاعه إلى العقيدة الإسلامية، عقيدة أهل السنة والجماعة، والاقتداء فى ذلك بالصوفية السنيين المتمسكين بالكتاب والسنة، أمثال الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ جُنيد البغدادى والقشيرى والمحاسبى والغزالى وغيرهم من علماء التصوف الصحيح".

-"وينتقد الإمام المشايخ الأدعياء الذين يتصدرون للمشيخة وليس لهم إذن من الشيخ لأخذ البيعة، ويصفهم بقطّاع الطريق، فيقول: "وجلس جماعة فى عصرنا من غير إذن من أشياخهم وصاروا يأخذون العهد على المريدين من غير علم بالطريق، فأفسدوا أكثر مما

أصلحوا، وكان عليهم إثم قطاع الطريق أى طريق القوم، وربما كان إثمهم أعظم من إثم قطاع الطريق..

إنهم شيطان فى جسم إنسان".

***

كثيرة هى المسائل والقضايا التى تعرض لها الإمام صغيرة كانت أو كبيرة فى فتاويه، وأفرد كثيرًا منها بمؤلفات كاملة.

فمثلاً عندما رأى بعض جهلة الناس يسجدون سجدة التحية عند زيارتهم لأولياء الله الصالحين أعلن بطلان هذه العادة، وأثبت بالبراهين حرمة سجود التحية لغير الله تبارك وتعالى، وكتب فى ذلك كتابا بعنوان "الزبدة الزكية لتحريم سجود التحية".

وكان "يخالف إيقاد المصابيح وإشعال الشموع على القبور، ويفتى ببدعية ذلك إلا فى حالة واحدة وهى عندما يكون القبر فى الطريق أو فى المسجد ويستفيد من ضوئه المارة والمصلون". ودعا إلى عدم إنفاق الأموال الكثيرة على تزيين أضرحة الأولياء بالأقمشة والأشياء الثمينة، ولكن أجاز فقط وضع كساء واحد عليه وكان يقول إن النقود التى تنفق لأجل الأردية أولى بأن يُتصدق بها على الفقراء والمساكين، ويهدى ثوابها لروح ذلك الولى.

۞۞۞

موقفه من دعاوى الإصلاح الدينى:

تصدّى الإمام – كذلك – لدعاوى التغريب التى قامت فى الهند تحت رعاية الاحتلال البريطانى وفى كنفه وتفاوت الناس فى مواقفهم منها، فانبهر بها كثيرون وعظموها بعد أن عظمت فى قلوبهم الدنيا واقتنعوا بضرورة الإصلاح فى الدين، فمنهم

من رأى ضرورة الأخذ بأسباب الحضارة الغربية والتوفيق بينها وبين الإسلام، وكان الأفغانى ممثلاً لهذا التيار فى زمن الإمام أحمد رضا، ومنهم من غالى فى الأمر فلم ير إصلاحًا لأحوال المسلمين إلا بالارتماء بالكلية فى أحضان الغرب وحضارته الزائفة. ومثَّل هذا التيار السير أحمد خان، و "السير" هذا لقب خلعه عليه الإنجليز المستعمرون عرفانا بفضله فى خدمة أهدافهم.

فتصدى الإمام –رضى الله عنه– لكلا التيارين، وأعلن أنه لابد للمسلم من معرفة قدر الإسلام والاعتزاز به، وأن الأخذ بأسباب التكنولوجيا الحديثة يجب أن يكون بشرط أن لا نختبر الأفكار والعقائد الإسلامية فى ضوء الملاحظات والتجارب العلمية الجديدة، إذ لا ينبغى أن نجعلها محكًا ومعيارًا لتلك العقائد، وإنما يجب أن تُختبر التكنولوجيا الحديثة فى ضوء الآيات، فإنها شىء متغير، أما الآيات القرآنية فهى حتمية وقطعية، فلا يُقاس بها الظن.

كانت الحضارة الإسلامية –فعلاً– عظيمة عنده، والإسلام عظيمًا فى قلبه، فلم تتأثر حياته بغيرهما، ولم تعرف حياته السلوك الغربى ورسمياته، ولا الإعجاب بحياة الغرب وطرائقه..

۞۞۞

موقفه من القاديانية:

"القاديانية" أنشأها مدعى النبوة الكذاب الميرزا غلام أحمد القاديانى، وطبعًا كان للإنجليز دور عظيم فى قيام دعوته وتشجيعها، وفرح بهذه الدعوة أيضا الهندوس وأيدوها.

أبطل القاديانى فريضة الجهاد، ومالأ الإنجليز وأحبهم وأعلن أن حكومتهم ظل الله فى الأرض وطاعتهم فريضة وملأ كتبه بالثناء عليهم، والافتخار بأنه –وأباه من

قبله- من أصدقائهم الأوفياء..

كادت هذه الفتنة تعصف بالإسلام فى الهند فى ظل الاحتلال البريطانى وهيمنته الكاملة على كل صغيرة وكبيرة فى البلاد، لكن الله سبحانه وتعالى قيض لها واحدًا من أوليائه ممن وصفهم فى كتابه العزيز بقوله: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾. فشمّر لها الإمام أحمد رضا -رضى الله عنه- وأعمل فيها معاوله:

- جزاء الله عدوه بإبانه ختم النبوة (١٣١٦هـ - ١٨٩٨م).
- السوء والعقاب على المسيح الكذاب (١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م).
- قهر الديان على المرتد بقاديان (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م).
- المبين ختم النبيين (١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م).
- الجراز الديانى على المرتد القاديانى (سنة ١٣٤٠هـ - ١٩٢١م).

أثنى الشاعر محمد ضياء الدين على الإمام ووصف جهوده فى القضاء على فتنة القاديانى فى قصيدة قال فى بعض أبياتها ما ترجمته:

أحمد رضا الذى فُقد نظيره، وانفرد فى عصره ، وبه انهارت الفتنة القاديانية.

۞۞۞

مفتى الأمــة:

أهّل الله الإمام أحمد رضا خان البريلوى للإفتاء فى كل ما يتعلق بحياة المسلمين، فكان وجوده بين الناس جلاء للظلمات، وهداية للحيارى، وتثبيتًا للمؤمنين، وقد بدأ فى الإفتاء فى سن مبكرة جدا، فى سن الرابعة عشر، وظل فى مقام الإفتاء أربعة وخمسين عامًا.

استفتاه المسلمون من أنحاء العالم الإسلامى على اتساع رقعته وتوزعه بين قارات الدنيا. وكان يفتى باللغة العربية والفارسية والأوردية، وتترجم بعض فتاواه إلى اللغة الإنجليزية.

فكان نتاج ذلك هذه الموسوعة الفقهية الفريدة المسماه: "العطايا النبوية فى الفتاوى الرضوية" التى تنتظم ثلاثين مجلدًا كبيرًا تقريبا، وقد أدهشت كثيرًا من العلماء لسعة بصيرة الإمام ودقة بحثه وتحقيقه حتى قال أحدهم:"والله لو رآها أبو حنيفة النعمان – رحمه الله تعالى– لأقرّت عينه، ولجعل مؤلفها من جملة الأصحاب".

وقد اشتهر أن للإمام ما يقرب من ثلاثمائة كتاب فى الفقه منها أيضا "جد الممتار على ردّ المحتار" فى خمس مجلدات، قيل عنه إنه من مآثر الشيخ العظيمة، ومن درر الفقه الغالية التى يفتخر بها الفقه الإسلامى.

ومنها كتاب: "كفل الفقيه الفاهم فى أحكام قرطاس الدراهم". الذى صنفه فى مكة المكرمة فى أقل من يوم ونصف عندما سُئل عن النقود الورقية اثنى عشر سؤالا، وكان ذلك عند أول استعمالها بدلاً من النقود الذهبية والفضية.

فلما عُرض على علماء الحرمين أكبروه وأعجبوا به غاية الإعجاب، وكانت مكة والمدينة فى ذلك الوقت مجمع العلماء والفضلاء من أنحاء العالم الإسلامى.

وصف الإمام أحمد رضا خان وقع الكتاب عليهم بقوله:

> "نظر علماء مكة الكرام والفقهاء العظام "كفل الفقيه" وسمعوه ونقلوه، والحمد لله كلهم أشادوا به إشادة بالغة مثل شيخ الأئمة والخطباء كبير العلماء مولانا أبى الخير ميرداد الحنفى، وعالم العلماء المفتى سابقا والقاضى حاليا العلامة مولانا الشيخ صالح كمال الحنفى، ومولانا حافظ كتب الحرم الفاضل السيد إسماعيل خليل

الحنفى، ومولانا مفتى الحنفية عبد الله صديق حفظهم الله تعالى".

***

وصف صاحب "نزهة الخواطر" براعة الإمام فى الفقه وتمكنه منه بقوله:

"يندر نظيره فى عصره فى الاطلاع على الفقه الحنفى وجزئياته، يشهد بذلك مجموع فتاواه وكتابه "كفل الفقيه الفاهم فى أحكام قرطاس الدراهم".

قال عنه علامة الهند الشاعر محمد إقبال:

"إن شبه القارة الهندية من أقصاها إلى أقصاها لم يولد فيها من يشبه أحمد رضا خان فى عبقريته التى لا يجود الزمان على أحد بما يدانيها، وهذا واضح بالوضوح الأتم فى فتاواه. إنها شاهد صدق على حدة ذكائه وعمق تفكيره فى تدبر ما يبدى الرأى فيه على أنه الفقيه الحق بالمعنى الأصح الأدق، الذى تضلَّع من شتى علوم الدين على نحو لا نصادفه عند غيره".

وقال الشيخ عبد الحى اللكهنوى فى حقه:

"إنه كان عالمًا رُزق التبحر فى شتى العلوم والفنون، واسع الاطلاع إلى الغاية، قلمه سيال، وفكره عميق فى التأليف.. أما علمه بالفقه الحنفى فلا نعرف له ندا يشبهه أو يقاربه فى إحاطته به".

۞۞۞

موالاة الكافرين:

من المواقف العصيبة التى تعرض لها مسلمو شبه القارة الهندية، والتى تسببت فى

إحداث كثير من الارتباك والريبة فى صفوف العلماء ما حدث عقب الثورة على الإنجليز سنة ١٨٥٧م والتى شارك فيها الهندوس مع المسلمين: أبرزت تلك الأحداث سؤالاً فرض نفسه فرضًا، وقام شاخصًا أمام الأعين وهو:

هل تجوز موالاة الكافرين؟

والله سبحانه وتعالى يقول:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ "النساء ١٤٤".

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ "النساء ١٣٩".

- ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ "المائدة ٨١".

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ "الممتحنة١".

* * *

هاهوذا الواقع المُشاهد، والمصلحة التى تراها العين واضحة وضوح الشمس تتعارض مع كتاب الله وأوامره فكيف يكون المخرج؟

إننا لكى نقدر هذا الموقف بعض قدره يجب علينا أن نرجع قليلا إلى طرفٍ من مقدمات هذه الثورة وأحداثها ونتائجها.

۞۞۞

الثورة على الإنجليز:

حكم المسلمون الهند لأكثر من ثمانمائة سنة، ازدهرت فيها أحوال البلاد وساد فى

معظم أوقاتها الرخاء والاستقرار، وكان الهندوس وغيرهم من الوثنيين يعيشون فى ظل الحكومات الإسلامية التى أخذت على عاتقها -حسب شريعة الإسلام- حمايتهم وحماية ممتلكاتهم.. وهكذا عاشوا جنبًا إلى جنب مع المسلمين الذين تشربوا مبدأ الإسلام فى معاملة غير المسلمين: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ وكان السلاطين المسلمون يراقبون تطبيق ذلك ويعاقبون من يخرج عليه.

لم يُكرهوا على الدخول فى الإسلام، ولم تعرف الهند -مثلها مثل باقى ديار الإسلام- الاضطهاد الدينى الذى ساد فى غير بلاد المسلمين. فكان نتيجة هذه السياسة أن ظل غالبية أهل الهند على وثنيتهم.

ولما وطأت أقدام الأوروبيين أرض الهند كان هدفهم الأول حرب الإسلام والمسلمين ونهب بلادهم، وقد تنوعت صور هذه الحرب، وفى كلها كانوا يتقربون إلى الهندوس وغيرهم على حساب المسلمين، ويستعدونهم على المسلمين ويستعينون بهم على إبادتهم. وظلت هذه الحرب على أشدها فى زمن البرتغاليين ثم الفرنسيين ثم الإنجليز حتى تم إزالة آخر سلاطين المسلمين سنة ١٨٥٨م وإنهاء الحكم الإسلامى من الهند.

***

عندما دخل الإنجليز الهند، وسعوا إلى تحقيق أهدافهم فى السيطرة عليها، لم يتوسلوا إلى ذلك بالحرب مباشرة، ولكنهم تسللوا تسلل اللصوص عن طريق شركة أنشأوها للتجارة بين الهند وأوروبا، وكما يقول المثل: "تَمَسْكَنَتْ حتى تَمَكَّنَتْ"!

وهكذا أصبحت الشركة -تحميها الجيوش والأساطيل- هى الحاكم الفعلى للبلاد، ووضع الإنجليز أيديهم على كل صغيرة وكبيرة فيها.

عندما جاءوا كانت الهند أغنى بلاد الدنيا، تموج بالخيرات وينعم أهلها بالرفاهية والاستقرار، فلم يخرجوا منها إلا بعد أن أصبحت أفقر البلاد قاطبة.

لقد رأيت بنفسى مظاهر هذا الفقر، رأيت ملايين الهنود، رجالا ونساءً وأطفالا وأسرا كاملة ليس لهم مأوى إلا الأرصفة يفترشونها بالليل إلى الصباح، فى دلهى العاصمة نفسها لا تكاد تجد رصيفًا فى شارع أو فى ميدان عام إلا وقد اكتظ بالنائمين، فإذا ما أصبح الصباح قاموا وانتشروا فى الأرض. بل إنك إذا ذهبت إلى محطة القطار فى وقت متأخر من الليل لايمكنك أن تصل إلى القطار الذى تقصده إلا وأنت تتخطى أجسام آلاف النائمين على أرضية المحطة فى كل مكان.

لقد رأيت من مظاهر الفقر فى هذا البلد الكبير قبل عشرين عاما مالم أر مثله من قبل، إنها بركات الإنجليز الذين امتصوا دماء الهند امتصاصًا مستمرًا قاسيًا مجرما طوال مدة حكمهم البغيض، فحولوا خيراتها إلى بلادهم، واضطروا أهل الهند -درة التاج البريطانى- إلى الذل بعد العز، وإلى الحاجة بعد الاستغناء وإلى المرض بعد الصحة ورفاهة العيش، ولحق المسلمين من هذا البلاء النصيب الأوفى.

* * *

عمل الإنجليز على تجريد المسلمين من أموالهم وانتزاع أراضيهم وإعطائها للهندوس وغيرهم، ونزعوا من أيديهم الوظائف والمناصب والرتب ليولوها غير المسلمين.

ومع أن الإنجليز كانوا أقرب إلى الوثنيين منهم إلى المسلمين، وهذا أمر طبيعى إذ أن الكفر كله ملة واحدة كما أخبر سيد الكائنات ﷺ، إلا أن أعمالهم الإجرامية وشرههم فى سرقة أقوات الناس وامتصاص دمائهم قد جعل أهل الهند من غير المسلمين -أيضا- يبغضونهم أشد البغض، ومما زاد الطين بلّة أنهم كانوا يتعالون على أهل البلاد، ويسخرون من أديانهم، لاسيما من الإسلام الذى ختم الله به الرسالات.

ومنذ تمكنوا من البلاد راحوا يضيقون على المدارس العلمية التى امتلأت بها البلاد،

سلبوا الأوقاف الإسلامية التى كانت مخصصة لها، والتى كانت تنفق عليها بسخاء، وأغلقوا آلاف المدارس، وسمحوا بإنشاء عدد قليل من المدارس التى توافق سياساتهم فى حرب الإسلام والمسلمين، عن طريق التفريق بين المسلمين، ونشر العقائد الهدامة بينهم وهو ما عبّر عنه أحد ساساتهم بقوله: "علينا أن نعدّ من أهل الهند جماعة تشبه الهنود فى اللون والدم وتماثل الانجليز فى الفكرة والعقلية".

وراحوا عن طريق المبشرين النصارى يحاولون أن يرغموا الناس على التحول إلى النصرانية.. فلما طفح الكيل ولم يعد للناس طاقة على التحمل والصبر انفجرت الثورة ضدهم فى أنحاء متعددة من الهند وكان ذلك فى سنة ١٢٧٤ من هجرة النبى المصطفى ﷺ الموافق لسنة ١٨٥٧ من ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام.

***

فشلت الثورة لتفرق كلمة القائمين عليها ولأسباب أخرى، وكان رد الإنجليز عليها بربريًا.. متوحشًا، انصبّ جله على المسلمين، وزادت عليهم -من بعدها- أعمال التنكيل وأنواع المظالم، وأسرف الإنجليز فى هدم المساجد، ودخلوا الجامع الكبير بدلهى بخيولهم وأغلقوه ومنعوا الصلاة فيه لعدة سنوات.

ورأى الساسة البريطانيون -وهُم مَن هُم خُبثا ودهاءً- أن ينفثوا عن طاقات الغضب الكامنة فى أهل الهند بطريقة المفاوضات والدوران فى ساحات السياسة ودهاليزها. فأوعز اللورد كيرزن الحاكم العام للهند -آنذاك- لبعض رجالات الهند من المسلمين وغير المسلمين بإنشاء المؤتمر الهندى الوطنى ليتقدم للحكومة البريطانية بمطالب الهند، وتبدأ المفاوضات إلى ما شاء الله.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى طلبت إنجلترا معونة الهند، ووعدت مقابل ذلك بإعطاء الهند الاستقلال، وكالعادة لم يف الإنجليز بشىء من مواعيدهم، وانتخب

أعضاء المؤتمر الهندى المهاتما غاندى زعيما، وقامت حركة عدم التعاون مع الإنجليز سنة ١٩٢٠، وفيها تضامن المسلمون مع الهندوس وسيطر على كثير من المسلمين حماسة وطنية وأمنيات وأوهام لا تقوم على أساس، إذ كيف ينتظر المسلمون النفع على أيدى الكافرين مهما كانت الظروف؟

وبلغ الحماس الزائف ببعض المسلمين إلى درجة أنهم طلبوا من إخوانهم المسلمين الكف عن ذبح الأبقار مجاملة للهندوس الذين يقدسونها.

***

لم ينخدع شيخنا الإمام أحمد رضا خان بهذه المظاهر، لأن من رسخ فى قلبه الإيمان يرى الله من وراء المظاهر، فلا يتأثر بها، ولا يلتفت إليها إلا بالقدر وبالكيفية التى يريدها الله منه. لذلك ثبت على موقفه من تحريم موالاة الكافرين.

كان "غاندى" يغرر بالمسلمين ويدعوهم إلى الإضراب وعدم التعاون مع الإنجليز، واستغل لهذه الدعوة مبدأ تحريم موالاة الكافرين، لكن الإمام أحمد رضا الفقيه الربانى أعلن أن الإسلام يطالب بعدم موالاة الكفار ومحبتهم، ولكن لا يطالب بعدم معاملتهم، وفكرة الإضراب تتعلق بالمعاملة لا بالموالاة، وأن عدم الموالاة لا ينطبق على الإنجليز وحدهم بل على الهندوس أيضا، فتخصيص الإنجليز فقط دون الهندوس لا مبرر له، وإن مقاطعة مشرك مع ممالئة مشرك آخر لا يتمشى مع الإسلام.

وهكذا اعترض على فكرة المؤتمر الهندى مبينا أن هذه الحركة من شأنها إضعاف المسلمين، وجعل الهندوس أصحاب نفوذ وسلطان عليهم، وكان يقول إن كل أمة من أمم العالم أعداء للمسلمين سواء كانت أمة إنجليزية أو يهودية أو الكفار والمشركين أو عبدة النجوم أو المجوس، فكما أن الموالاة والتضامن لا يجوزان مع الإنجليز كذلك لا يجوزان مع الهندوس..

أيّد الدعوة للمقاطعة ونهض لها غاندى وجواهر لال نهرو من الهندوس، ومن المسلمين الشيخ أبو الكلام آزاد والشيخ حسين أحمد المدنى من علماء "ديونبد" وكان جمهور علماء "ديوبند" مع هذه الدعوة.

وبينما كان محمد على جناح ومحمد إقبال يعملان على إقامة الوحدة بين المسلمين والهندوس ضد الإنجليز، فى ظل الحماسة الوطنية التى بلغت أشدها، كتب الإمام أحمد رضا عدة كتب ورسائل يبين فيها وجه الحق فى هذه القضية التى التبست على كثير من السياسيين، بل وعلى عدد من كبار علماء الدين.

لم يلتفت أولئك – فى فورة الحماس – لكلام الشيخ، ومنهم من اتهموه بأنه ما قال ذلك إلا لاسترضاء الإنجليز وبإيعاز منهم، ومع مرور الأيام تكشفت الحقائق، وتبين صدق ما قال به الإمام وأنه كان على نور من ربه، فرأى مالم يروا، وعرف مالم يعرفوا، وتنبأ بحدوث مالم يكن يخطر لهم على بال، لأنه تمسك بأحكام شرعنا الشريف ولم يتأثر بالظروف والأحوال.

وضع الإمام خلاصة هذه القضية فى سطور قليلة، لكنها مضيئة، ما أحوج المسلمين –اليوم خاصة– إلى أن يستضيئوا بنورها فى هذه الظلمات التى غلَّفت حياتهم. قال فيها:

> "اعرضوا أيها المسلمون عن تبديل الأحكام الإلهية، واختراع الأحكام الشيطانية، اقطعوا أواصر الوحدة مع المشركين، واهجروا المرتدين، وتشبثوا بذيل سيدنا محمد رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– فإن الدين الإسلامى إذا ظفرنا به وبوسيلته السنية فلا حاجة لنا إلى هذه الدنيا ومغرياتها".

جدير بالذكر التنويه بأن محمد على جناح ومحمد إقبال قد غيرا فكرهما فيما بعد

عندما تبين لهما فساد ما كانوا يعتقدون، وكان من نتاج هذا التغيير عملهما لإنشاء دولة باكستان الإسلامية التى قامت بالفعل فى سنة ١٩٤٦م.

***

قال العلامة الدكتور حسين مجيب المصرى فى مقدمته الطويلة للمنظومة السلامية، طبعة الهند:

"وقبل وفاته بعام واحد، وذلك عام ١٩٢٠ أخرج كتابًا بعنوان "المحجة المؤتمنة فى آية الممتحنة" قال فيه: إن الموالاة مع المشركين – كل المشركين- حرام، وإن كان أبًا أو ابنًا أو أخًا أو قريبًا لأحد".

"وكان لما ذكره فى كتابه هذا أعمق الأثر فى نفوس أكابر الزعماء فى شبه القارة.. وأفضى الأمر بالذين كانوا يميلون إلى موالاة الهندوس إلى الإحجام عن ذلك، وتابعهم على ذلك زعماء الرابطة الإسلامية وفى طليعتهم محمد إقبال، فنادوا بوجوب إقامة دولة خاصة بالمسلمين فى شبه القارة، وعليه فهذا الكتاب كان الأساس الذى قامت عليه دولة باكستان".

***

بقى علماء "ديوبند" على موقفهم حتى أن الشيخ حسين أحمد المدنى شيخ الحديث بدار العلوم "ديوبند" كان يقول إن الأقوام تتشكل بالأوطان ومعنى ذلك أنه يقدم الاعتبارات الوطنية أو القومية على الدين مما حدا بالعلامة الشاعر محمد إقبال إلى الرد عليه بأبيات باللغة الفارسية ختمها بما ترجمته:

"عليك أن تحضر فى حضرة رسول الله فإنه هو الدين

ومن لم يحضر فى حضرته ولم يتعلق به

فهو وأبو لهب سواء".

* * *

فما هى مدرسة "ديونبد"؟

وما دورها فى حياة المسلمين فى الهند؟

ولماذا هاجم شيخنا الإمام علماءها، والفكر الذى يمثلوه؟

۞۞۞

مدرسة "ديوبند":

شارك بعض العلماء فى الثورة مشاركة فعلية، فحملوا السلاح وقاتلوا مع الثوار ودعوا الناس إلى الجهاد، ولكنهم لم يحسنوا تدبير شئونها ولا جمع القلوب عليها، ففشلت وتفرق قادتها، فهاجر الشيخ إمداد الله إلى مكة، وألقى القبض على الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى وسجن لمدة ستة أشهر، واختفى الشيخ محمد قاسم النانوتوى حتى صدر قانون العفو العام فخرج من مخبأه.

نقل فضيلة الدكتور النمر عن كتاب ثورة الهند لمولانا "فضل حق" وصفه لما أعقب الثورة من إجراءات شديدة اتخذها الإنجليز ضد المسلمين خاصة، حيث قال:

"ثم قتلوا من كان فى نواحى المصر وتلك الأرجاء من أعضاء الحكومة والرؤساء وغصبوا أرضهم وعقارهم ومساكنهم وديارهم وأمتعتهم وأموالهم وأسلحتهم وأثقالهم وأفراسهم وأفيالهم ثم أهلكوهم وعيالهم جميعًا، ثم إنهم حشروا جنودهم بكل سبيل، ليأخذوا من فر بالأخذ الوبيل، فأخذوا أكثر الهاربين، وما نجا منهم

إلا قليل، فقضوا عليهم بالخنق والتقتيل، ولم يَذَر الفتك شبانا ولا ضعافا، حتى بلغ القتلى والخنقى آلافا..

وجل من ابتُلى بظُلْم الظُّلاَّم، أهل الإيمان والإسلام، وأما الأهاند "الهندوس" فقد سلموا، إلا من ظُن به أنه ممن يعاند، ولم يسلم من المسلمين إلا من فرّ من بيته مهاجرا، ومن كان للنصارى ناصرا، وفى دينه قاصرًا.."

***

لعل سائلاً يسأل: مفهوم أن يترك الإنجليز من كان للنصارى ناصرًا، ولكن لماذا يترك الإنجليز من كان فى دينه قاصرًا – على حدّ تعبير الشيخ؟ والإجابة على ذلك أن من كانت هذه صفته فوقعه فى المسلمين بما يحدثه من الفتن أشد من فتك الرصاص والقنابل، ولقد رأينا مصداق هذا فى أهل الإصلاح والتجديد والتنوير فى مختلف أرجاء بلاد الإسلام، وجماعات الخوارج التى رمت الأمة بالكفر والضلال..

ثم يصف الدكتور النمر فى نفس كتابه البديع "تاريخ الإسلام فى الهند" تأسيس مدرسة "ديوبند" على أيدى هؤلاء العلماء الذين نجوا من بطش الإنجليز، وسُمح لهم أن ينشئوا هذه المدرسة بعد أن كانوا بالأمس القريب من قواد الثورة ضدهم!! فيقول:

"هؤلاء العلماء المجاهدون هم الذين قاموا بإنشاء دار العلوم "ديوبند" التى صارت أكبر معهد دينى عربى فى الهند والبلاد الآسيوية الشرقية، وقد واصلوا جهادهم فى سبيل حماية المسلمين وأخلاقهم وعقيدتهم من شرور المستعمرين، وتشدّدوا فى ذلك حتى خاصموا كل ثقافة إنجليزية، بل كل ملبس ومظهر إنجليزى، ولا زال هذا المبدأ سائدا فى هذه المدرسة وأمثالها للآن ويعتبر ذلك مثلاً حيًا فى

المحافظة على كيان المسلمين، ولو أنه حمل فى طياته بعض العيوب والمضار".

فما هى هذه العيوب والمضار التى لاحظها الدكتور النمر فى منهج مدرسة "ديوبند" ولم يفصح عنها؟

بيّن الأستاذ محمد القصورى مؤلف "الدعوة إلى الفكر" بعض هذه المضار والعيوب فى تعريفه بالديوبندية فقال:

"الديوبندية: هم المتخرجون من دار العلوم ديوبند (الهند) والمنتسبون إليهم فى المعتقدات وهم قد اختاروا فى بيان عقيدة التوحيد منهجًا أفضى إلى تنقيص شأن الأنبياء والأولياء وتكفير عامة المسلمين فى كل البلاد الإسلامية، وهم تسببوا لافتراق كلمة المسلمين فى شبه القارة الهندية الباكستانية. قال الشيخ "أنظر شاه الكشميرى" شيخ التفسير بدار العلوم ديوبند: ليس مدار أمرنا على الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى فإنه لم يستطع أن يفرق بين السنة والبدعة ولا على الشيخ الشاه ولى الله المحدث الدهلوى، إنما مدار جماعتنا الديوبندية على الشيخ محمد قاسم النانوتوى والشيخ رشيد أحمد الكَنكَوهى" (انظر المجلة الشهرية "البلاغ" كراتشى، عدد مارس ١٩٦٩م ص:٤٨)

ولما كان علماء "ديوبند" على عقيدة الوهابية فقد حظيت مدرستهم بتأييد الإنجليز وتشجيعهم كما حظى وهابية نجد من قبل بدعمهم الكامل.

***

لم تتمرد المدرسة الديوبندية على سلف الأمة الصالح فحسب، وإنما صدرت عن

مشايخهم الكبار أفكار وكلمات فيها الخوض فى الذات الإلهية والتنقيص من قدر النبى ﷺ بعبارات فجّة قبيحة مما حدا بشيخنا الإمام -رضى الله عنه- أن يتصدى لبدعتهم، ويرد عليهم فى مؤلفات عديدة، بل استخرج بعض عباراتهم من كتبهم وعرضها على علماء أهل السنة فى الحجاز فردوا عليها بما تستحقه..

وبهذا يكون صاحب "نزهة الخواطر" الذى يتحزب لهم قد امتدحه من حيث أراد انتقاصه حين قال إنه.

> انصرف إلى (تكفير) علماء ديوبند، كالإمام محمد قاسم النانوتوى والعلامة رشيد أحمد الكنكوهى والشيخ خليل أحمد السهارنفورى ومولانا أشرف على التهانوى ومن والاهم، ونسب إليهم عقائد هم منها برآء، وأخذ على ذلك توثيقات علماء الحرمين الذين لا يعرفون الحقيقة، ونشرها فى مجموعة سماها "حسام الحرمين على منحر أهل الكفر والمين".

ولقد اطلعت على هذا الكتاب لشيخنا الإمام، فوجدته كتابًا وثائقيًا يصور أغلفة الكتب والأجزاء التى بها عبارات هؤلاء الشيوخ التى لا أحب أن أعيد ذكرها هنا... والحمد لله الذى قيض لكل باطل رجالاً فى أمتنا يتصدون له ويكشفون زيفه وفساده.

۞۞۞

"ندوة العلماء"

أما "ندوة العلماء" فقد أسسها الشيخ شبلى النعمانى وآخرون معه، وكان الشيخ شبلى من أصحاب السير سيد أحمد خان الذى سبق والتقينا به قبل صفحات ورأينا حفاوة الإنجليز به وتشجيعهم له.

أسس سير سيد أحمد خان مدرسة "عليكره" التى اعتنت بالعلوم الغربية عناية

كاملة وأهملت العلوم الإسلامية، فأراد الشيخ شبلى النعمانى أن يؤسس مدرسة جديدة تقوم على العناية بالعلوم الشرعية على منهج جديد غير ما درج عليه أهل السنة والجماعة منذ نشأة الإسلام، فكانت "ندوة العلماء" التى قامت على أساس أنها تقبل فى صفوفها أصحاب كل فكر، وهو الأمر الذى يتناقض مع سمو ونقاء عقيدة الإسلام. وراح المسئولون عن "الندوة" يُقبلون على الإنجليز للحصول على الدعم المالى الذى بذله الإنجليز لرضائهم عن منهج هذه المدرسة أيضا.

قال مؤلف "حدوث الفتن وجهاد أهل السنن":

"فشت االفتن فى عصره، وشاعت الوهابية وانبعثت فتنة الندوة "ندوة العلماء" التى كان هدفها أن كل من تفوه بالشهادتين فهو من أهل القبلة يجب علينا إكرامه وإعظامه، وجمعه تحت لواء الندوة، ولو كان رافضيا غاليًا، أو قاديانيا طاغيا، أو نيشريا ملحدا (أى من الطبيعيين) أو منكرا جليا لضروريات الإسلام، فصمد الشيخ تجاه هذه الفتنة وأصدر فى الرد عليها كتبا ورسائل حتى خمدت نارها".

وإذا قرأت دفاع أهل الندوة عن أنفسهم ضد مهاجمة الإمام لهم أدركت أنه كان محقًا فيما ذهب إليه.. من أمثلة ذلك ما ذكره الشيخ عبد الحى الحسنى صاحب "نزهة الخواطر" عن شيخنا الإمام وموقفه من "الندوة" حيث قال:

"(كان) شديد المعارضة، دائم التعقب لكل حركة إصلاحية، انعقدت حفلة "مدرسة فيض عام" سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣م) فى "كانفور"، وحضرها أكثر العلماء النابهين، وهى الحفلة التى تأسست فيها "ندوة العلماء"، ومن أكبر أغراضها توحيد كلمة المسلمين وإصلاح ذات البين بين علماء الطوائف وإصلاح التعليم الدينى،

وحضرها المفتى أحمد رضا (خان البريلوى)، وخرج منها وقد قرر محاربة هذه الجمعية، فأصدر صحيفة أسماها التحفة الحنيفية لمعارضة ندوة العلماء، وألف نحو مائة رسالة وكتاب فى الرد عليها، وأخذ فتاوى العلماء فى أنحاء الهند وتوقيعاتهم.. وجَمعها فى كتاب سمّاه "إلجام ألسنة أهل الفتنة" وأخذ على ذلك توثيق علماء الحرمين، ونشره فى مجموعة سماها "فتاوى الحرمين برجف ندوة المين" فى سنة سبع عشرة وثلاثمائة وألف".

***

إن الدعوة إلى التأليف بين طوائف المسلمين دعوة فى ظاهرها الرحمة وفى باطنها العذاب.

لم تتحقق قط فى تاريخ أمتنا المسلمة لأن الله لم يجمع قط بين أهل الحق وأهل الباطل فى مقام واحد، ما فرّق بينهم فى الآخرة إلا وقد فرّق بينهم فى الدنيا.

وصف نبينا الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، أقومًا من المسلمين بأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وحض على قتالهم حتى لا تعمّ فتنتهم كثيرًا من الناس.

إن أهل الحق لو تمسكوا بشريعة ربهم وسنة نبيهم أُيدوا ولو كانوا ثلاثة، وإن ترخصوا وارتابوا خُذلوا ولو كانوا ملايين.

۞۞۞

مجدد المائة الرابعة عشر:

لا غرو أن الإمام أحمد رضا خان مستحق بجدارة للقب المجدد الذى أطلقه عليه

العلماء من العرب والعجم، ففى عام ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠م انعقدت حفلة عظيمة بمدينة "بتنة" بالهند، وحضرها المئات من علماء الدين النابهين من أهل السنة والجماعة من أرجاء الهند وخلعوا عليه هذا اللقب "المجدد" وذلك فى حضور علماء أكبر منه سنا.

قال د. حسين مجيب المصرى:

"وقد لزمه هذا اللقب الذى عُرف به بين أهل زمانه إلى يومنا هذا، وقد اعتز بهذا اللقب إلى حد أن شكر الله على نعمائه فمدح نفسه، ولكن فى تواضع جم ولم يقل إلا حقا:

وعالم أهل سنـــة مصطفانا   مجدد عصـــره الفرد الفريد

وأسفار بها إسفار صبح   متى يطلع فذا عيد سعيد

ووصفه الشيخ موسى على الشامى من أفاضل علماء الأزهر الشريف بقوله:

"إمام الأئمة، المجدد لهذه الأمة أمر دينها، المؤيد لنور قلوبها ويقينها، الشيخ أحمد رضا خان، بلغه الله فى الدارين القبول والرضوان".

ومدحه العلامة الشيخ محمد على بن حسين المالكى من مكة المكرمة بقصيدة منها قوله:

محيى علوم الدين أحمـــد سيرةً   عدل رضـــا فـى كل نازلة عَـــدَتْ

مولى الفضائل أحمد المدعو رضا   خان البريلوى من به الخلق اهتَدَتْ

قالا وأنعـــم بالمحـــكم ذى التقى   فعـــلى تقدمـــه البـــرية أجمَعَـــتْ

الطيّبُ بن الطيـب بن الطيب بـــ   ـن ذوى الهـــدى، آيات رفعته رَقَتْ

***

ومع تبحره فى شتى العلوم مما شهد له به أعداؤه قبل أصدقائه فإنه – رضى الله عنه– لم ينسب لنفسه من ذلك شيئا قط، وإنما أقر دائما أن هذا من عطاء الوهاب على يد سيد الكائنات ﷺ الذى قال: "إنما أنا قاسم والله يُعطى". وقد عبر عن هذا المعنى الراسخ فى فؤاده والمستقر فى ضميره مرارًا، ومن ذلك قوله:

وكل خير من عطاء المصطفى — صلى الله عليه مع من يصطفى

الله يعطى والحبيب قاسم — صلى عليه القادة الأكارم

ما نال خيرا من سواه نائل — كلا ولا يرجى لغير نائل

منه الرجا منه العطا منه المدد — فى الدين والدنيا والأخرى للأبد

وقوله أيضا فى قصيدة أخرى:

رسول الله فضلك ليس يحصى — وليس لجودك السامى انتهاءُ

فإن أكرمتنا دُنيا وأخرى — فليس البحر ينقصه الدلاءُ

۞۞۞

الكذب والتزوير فى حق الشيخ الإمام:

لقد مضى الآن أكثر من ثمانين عامًا على وفاة شيخنا الإمام -رضى الله عنه- ويحق لنا أن نتساءل: أين هو من حياة المسلمين اليوم، كل المسلمين فى أمة الإسلام الواحدة؟

لا يعرفه فى بلاد العرب إلا قليلون، ناهيك عن أفريقيا وأوربا وغيرها.. وكثير ممن عرفوه عرفوا عنه غير حقيقته، حتى فى بلاده فى شبه القارة الهندية جهل قدره وحقيقة أمره كثيرون، فقد شوّه أعداؤه تاريخه، ورموه بكل قبيحة فى دينه، ونشروا ذلك فى كتبهم ومقالاتهم ووسائل دعاياتهم الواسعة المؤيدة بالأموال التى تنفق ببذخ لإحياء الباطل وإماتة الحق.

كم من قادة الأمة وأبطالها وعلمائها الصادقين تعرضوا لهذا ولا يزالون يتعرضون له فى كل يوم حتى انقلب المعروف منكرًا والمنكر معروفًا كما أخبر سيدنا الرسول ﷺ، ومن الأمثلة الصارخة على ذلك ما تعرض له تاريخ خليفة المسلمين بقية السلف الصالح الورع الأمين السلطان عبد الحميد الثانى العثمانى رضى الله عنه (*).

***

لقد قُدِّر لى أن أزور الهند عدة مرات، لم أكن وقتها قد سمعت عن أحمد رضا خان البريلوى، ولكن الانطباع الذى تكون فى نفسى -مما سمعته- عن البريلوية أنها فرقة زائغة مارقة من الإسلام..

وقبل عام التقيت بالقاهرة بأحد الأساتذة الجامعيين من الهند، ويعمل فى إحدى الجامعات بالسعودية، ولما سألته عن البريلوية والشيخ أحمد رضا خان كرر لى نفس

(*) انظر كتاب "شوقى شاعر الخلافة الإسلامية " للمؤلف طبع دار المقطم بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

الكلام..

بل إنك إذا ذهبت إلى كتاب "نزهة الخواطر" وهو الأشهر فى طبقات علماء الهند باللغة العربية والذى كتبه الشيخ عبد الحى الحسنى، وأكمله من بعده ولده العلامة الشيخ أبو الحسن الندوى وجدت نفس الاتهامات والافتراءات!!.

فهل ضرّوا الشيخ الإمام شيئًا بافتراءاتهم؟

ما ضرّوه شيئا، إنما وقع الضرر كل الضرر علينا نحن -عامة المسلمين- إذ حُرمنا -بإعراضنا عنه- الشىء الكثير من علومه وأنواره وآثاره الجميلة الخالدة.

أما هو فقد أعطوه من حسناتهم فى يوم الحاجة، ولا يزال ربنا جلت حكمته يرفعه -بكلامهم فيه- كل يوم درجات.

۞۞۞

كنز السعادة الكبرى:

كنز السعادة الحقيقى هو محبة النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى قدر المحبة تكون السعادة ويكون التوفيق، لذلك كان أبو بكر الصديق أعلى الأمة إيمانا وأكثرها توفيقا وسدادا، لأنه كان -كما هو معلوم للجميع- أكثر الأمة محبة لسيد الكائنات ﷺ.

لا تجد محبًا صادقًا للنبى ﷺ إلا وتجده على المحجة البيضاء التى ترك أمته عليها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

***

لم يكن الإمام أحمد رضا خان البريلوى محبًا فقط، ولكنه جعل شغله الأكبر طوال حياته المباركة تعريف المسلمين بعظمة النبى -صلى الله عليه وآله وسلم- ودلالتهم على طريق محبته، حتى إن هذه النية العالية سرت فى كتاباته وأشعاره كما تسرى الروح فى

البدن، وأصبح يُعرف بين الناس بأنه "محب الرسول المصطفى ﷺ".

يروى أنه فى مدينة "بدايون" ألقى كلمة عن سورة الضحى، فاستمر ست ساعات على التوالى، لأن هذه السورة تتضمن ذكرًا للنبى ﷺ.

وكان يحتفى حفاوة كبيرة بالاحتفال بمولده ﷺ، وغير ذلك من المناسبات فيجلس فيها على ركبتيه متأدبا مع مقام الحبيب ﷺ.

ما كان حديثه يخلو قط من ذكر النبى والصلاة عليه، يقول دائما: "اذكروا الرسول فى كل كلام وحديث.. اذكروه صباحا ومساءً".

لقد قضى حياته كلها هائما فى حب النبى ﷺ.

ولما كان الشعر أفضل أداة تعبر عن جيشان العواطف والأحاسيس فقد نظم الإمام الشعر فى اللغات الثلاثة: العربية والفارسية والأردية، وجله فى الثناء على الله ومدح رسوله ﷺ، وذكر مناقب الأولياء ولم يمدح سلطانا ولا وزيرا..

ويصف الأولياء وما يُضفونه على الحياة من رونق وبهاء فيقول:

بمجلسهم تحف طيور قـدس ... ولا يشقى بهـــم لهـم قعيـدُ

إذا حلوا تـمصّـرت الفيــافـى ... وحين ترحلوا الأمصار بيـدُ

۞۞۞

مداح النبى ﷺ:

لاشك أن هناك موقفًا سيُسرُّ به أهله يوم القيامة عندما ينادَى على الملأ: أين المادحون، فيقوم الذين مدحوا الله ورسوله فى الدنيا من غلبة المحبة على قلوبهم، فيرون من كرامة الله وإقباله عليهم مالم يكن لهم بحسبان..

من أولئك السعداء الإمام المجدد أحمد رضا خان، بل هو فى مقدمتهم مع

البوصيرى والصرصرى والبرعى والنبهانى..

لم يمنعه اشتغاله بالعلم من أن يتسامى إلى هذا المقام الباذخ الرفيع، وأن يتربع على قمته مع أهل السعادة والمحظوظين. مَدَح النبى ﷺ بكل لغة أتقنها، بالعربية والأردية والفارسية.

استمع إلى جمال وأناقة قوله:

"على الوالى من الأعلى صلاة تفيض فتستفيض بها العبيد

على الوالى من العالى سلام يجود فيجتدى منه العبود

صلاة لا تحد ولا تعد ولا تفنى وإن فنيت أبود

سلام لا يمن ولا يمانى ولا يبلى متى بليت عهود"

* * *

قال فرمان فتحبورى – من أساتذة الأدب الأردى:

"إن شبه القارة أنجبت أعاظم العلماء المتضلعين فى شتى العلوم، بيد أننا لا نقع فيهم على شاعر من الطراز الأول إلى كونه علاّمة فى العلوم الإسلامية. وقد وجدنا هذا فى أحمد رضا خان.. إنه من علماء الدين الحنيف، غير أنه شاعر المديح النبوى الشريف بخاصة.. إن ما

نظم من شعر يمتدح به خير البرية - ﷺ- يقع موقعه العميق فى قلوب مسلمى الهند، وعلى ذلك إذا نظرنا فى مدائحه النبوية أيقنًّا أنه أعظم شاعر امتدح رسول الله عليه الصلاة والسلام..

أما خصائص مدائح أحمد رضا النبوية فمتسمة بالوضوح، فمعانيها فى ظاهر ألفاظها، وغرض الشاعر يدرك فى غير عسر ومشقة، وهذه ميزة جعلت شعره شعرا يتفهمه ويتذوقه المتلقون على تفاوت حظوظهم من التعليم، وحسبنا أن نشير إلى أن مدائحه تُنشد فى المحافل الدينية الخاصة، وندوات السيرة النبوية العامة، وإذا سمعها المسلمون استخفهم الطرب وبلغ مبلغه، ولا نكاد نعرف مسلمًا فى شبه القارة الهندية ليس فى محفوظه أشعار مما فاضت بها قريحة أحمد رضا خان فى مديح سيد الأنبياءﷺ".

وللإمام قصيدة بالأردية فى مدح النبى ﷺ تسمى بالمنظومة السلامية تُنشَد بتمامها، أو أجزاء منها فى المحافل الدينية وفى المساجد بعد صلاة الجمعة، وتنشد -كما قال د. حسين مجيب المصرى- بكيفية ترقق القلوب وتثير فيها هزة الطرب إلى حد يجعل للنفوس خشوعًا، وللعيون دموعًا. وقال أيضا فى موضع آخر من مقدمته الضافية لترجمة المنظومة السلامية:

"ومن مستطرف ما يُعرف فى شبه القارة الباكستانية الهندية أن الاحتفال بالمولد النبوى الشريف يبدأ ويُختتم بإنشاد أبيات من "السلامية" كما أن النساء - بمناسبة المولد النبوى، وبمناسبة عيد الفطر وعيد الأضحى- يجتمعن فى بيت إحداهن ليشنفن الأسماع بإنشاد من تنشد السلامية بصوت جميل، وذلك فى كل ما وسعت

المدن والقرى من أحياء".

وقد أخبرنى صديق من الهند أن المؤذنين –فى بعض المساجد– يترنمون بأبيات منها قبل أذان الصبح فى مكبرات الصوت.

***

وله قصائد أخرى كثيرة جعلته يتبوء تلك المكانة العالية بين المادحين. قال د. حسين مجيب المصرى:

"لأحمد رضا ديوان كبير فى الأردية هو:

"حدائق بخشش" أى حدائق الغفران، يتألف من ثلاثة أجزاء.. وأول ما يلفتنا إلى هذا الديوان أن معظم ما انطوى عليه فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته وصحابته والأولياء رضوان الله عليهم".

"وأهل العلم فى شبه القارة يجعلون لهذا الديوان منزلة لا تسامى، ويعدونه بحق أفضل ما قيل فى مدح الرسول ﷺ، وقد توفر كثير منهم على دراسته وشرحه وتفسيره (حتى أن أحد هذه الشروح يقع فى خمسة وعشرين جزءا كبيرا)".

***

إن الإمام أحمد رضا خان لم يقرض الشعر تنفيسا عن مكنون قلبه فحسب، ولكن بالمقام الأول – حتى تتغنى به جماهير المسلمين فتتأكذ محبة الله والرسول فى القلوب، وهو الأمر الذى وفقه الله إليه أعظم توفيق كما رأينا، استمع إلى هذه الأبيات من نظمه فى العربية؛ كم هى سهلة وبسيطة، سماعًا وحفظًا وإنشادًا:

وصــلاة ربى دائمـــا وعـــلى خير البريـــة سيد الأكـــوان

صلى المجيد على الرسول وآله ومُحبــه ومطيعه بـحنــــان

صلى عليـك الله ياملك الورى ما غرد القمرى فى الأفنان

صلى عليك الله يا فرد العلى ما أطرب الورقاء بالألـحان

كان -رضى الله عنه- يقول: "تعلمت المديح النبوى من القرآن الكريم" ..

من تأمل فى هذه العبارة تكشفت له بعض معالم هذا المقام الرفيع -مقام المديح- الذى لا يشرِّف الله به إلا من كان أهلاً له.

عبر الشيخ عن ذلك بقوله: "مدح النبى ﷺ كالمشى على حد السيف، لو بالغت زاحمت الألوهية، ولو قصّرت ارتكبت النقيصة".

إن المحب لا يروى عطشه شىء، ولا يكفيه ما يبث أشعاره من لواعج الشوق ولو ملأت ما بين الخافقين، بل هو دائما فى البحث عن مزيد، والشيخ الإمام المحب الموله يطرب لكل مديح، ويفرح لكل نبضة حب، فلما سمع بيتين للإمام الصرصرى الشهيد فى وجوب القيام – محبة وتعظيمًا – عند ذكر مولد المصطفى ﷺ طرب لهما وراح يرشف رحيقهما رشفًا فعمل لهما تخميسا بديعا، فهاك بيتا الصرصرى:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب على فضة من خط أحسن من كِتَبْ

وأن يـــــنهض الأشراف عنـــــد سمـاعه قياما صفـــوفا أو جثيـا على الرُّكَبْ

وهاك تخميس الإمام لهما:

ســـواد عيـــون العـــين سنـــا ولوح نـحـور الحـور لاح كما يجبْ ذهـبْ

فإن يـمل جبــــريل لقـــال أولـو قليل لمدح المصطفى الخط بالذهبْ

الأدبْ

على فضة من خط أحسن من كتب

يقـــوم بحـــق المـدح قـــوم تولـه وقـــم بالوجـــــد قومـــة

فلاتِــــهِ والِـهِ

فحُـــقّ خـضـــوع الوجـــه رغـما وإن ينهض الأشراف عند سمـــاعِهِ

لكارِهِ

قياما صفوفا أو جثيا على الركب

***

الحمـــــد للمتوحــدِ بجـــــلالـه المتفــــردِ

وصلاة مـولانـــا على خـير الأنـــام محمـــدِ

والآل أمطار النــــدى والصحب سُحب عوائدِ

لاهُمَّ قد هجم العدى مـن كل شـــأوٍ أبعــــدِ

لكـــن عبـــدك آمن إذ مـــن دعـــاك يـؤيّــَدِ

يـــارب يـــارباه يـــا كنـــز الفقيـــر الفاقـــدِ

بك ألتجـى بك أدفع فى نحـــر كل مُهــــدِّدِ

أنت القـــوى فقـــونى أنـــت القـــدير فأيـِّـــدِ

فإلى العظيـــم توسلى بكتـــابــه وبأحمـــــدِ

وأدم صـلاتك والسَّـــلا م على الحبيب الأجــودِ

واجعل بها أحمد رضا عبدًا بحـــرز السيـــدِ

۞۞۞

كراماتــه:

قال العارفون إن الاستقامة أعظم كرامة، ولقد تجسدت الاستقامة فى حياة الإمام منذ بدايتها حتى لقى ربه كالخيط الذى ينتظم حبات المسبحة.

كانت الهند تمور مورًا بالفتن والمؤامرات التى تهدف إلى النيل من عقيدة المسلمين، وتفريق كلمتهم، وإضعاف شوكتهم..

وانتشرت الدعاوى التى ما أنزل الله بها من سلطان، ونشط أهلها فى ظل تشجيع الإنجليز يخربون فى الدين، ويعملون معاولهم فى أسسه وأركانه وهم يظنون أنهم على الحق.

لم يتزلزل شيخنا على الرغم من كثرة من زُلزلوا، ولم ينخدع، ولم يُفرِّط، ولم ينحرف طوال حياته عن طريق النبى ﷺ؛ طريق أهل السنة الواضح الرشيد، وهذه كرامة ما بعدها كرامة!

أضف إلى هذا تلك الأعمال الجليلة الكثيرة الموفقة، هى كرامة عظيمة أخرى من كرامات شيخنا الإمام رضى الله عنه.

ولقد قالوا إن العارفين يخفون الكرامات الحسية ويستحيون من ظهورها كما تستحيى العذراء من دم الحيض، ذلك لأنهم أعرف الناس بربهم، وأخشاهم له، وهم فى مقام المشاهدة لم يعد لهم عند الناس حظوظ يحرصون عليها أو يلتفتون إليها.

إلا أن أصحابه ومحبيه سجلوا العديد مما عاينوه من كرامات أظهرها الله على يديه، رصّعوا بها صفحات الكتب والمقالات. ولما كانت هذه الكتب باللغة الأُردية فقد قام بعض الطلبة الهنود – جزاهم الله خيرًا – بترجمة بعضها إلى اللغة العربية وأهدوها إلىّ تفضلاً منهم وكرمًا.

ولما كان المجال لا يتسع لها جميعًا، فقد اخترت منها قصتين أو ثلاثة مع بعض الاختصار والتصرف فى الصياغة اللغوية:

❊❊❊

- صاحب هذه القصة هو السيد عبد الغفور الرضوى الذى وُلد فاقد البصر بالمدينة المنورة فى أول يناير سنة ١٩٠٠م، وكان والده من الهند ويعمل موظفًا للدولة العثمانية العلية فى تدريب العساكر من العرب، وكان أيضا من مريدى الإمام أحمد رضا.

فى أول أجازة له سافر إلى الهند وفى نيته أن يزور شيخه الإمام أحمد رضا ويسأله أن يدعو الله أن يردّ إلى ولده بصره.

فلما سمع الإمام قصته قال له إنك جئت تطلب العلاج هنا وهو هناك حيث جئت، يعنى بذلك المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. ثم أخرج منديلاً من جيبه وأمره أن يبلله بالماء عندما يعود إلى المدينة وينظف به الروضة الشريفة صباحًا ثم يعصره فى إناء ثم يضع من ذلك الماء فى عينى ولده وإن شاء الله يعود إليه بصره بعد أربعة أيام.

ورُدّ إلى الغلام بصره، وعاش ما شاء الله حتى قامت الحرب الأولى وكان عمره – حينئذ– أربعة عشر عامًا فسافر مع والديه إلى الهند حيث صحبهما فى زيارة الشيخ الإمام وبايعه على سلوك الطريق، ثم طلبت أمه من الشيخ أن يدعو لولدها حتى إنها سألته أن يدعو له بأن يعيش مائة وخمسين عامًا. فقال الشيخ: آمين.

واليوم قد بلغ السيد عبد الغفور الرضوى مائة وسبع سنوات وهو حى يُرزق فى باكستان، وعنده يقين أن الله سيمد فى عمره إلى مائة وخمسين عامًا. (عن مجلة الأشرفية الشهرية بمباركفور، أبريل ٢٠٠٧م)

❊❊❊

• خرج أمجد على خان الرضوى، وهو من مريدى الشيخ، ليصطاد فى يوم، فأصاب برصاص بندقيته رجلاً عن طريق الخطأ فقتله، فسيق إلى القضاء الذى حكم عليه بالإعدام شنقًا، وكان وقع ذلك على أسرته شديدًا جدًا، ولكنهم عندما ذهبوا لزيارته فى السجن وجدوه هادئًا مطمئنا، ويقول لهم إنه لن يُقتل.

قال لهم إن الشيخ أحمد رضا خان جاءه فى المنام وبشّره بأنه سيخرج من هذه المحنة سليمًا معافىً.

ولكن أهله لم يصدقوا أنه سينجو لما رأوه ويرونه من مظاهر الشدة فى المحاكمة والسجن وغير ذلك، ثم تحديد موعد تنفيذ حكم الإعدام باليوم والساعة.

وجاءت ساعة التنفيذ، وهو -أى المتهم- على حاله من الاطمئنان والثقة فى النجاة حتى أن الجلاد عندما سأله عن رغبته الأخيرة أجابه بأنه لن يُشنق.

وبينما الجلاد يعد حبل المشنقة ليضعه فى عنقه جاءت بالتلغراف الأوامر بإطلاق سراح عدد من المحكوم عليهم بما فيهم صاحب هذه القصة بمناسبة اعتلاء الملكة فكتوريا العرش فى بريطانيا.

(عن كتاب تجليات إمام أحمد رضا ص ١٠٠، بركاتى ببلشرز – كراتشى باكستان)

***

• تخرج الدكتور ضياء الدين رئيس الجامعة الإسلامية "بعلى جراه" من جامعات أوروبا، وكان من أكبر علماء الرياضيات فى زمنه.

فى يوم قابلته مسألة شديدة الصعوبة، عجز تمامًا عن أن يجد لها حلاً حتى أزمع السفر إلى ألمانيا من أجل حلِّها. وكان العلاّمة السيد سليمان أشرف البهارى القادرى – آنذاك- مدير الهيئة الدينية بالجامعة، فأشار عليه -بدلاً من السفر إلى ألمانيا- أن يذهب

إلى بريلى لعرض هذه المسألة على الإمام أحمد رضا، فاستخف الدكتور بهذا الرأى إذ ما علاقة هذا بتلك – فيما يعتقد؟

ومع إلحاح السيد سليمان البهارى وافق الدكتور على الذهاب إلى بريلى وصحبه فى هذه الرحلة السيد سليمان.

وما إن عرض الدكتور المسألة على الإمام حتى أجاب بحلها دون عناء وفى أقل وقت، فبهت الدكتور وقال: كم كنا نسمع عن العلم اللدنى سماعًا، وها هو اليوم رأيناه بعيوننا.

(عن كتاب حياة أعلى حضرت الجزء الأول ص ٢٤١، مكتبة نبوية، لاهور)

***

إلا أن المولى تبارك وتعالى قد حبا الشيخ أحمد رضا بأعظم كرامة وأعلى رتبة ينالها العارفون وهى رؤية النبى ﷺ فى اليقظة، وقد اشتهرت عن شيخنا الإمام هذه الكرامة حيث كان فى زيارة الحبيب ﷺ بالمدينة المنوّرة المشرفة، وجلس فى رحابه يصلى عليه طول الليل، فإذا به يراه فى اليقظة، فاشتهرت لذلك الصيغة التى كان يصلى بها واسمها "الصلاة الرضوية على سيدنا خير البرية" ونصها كالتالى:

صلى الله على النبى الأمى وآله

صلى الله عليه وسلم

صلاةً وسلامًا عليك يا رسول الله

***

وحين أزف الرحيل، وآن وقت اجتماع الحبيب بحبيبه، زف الله تعالى الشيخ المحب إلى مقر رحمته ورضوانه بكرامة ظاهرة وبشرى ما أجلها وأجملها..

رُوِى أن شيخا من فلسطين سأل عن الإمام محمد أحمد رضا خان البريلوى من يكون؟ فقيل له إنه عالم من أهل الهند مقيم فى مدينة تسمى "بريلى". فصح منه العزم على أن يرتحل إليها. ولما قدمها جعل يسأل عن داره ليزوره فيها، فقيل له إنه لقى ربه منذ شهر، فمضى إلى داره والتقى بأهله، وقال لهم إنه رأى الرسول ﷺ فى الرؤيا، وكان حوله جمع من صحابته، واتفق أن سأله أحدهم: من تنتظر يا رسول الله؟ فردّ صلى الله عليه وسلم قائلا: إنه فى انتظار محمد أحمد رضا خان البريلوى. وسأل أهل الشيخ أحمد رضا خان هذا القادم عليهم متى رأى هذه الرؤيا، فحدّد وقتها بنفس اليوم الذى مات فيه الشيخ.

هنيئا لك يا شيخنا، ورضى الله عنك وأرضاك، وجعل أعلى الفردوس مستقرك ومثواك.

۞۞۞

وفاته:

انتقل الشيخ إلى جوار ربه فى يوم الجمعة المبارك ٢٥ من صفر الخير سنة ١٣٤٠هـ الموافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢١م بمدينة بريلى التى تشرفت بحياته وطاب ثراها بضم جثمانه.

مضى الشيخ إلى ربه بعد أن أدى الذى عليه، تاركًا وراءه تراثا عظيما ينتفع به، وتلامذة ومريدين لا يحصون حملوا أفكاره وأصابوا من أنواره، ثم فوق هذا وذاك، طاقة من الحب تسع الكون بأسره، ما يوافقها محظوظ إلا سعد بها فى الدنيا قبل سعادة الآخرة.

يا أيها المزجى المطية سـادارا قف بالمجدد وارث النعمـــان
عُرفت بريلى فى البـلاد بأن فيـ ـها مضجعــا للعـــالم الـربانى

مِن أجله جادت عليـها مُزنـه   من رحمة الجبـار بالتهتـان

هو درة فى مفرق الدنـيا وتـا   ج كرامة من خالص العقيان

ودعـا إلى حـب النبى وآلـه   أبنـاء إسـلام بكل مكـان

فعليه رحـمـة ربه وسـلامـه   ما غـرد الأطيار بالألحـان

ما دام تلمع فى السماء نجومها   و تبسم الأزهار فى البستان

۞۞۞

مراجـع

- الشيخ أحمد رضا خان البريلوى وشىء من حياته وأفكاره للدكتور محمد مسعود أحمد، ترجمة الشيخ محمد عارف الله المصباحى، طبع مؤسسة الشرف بلاهور، باكستان، الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٠م.
- المنظومة السلامية فى مدح خير البرية ﷺ لمولانا محمد أحمد رضا خان ترجمة حازم محفوظ، قدم لها وشرحها ونقلها إلى الشعر العربى د. حسين مجيب المصرى، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٩٩٩م .
- حدوث الفتن وجهاد أعيان السنن، محمد أحمد المصباحى، نشر المجمع الإسلامى، مبارك فور، أعظم جره، الهند، ١٩٩٩م .
- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للشيخ عبد الحى الحسنى.
- حسام الحرمين على منحر الكفر والمين للإمام أحمد رضا خان البريلوى طبع مؤسسة رضا، لاهور، باكستان، ٢٠٠٦م .
- مدارس الحب مصانع الرجال، محمد خالد ثابت، دار المقطم بالقاهرة ٢٠٠٥م.

- الدعوة إلى الفكر محمد القصورى، مؤسسة رضا لاهور باكستان.
- تاريخ الإسلام فى الهند للدكتور عبد المنعم النمر، القاهرة ١٩٥٩م .
- الإمام أحمد رضا الحنفى البريلوى وشخصيته الموسوعية، كوثر النيازى، ترجمة ممتاز أحمد السديدى، أكاديمية رضا، لاهور، باكستان، ١٩٥٥.
- الشيخ أحمد رضا خان البريلوى شاعرًا عربيا، ممتاز أحمد السديدى الأزهرى، مؤسسة الشرف بلاهور، باكستان، ٢٠٠٢م.
- الإمام أحمد رضا وأثره فى الفقه الحنفى، رسالة ماجستير، مشتاق أحمد شاه، جامعة الأزهر، كلية الشريعة والقانون، ١٩٩٧م.
- الإمام أحمد رضا خان القادرى وجهوده فى مجال العقيدة الإسلامية فى شبه القارة الهندية، رسالة ماجستير، سيد محمد جلال الدين، جامعة القاهرة، كلية دارالعلوم قسم الفلسفة الإسلامية، ٢٠٠٦م.

* أتوجه بالشكر والعرفان للأساتذة الكرام الطلبة بالدراسات العليا بالأزهر الشريف: عبد النصير أحمد ناتور، ومحمد إمام الدين، وشاهد رضا عبد السلام، وغيرهم ممن لم أنوه بأسمائهم على ما أمدّونى به من الكتب والأبحاث عن الشيخ الإمام، ما كان لى أن أعرفها أو أحصل عليها لولا معونتهم المخلصة، فجزاهم الله خير الجزاء.

۞۞۞

الكتاب الثانى

الشيـخ صـالح الجعفـرى

إمام المحبين وقدوة الصالحين

(١٣٢٨ – ١٣٩٩هـ = ١٩١٠ -١٩٧٩م)

وكَـمْ مِن عابــدٍ يَمْشــى

مَـع الأقْطـابِ والخِضْـــرِ

المحتوى

إذا كنت فى القاهرة قادمًا على طريق "صلاح سالم" من جهة المطار إلى الدراسة فإنك قبل أن تصل إلى النفق تجد لافتة كبيرة وسهمًا يشير إلى جهة اليمين وعليه عبارة "مسجد الجعفرى".

فإذا دخلت مع السهم يمينا وجدت ذلك الصرح المبارك "مسجد الشيخ صالح الجعفرى" لايبعد عن مسجد سيدنا الحسين والجامع الأزهر الشريف بأكثر من كيلومتر واحد أو كيلومتر ونصف.

ولو أسعدك الحظ، وزُرت المسجد فى يوم الأحد أو الخميس مساءً وجدت صورة ينشرح لها صدرك، إذ ترى المصلين بعد أن ينتهوا من الصلاة يجلسون فى صفوف فى هدوء وسكينة لتبدأ الحضرة التى يجلس على رأسها فى وقار وتواضع الشيخ عبد الغنى – ابن الشيخ صالح الجعفرى – وشيخ الطريقة الآن.

وتكاد حضرة الشيخ صالح تكون كلها فى مدح النبى ﷺ، وكل المدائح من نظم الشيخ الذى بلغ ديوانه فى مدح المصطفى ﷺ اثنى عشر جزءًا، ولا يزال أبناؤه يعثرون كل حين –هنا أو هناك– على قصائد جديدة من قصائد الشيخ التى لم تنشر.

ولعل ما يثير الإعجاب فى هذا المجلس هو الأدب الجم، والنظام المحكم السهل التلقائى بلا تكلف ولا تعنت.

* * *

أثناء الحضرة، والمداحون فى أوج مديحهم لسيد الكائنات ﷺ، يتم إطعام الطعام لجميع الحضور بلا استثناء على دفعات فى غرف ملحقة دون أن يتوقف المديح أو يحدث أى هرج أو فوضى. والطعام دائما – منذ عهد الشيخ رضى الله عنه – هو اللحم والثريد.

وإذا فرغ الجميع من الطعام دارت أكواب الشاى على الجميع، وقد توزع أيضا أنواع من الحلوى يُحضرها بعض الحاضرين، والمديح أيضا مستمر، وأحيانا تُهدى للشيخ كتب قيمة أو عطور فيقوم بتوزيعها وهو جالس فى مكانه، وربما لايكفى عددها جميع الحاضرين فهناك من يأخذ ومن لا يأخذ، لكن الجميع فى سكون ورضا، لا تجد أحدًا يرفع يدًا أو ينادى: أنا أنا..

أما المداحون فهم من أبناء الطريقة تتفاوت مهاراتهم فى المديح تفاوتًا عظيمًا ذلك لأن هذا المجلس مدرسة لتخريج المداحين وصرحًا لبناء المحبة فى القلوب، لذلك تجد الشيخ يشجع الجميع على المدح، وقد تُصادف مداحًا يمدح لأول مرة فى حياته – سواء كان صغيرًا دون البلوغ أو كبيرًا – وربما تلعثم أو لحَنَ فى أدائه، فلا تجد أحدًا يزعجه، أو يلتفت إلى خطئه، إذ أن الجميع منشغلون بالمديح الذى هو فى حقيقته صلاة على النبىﷺ مقرونة بالتعظيم والتبجيل والمحبة، وهم فى عملهم هذا متوافقون مع حركة الكون التى جعلها الله تدور فى فلك محمدﷺ، متوافقون مع ملائكة الله فى الملأ الأعلى التى لا تكف عن الصلاة على سيد الكائنات فى ليل أو نهار، وكذا صلاة ربنا الجليل.

المداح يمدح وكل من فى المجلس يرددون فى صوت جماعى بهيج أبياتا معينة من القصيدة مما يضفى على المجلس جمالاً فوق جمال:

بمدحِ رسولِ الله تنحلُّ عُقْـــدتى
فمدحُ رسول الله نِعْـم وسيـــلتى
بمدح رسول الله تُقْضى حَوائجى
وتُغفـــرُ أوزارى وتُقبـــل تَوْبـتى
به أســـألُ المـولى الكريمَ كرامـــةً
فمدحُ رسول الله ذُخْرى وعُـدَّتى

بـجــاهِ رســولِ الله يـاربّ دُلَّـنى

على فهمِ أســرارِ العُلوم الدَّقيقـةِ

وعَجِّل شفائى يا إلهى وعُمَّنــى

بعـفـــوكِ ياذا العَفْــو عن كلِّ ذلةِ

***

إنه جو من التراحم والمودة والألفة اجتمع على محبة رسول الله ﷺ فصفا من الأكدار، وعلا على سفاسف الدنيا وتفاهاتها، وإن روح الشيخ صالح -رضى الله عنه- لتطوف بالمكان تضفى عليه وعلى أهله من سموها ونقائها..

فمن هو الشيخ صالح الجعفرى مؤسس هذا الصرح، وهذه الطريقة؟ مداح الرسول وآل بيته، مربى المريدين وقدوة الصالحين؟

۞۞۞

البيت الذى نشأ فيه:

ينتمى الشيخ لأشرف بيت عرفه الناس منذ بدأ الخليقة، ولن يعرفوا قط أشرف منه إلى يوم القيامة.. بيت النبوة والاصطفاء..

يقول الشيخ فى التعريف بنفسه وببيته المبارك:

"يقول راجى عفو مولاه ومغفرته ورحمته صالح بن محمد بن صالح الجعفرى الصادقى الحسينى من بلدة الأقصر بصعيد مصر من القبيلة التى هى من الجعافرة، وتسمى العلوية، وهم مفرقون بين الأقصر والحلة والحليلة والدير، وقد قل عددهم والبقاء لله، وفى السلمية يوجد قبر جد والدى محمد رفاعى بمقبرة جد الجعافرة، الشريف السيد الأمير حمد حيث إنه كان يقيم هناك.

وللجعافرة نسب كثيرة محفوظة قديمة، ومن أشهرهم فى إظهار تلك النسب أخيرًا الشريف السيد إسماعيل النقشبندى، وتلميذه الشيخ السيد موسى المرعيابى، ولا تزال ذرياتهم تحتفظ بتلك النسب كثيرة الفروع المباركة.

اعلموا أيها الإخوان أننى كنت منذ صغرى أشعر بأننى من ذرية الإمام سيدنا جعفر الصادق -رضى الله عنه- إلى أن رأيت فى أوراق والدى -رحمه الله- الرسمية جنسيته (جعفرى)، وكنت أرى أجدادى -رضى الله تعالى عنهم- بالبلد حتى أتيت مصر، فأول رؤية رأيت فيها السيدة زينب -رضى الله تعالى عنها- بنت أمير المؤمنين سيدنا على -رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه- فسلمت عليها وهى فى مقامها من وراء حجاب، ومدت لى يدها وهى مستترة وقالت لى: كيف حالك وحال أهلك الجعافرة؟

ثم رأيت أهل بيت النبوة أجمعين يسلمون على ويعطفون، وبالأخص السيدة فاطمة الزهراء -رضى الله تعالى عنها- ثم رأيت النبى -صلى الله عليه وآله وسلم- جالسًا على سرير، وبجواره الصدِّيق -رضى الله تعالى عنه- وجاء سيدنا على -رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه- فقمت وسلمت عليه وأمسكت يده وقلت له: أنا محسوب عليك، أنا من ذريتك، أنا من ذرية سيدنا جعفر الصادق. وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إلينا ويسمع كلامى فأشار برأسه الشريف من أعلى إلى أسفل مصدقًا قولى بقوله: نعم -صلى الله عليه وآله وسلم- فلما استيقظت كانت هذه الرؤيا أحب إلى من الدنيا

وما فيها.

وهناك مرائى كثيرة تدل على ذلك والحمد لله. وإنى أشكر الله – تعالى– حيث إن أجدادى عرفونى رجالا ونساء، وهذا منتهى أملى. وأما الناس فلا حاجة لى بهم، فإن معرفتهم لا تضر ولا تنفع.

وإنى أشكر الله –تعالى– حيث جعلنى أنتسب إلى هذا البيت الطاهر، وعرّف أجدادى بى وعرّفنى بهم. وجعلت الله على قولى هذا وكيلا، وهو حسبنا ونعم الوكيل".

ويزيدنا الشيخ معرفة بأهله فيقول:

"إن جدنا كان يُعرف بالرفاعى، وقد هاجر إلى "دُنقلا" بالسودان واستقر هناك، وكان من علماء الأزهر العاملين، وكان يقيم حلقة لتحفيظ القرآن الكريم وحلقه لتدريس العلم النافع فى مسجد "دُنقلا"، وكان منصرفا بقلبه وعقله وسائر جوارحه إلى العلم والقرآن، وقد ترك أمور الزراعة وإدارة شئون منزله إلى ابنه "محمد صالح" فهو الذى كان يتولى فلاحة الأرض وأشرف على تزويج إخوته البنين والبنات قبل أن يتزوج هو".

و "محمد صالح" هو والد شيخنا وكان مكافحًا فى السعى على أهله وقضاء حوائج الأسرة وشئون المعيشة، ومع ذلك كان عابدًا مقبلا على أمور الآخرة، وقام بالحج عدة مرات.

***

لما تزوج الحاج محمد صالح لم يُرزق بالذرية مدة ثمانى سنوات ، فعزم أهله على أن

يزوجوه بامرأة أخرى، فلما علمت زوجته بذلك ذهبت إلى قبر سيدى عبد العالى ابن القطب الكبير سيدى أحمد بن إدريس، وسيجيء الحديث عنهما مفصلا بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ذهبت الزوجة إلى المقام الكائن بمسجد "دُنقلا" ودعت الله عنده، ووعدت إذا رزقها الله بمولود أن تصوم ستة أيام من غير رمضان وتهب ثوابها لسيدى عبد العالى، وتنفق فى مولده جنيها كاملاً على الفقراء والمساكين.

۞۞۞

مولــده:

وحقق الله رجاء الزوجة الصالحة، ورزقها بمولود ذكر هو شيخنا. فحمله أبوه وهو فرح به إلى والده العارف بالله الشيخ صالح ليزف له البشرى، وقال له إنه يريد أن يسمى المولود باسم جده "صالح" فقال له الشيخ: إذا سميته باسمى فإنك ستهبه لله تعالى ولن تنتفع منه بشىء فى عملك ولا فى زراعتك. فقال الوالد فى غمرة الفرح: قد وهبته لله.

وكان مولده فى "دنقلا" بالسودان، يوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨ من هجرة سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه، الموافق سنة ١٩١٠ من ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

۞۞۞

نشأتــه:

نشأ الوليد فى هذا البيت المبارك حتى اشتد عوده، وكأن والده قد نسى مع مرور الأيام ما سبق منه حين وهب ولده لله عند مولده، فأراد أن يعلمه شيئا من التجارة،

فذهب به إلى دكان عمه. ولكن الصبى كان يهرب من الدكان ويذهب إلى مسجد "دنقلا" حيث توجد حلقة تحفيظ القرآن، وحيث قبر الولى الصالح سيدى عبد العالى الإدريسى، وحيث يوجد الشيخ محمد الشريف القائم على الطريقة الإدريسية آنذاك.

ووالده فى ذلك يغضب عليه ويعاقبه على ترك الدكان، ويحاول أن يوجهه إلى تعلم التجارة، فلما طال عليه هذا الأمر دون جدوى ذهب إلى سيدى محمد الشريف بن سيدى عبد العالى ليشاوره فى حال ولده، فقال له الشيخ مكاشفًا:

- أنسيت أنك قد وهبته لله تعالى؟ أرسل ولدك إلى الأزهر.

***

انقضت فترة الطفولة والصبا فى طهر وعفاف وإقبال على القرآن وعلى سلوك طريق أهل الله. يصف ذلك الشيخ -رضى الله عنه- بقوله:

"كنت منذ طفولتى مشغوفا بالعلم وحفظ القرآن، وكنت ملازما للمصحف الشريف، وكنت عندما أنام أضعه بجوارى، فإذا استيقظت فى أى وقت من الليل أعود إلى المصحف للقراءة والترتيل".

وفى سن مبكرة اتصل بشيخه السيد محمد الشريف فى مسجد دنقلا، وأخذ الطريق عنه، ويصف حفاوة الشيخ به وتفرسه فيما سيكون له من شأن فيقول:

"كنت صبيًا صغيرًا عندما كان الشيخ يلقانى قائلا: مرحبا شيخنا: فكنت أخجل من نفسى وأتساءل عجبا: كيف يقول لى مرحبا شيخنا وأنا صبى صغير وحوله كبار المشايخ؟

وسوف يكون لهذا الحديث ما بعده، وسنلتقى بخبره بعد صفحات، فإن أولياء الله

لا يلقون الكلام جزافًا..

۞۞۞

إلى الأزهر الشريف:

"قبل مجيئى إلى الأزهر جاء أحد أهل البلد بأول جزء من شرح النووى على صحيح مسلم، فاستعرته منه، وصرت أذاكر فيه، فرأيت (فى المنام) سيدى عبد العالى الإدريسى -رضى الله عنه- جالسًا على كرسى، وبجواره زاد للسفر، وسمعت من يقول إن السيد يريد السفر إلى مصر إلى الأزهر، فجئت وسلّمت عليه وقبّلت يده، فقال لى مع حدَّة: العلم يؤخذ من صدور الرجال لامن الكتب. وكررها، فاستيقظت من منامى وقد ألهمنى ربى السفر إلى الأزهر".

ولما صح عزم الشيخ على الالتحاق بجامعة الإسلام العريقة أخذ أهبة السفر، وكان آنذاك متزوجًا وأبا لاثنين من أبنائه، فترك أهله ويمم شطر القاهرة فى رحلة طويلة شاقة عبر مفاوز وجبال وطرق غير معبدة وأنهار حتى بلغ فى النهاية بغيته. يقول فى قصيدة له واصفا مجيئه إلى مصر التى شرفها الله بمراقد أهل البيت وشرّفها كذلك بالأزهر الشريف:

سريت من بلد أسعى إلى بلد — حتى أتيت إليهم فى ديارهم

وبت فى جبل من بعده جبل — أرجو الإله شهودا فى جماهم

❊❊❊

عندما وصل الشيخُ صالح إلى القاهرة، ووطأت أقدامه أطهر بقعة فى أرض مصر، وهى التى تشتمل على مسجد ومقام سيد الشهداء سيدنا الحسين عليه السلام، والجامع

الأزهر الشريف موئل العلماء والأولياء كان كأنه رُدّ إلى موطنه الذى تعلق به قلبه بعد طول غياب فكانت معظم أوقاته وتحركاته تدور فى ذلك المحيط الضيق الذى يفصل بين المسجدين الكبيرين، فلم يكن يغادر الأزهر إلا لزيارة سيدنا الحسين وحضور بعض الدروس التى تكون فى رحابه ثم يرجع منه إلى الأزهر.

أحب الشيخ الأزهر محبة بالغة، لم يحب الأزهر كبناء ولكن أحبه لما حواه من علوم وعلماء وأسرار وأنوار وبركات..

بناه الفاطميون الذين حكموا مصر قرنين من الزمان ليكون جامعة تدرس العقيدة الشيعية وتدعم الدعوة إليها فى أنحاء البلاد، فغلبت إرادة الله الذى أراد بأهل مصر الخير ببركة مصاهرتهم النبى ﷺ ووصاته بهم فحباهم بسكنى نفر عزيز غالٍ من أهل بيت النبوة، ثم أتم نعمته عليهم بإقامتهم على عقيدة أهل السنة والجماعة التى هى الإسلام دين الله الخاتم الذى ارتضاه للناس إلى يوم القيامة. فإذا بالجامع الأزهر يصبح الجامعة التى تدرس علوم السنة، وتحفظ على الأمة دينها المتين.

لقد تحول الأزهر عبر القرون إلى رمز جليل لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق.

۞۞۞

فى القاهــرة:

كانت القاهرة آنذاك تختلف اختلافًا كبيرًا عن "دنقلا"، فحين قدم الشيخ إليها صدمته للوهلة الأولى مظاهر الحياة الغربية التى كست وجه المدينة، وخاصة تبرج النساء واختلاطهم بالرجال، فتضايق لذلك جدا وهم بأن يعود أدراجه إلى بلده الهادئ العفيف الذى يساعد على حياة الزهد والعبادة.

ذهب الشيخ لزيارة سيد الشهداء أولا، لعله فى رحابه يجد استقرار أمره وطمأنينة

قلبه، وفى رحاب السيد لقيه الشيخ العارف بالله محمد إبراهيم السمالوطى -من علماء الأزهر- فكاشفه بما يعتمل فى نفسه وقال له:

-"لا تظن أن الأولياء يعيشون فى الخلوات ويفرون من الناس فى المغارات فقط، ولكن الولى الصادق هو الذى يعيش وسط العقارب فلا تتمكن من لدغه، فامكث هنا وجاهد نفسك..

الآن حصحص الحق، واستنار الأمر بنور من الله، وقال الشيخ صالح فى نفسه: هذا شيخ عارف لن أفارقه ما حييت.

وفعلا لازم شيخنا الشيخ السمالوطى ونال على يده من العلوم والأنوار ما ستجيىء الإشارة إليه عند الكلام عن مشايخه.

❊ ❊ ❊

أعطى الشيخ صالح نفسه كلها لله، فأعطاه الله من وسيع فضله، كان طلبه للعلم لله، لا لدنيا يريدها أو منصب يسعى إليه.

لقد امتلأ قلبه بحب الله، وانشغلت جوارحه بذكره ليل نهار، كان يقضى ليله كله يدور فى صحن الجامع الأزهر وفى يده مسبحته يذكر الله غير عابىء بشىء حتى يسمع أذان الفجر.

منذ وطأت أقدامه أرض الكنانة كانت تأتيه بعض الأموال من والده ليستعين بها على العيش، فكان ينفقها كلها على فقراء الطلبة والمحتاجين، ويعيش فقيرًا يشارك الفقراء حياتهم وطعامهم، تمر عليه أوقات كثيرة لا يجد فيها طعامًا يأكله فيبيت طاويًا تأسّيا بأسعد الخلق ﷺ وبسلف الأمة الصالح..

يسترجع الشيخ ذكريات تلك الأيام فى أحد دروسه فيقول:

"كنا نبيت على الطوى ليالى كثيرة، بل إننى مكثت أربعة أيام لا أجد ما آكله، وكنت أزور بعض معارفى فكان يسألنى: هل تريد أن تأكل؟ فكان الحياء والخجل يغلبانى، فأرد قائلا: قد أكلت. وهكذا بلغ بى الجوع حدًا جعلنى أبكى قبل النوم، فجاءنى السيد أحمد البدوى - رضى الله عنه- فى المنام وعلى وجهه لثامان، ثم كشف عن وجهه فوجدته أبيض كالقمر، ثم وضع يده على وجهى وقال: لماذا تبكى يا شيخ صالح؟ فقلت: من شدة الحاجة، فقال لى: سيوسع الله عليك إن شاء الله، ولكن لا تنس إخوانك".

هذه هى حياة أهل الله، سادة الدنيا وملوك الآخرة، ضرب المثل عليها بنفسه سيد الكائنات ﷺ، واقتدى به فيها جلة أصحابه، وأصبح الزهد فى الدنيا والتقلل منها لازمة لطالبى الآخرة. وأولى الناس بهذه الحياة هم طلبة العلم الذين يُعدّون ليكونوا قادة للأمة هداة للناس. هذه هى الحقيقة المضيئة التى عبر عنها إمامنا عبد الله بن المبارك بكلمته الخالدة التى يحق أن تكتب على واجهة كل معهد علمى فى بلاد الإسلام:

طلبنا العلم للدنيا، فدلّنا على ترك الدنيا.

۞۞۞

الأزهر:

أحب الشيخ الأزهر محبة كبيرة، ومن أحب طيبًا رُزق خيره، استمع إليه حين يتكلم عن الأزهر لترى دفء هذه المحبة وقوة نبضها:

"الأزهر هو الأزهر: شرع إلهى، وميراث محمدى، محفوظ بحفظ ما فيه، لأنه حوى القرآن وما فيه من فنون ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ

لحَـٰفِظُونَ ﴾. ترفرف فوقه روح صاحب السنة؛ إذ فيه سنته النبوية، وعلماء أمته الذين هم ورثته وخلفاؤه، فهو مكان نظر الله –تعالى– وعنايته، وموضع الذين استشهد بهم على وحدانيته، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ فهو يحوى العدول، وبه العدالة تعرف، ومنه تبعث، لا يُظلِمُ إذا أظلم الكون، وفيه نور الله، استنارت به القلوب، وهديت بهديه الشعوب، قوى الحجّة، واضح المحجّة، فيه استبصار لجميع المسلمين ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ مرفوع الذكر والدرجات برفع الله تعالى لعلمائه، فلا يخفضه خافض، فمن دنا منه رُفع، ومن عاداه وضع، له سيف قاطع وبرهان ساطع، وتجارة لن تبور، ومنافع فى مشارق الأرض ومغاربها، فهو كالغيث للنبات ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ هم الذين اصطفاهم الله، فهم صفوة الله فى عباده بعد رسله، فلله تعالى اصطفاء فى كل زمان، وجعل لمصر الحظ الوافر من هذا الاصطفاء، بأزهرها الذى رفع شأنها، وأعلى ذكرها، وجعلها كعبة للقاصدين، ورحمة للمسلمين، ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ولا يكون وارثا حقا حتى يعلم ما فى الكتاب، وللأزهر فى ذلك القدم الراسخ، والباع الطويل، واليد العليا، ولقد جعل الله الأزهر موضع التفقه فى الدين، وإليه الهجرة والنَّفرة، وبه الإنذار للشعوب والأمم، فهو أزهر الأمة المحمدية، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

وهو مكان لزيادة العلم التى أرشد الله –تعالى– إليها نبيّه ﷺ بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِى عِلۡمًا ﴾.

وهو مكان الحسنى وزيادة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ فالحسنى هى العلم، والزيادة: هى الزيادة منه، والتفهم فيه، والتبحر فى معانيه وهذا فى الدنيا، وفيه رجال المعاهدة الصادقون، الذين حافظوا على التراث المحمدى من غير تبديل ولا تغيير، من مات منهم مات على ذلك، ومن عاش منهم عاش على ذلك، ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلاً ﴾ وفيه رجال الأمر والاستنباط، الذين أمر الله الشعوب أن ترد الأمر إليهم ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ وأولو الأمر: هم أولو العلم، لقوله تعالى (لعلمه).. ولا يخلو شعب من الشعوب إلا وفيه أشباله. أسودٌ: عمائمهم تيجانهم، وعدتهم إيمانهم، وما من خير إلا وهم قادته والداعون إليه، ففى الجهاد هم السابقون، وفى الآراء هم المفكرون، ارتضاهم الله حملة لدينه، وأئمة لعباده، ومرشدين لخلقه، فهم مصابيح الأمم، وأقمار الشعوب، وبهم إصلاح المجتمع، يحافظون عليه من الوحوش الضارية، والكوارث السامة، والعقائد الزائفة، والآراء الفاسدة، ومن عبث العابثين، وتخريف المخرفين، لايضل شعب وفيه منهم عالم، فهم الزائرون على المنابر، وهم الخطباء فى النوادى، والكاتبون فى الصحف والمجلات. أقوالهم كالأسنة تقطع كل قول ضالّ، وتزجر كل منافق، وتهدى كل حائر، وتبين الغوامض

من الأمور، والمشكلات من المسائل.

فمن أكرمهم أكرمه الله، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عن الله، مجالسهم مجالس الله، يقولون بقوله، ويهدون لأحكامه، ويحافظون على حرماته، فمن أحبهم فبحب الله أحبهم، فهم أهل الله وخاصته، وخلاصة خليقته"..

* * *

لقد اقترنت محبته للأزهر بمحبته لأهل البيت، فهما فى واقع الأمر شىء واحد، لا انفصال بينهما فى قلب المؤمن قط، بيّن هذه الحقيقة سيد الكائنات ﷺ حين قال موصيًا أمته: "إنى أوشك أن أدعى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى، وإن اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض يوم القيامة، فانظروا فيما تخلفونى فيهما".

[رواه مسلم والترمذى والحاكم فى المستدرك وأحمد فى مسنده]

ولعل وجود الأزهر فى مواجهة مقام سيدنا الحسين فرع الدوحة النبوية المباركة لمّا يشير إلى هذا المعنى، واسم الأزهر نفسه المستمد من اسم سيدتنا الحبيبة الطاهرة المباركة "الزهراء" فاطمة ابنة رسول الله ﷺ وأم المباركين الطاهرين من أهل البيت عليهم سلام الله وبركاته. يخاطبها شيخنا الجعفرى مشيدا بالجامعة التى حملت اسمها فيقول:

فيا زهراء أزهركم منير ومن بركات والدكم تشعّب
وعمّ العالمين سنا ضياه فكل المسلمين إليه تطلب
سألت الله يكلؤه بنصر ومن يبغى له الإذلال يُنكب

۞۞۞

شيوخه بالأزهـر

ما أجمل أن نمضى فى هذه الصفحات القليلة -وياليتها كانت كثيرة- مع تلك الثلة المباركة من علماء الأزهر الذين سعد شيخنا برؤيتهم، وتلقى على أيديهم العلم والأدب.. بمثلهم تضاء ظلمات الجهالة، وتُتقى شرور الدنيا وآفاتها.

لم يُحرم الأزهر من أمثالهم فى أى عصر من العصور، ولكن لا يعرف قدرهم وينتفع بهم إلا أهل السعادة، من أريد بهم الخير، والمحرومون تعشى أبصارهم عن رؤية أنوارهم الساطعة. لذلك رأينا من بعض من تخرجوا من الأزهر من وصفوه بكل قبيح ووصفوا شيوخه بالتخلف والجمود..

وأى عجب فى هذا وأنبياء الله قد رآهم أقوامهم فمنهم من آمن بهم وتفانى فى محبتهم، ومنهم من أبغضوهم وكذبوهم ورموهم بكل نقيصة.

الأزهر هو الأزهر، والشيوخ الصادقون لا يخلو منهم زمان، ولكن الاختلاف فى قلب المتكلم. وفى أشواقه؛ أهى للدنيا أم للآخرة؟! استمع إلى كلام الجعفرى يقول:

"وحينما جئت إلى الأزهر وجدت عند كل عمود شيخا يدرس العلم، وكانت دموعنا تسيل من دروس العلماء، ومن لمعان وجوههم، لهم طريقة فى التدريس والكلام تقشعر لها القلوب، وكان لعلماء الأزهر نُطق حسن، ونبرات مخصوصة فى إلقاء العلم والدروس، وكان الشيخ السمالوطى -رحمه الله- يقرأ الحديث كما لم يقرأه أحد من قبل، حتى إنك لتحس بأن الرسول ﷺ يتحدث".

ويصف شيوخه بالأزهر فيقول:

"لقد كان مشايخ الأزهر أصحاب محبة وعقيدة، وكانت زيارة

الإمام الشافعى يوم الجمعة عادة حميدة كانوا حريصين عليها.

(وسبب ذلك كما بينه الشيخ) أن الشيخ على الصعيدى العدوى كان يقول لتلميذه –الدردير– رضى الله عنه: يقولون إنك ترى رسول الله ﷺ، كثيرًا، فإذا رأيته فاسأله عن حالى، ففعل فرأى النبى ﷺ يقول له: إنه رجل صالح، غير أنه به جفوة، فلما سمع الشيخ الصعيدى ذلك الكلام بكى كثيرًا، فسأله تلميذه الدردير: ما يبكيك؟ قال: يعاتبنى رسول الله ﷺ على تقصيرى فى زيارته، وقد تقدمت بى السنّ ولا أستطيع تحمل مشقة السفر، فإذا رأيته مرة أخرى فأخبره بذلك، ففعل، فرأى النبى ﷺ يقول له: قل له – أى للشيخ الصعيدى "أنا عند الإمام الشافعى كل يوم جمعة من بعد صلاة العصر إلى الفجر، فليأتنى هناك " فذهب الشيخ على الصعيدى العدوى إلى علماء الأزهر، وأخبرهم بذلك، وأصبحت عادة عندهم أن يزوروا الإمام الشافعى كل يوم جمعة فوج يتبعه فوج، من العصر إلى الفجر فى ذلك العصر الزاهر وقت أن كان العلماء علماء، والطلبة طلبة حقًا".

***

ها هم بعض مشايخه بالأزهر الشريف، وصفهم بأجمل وصف، وعرّف بهم بأبهى تعريف إذ كانت عينه الفاحصة تبحث فى خبايا كل منهم عن مواطن الجمال ومنابع النور.

۞۞۞

الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى:

كان اللقاء الأول بينه وبين شيخه السمالوطى فى رحاب سيدنا الحسين حين كاشفه

بما يختلج فى صدره -كما سبق أن رأينا- وقال له: "الولى الصادق هو الذى يمكث وسط العقارب ولا تتمكن من لدغه".

يقول الشيخ:

"وكانت تلك أول كلمة سمعتها من الشيخ السمالوطى، فتعجبت من ذلك وقلت: أيوجد فى هذا البلد مثل هذا الرجل من أرباب القلوب والكشف ثم أتركها؟ فجلست فى درسه وأحببته وكنت أحضر درسه فى مسجد مولانا الحسين رضى الله تعالى عنه".

فى ذلك الدرس كان الشيخ السمالوطى يشرح الحديث النبوى الشريف ومر بنا قول تلميذه الجعفرى "إنه كان يقرأ الحديث حتى إنك لتحس بأن الرسول ﷺ يتحدث".

وفى مرة ذكر الشيخ الجعفرى فى درسه حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه: "احفظ الله يحفظك" فقال:

"ومما من الله به على أننى تلقيت هذا الحديث بشرحه عن شيخى الشيخ محمد السمالوطى بالمسجد الحسينى، شرع يشرح فيه من بعد العصر إلى قرب المغرب، وكان ذلك فى شهر رمضان المبارك، ومن كلامه:

احفظ الله فى أوامره يحفظك فى دينك وفى جسمك وفى مالك وفى ذريتك وفى زوجتك وفى أهلك وفى حياتك وفى موتك وفى قبرك وفى بعثك وفى المحشر".

ومرة أخرى يقول:

"سمعت من شيخى محمد السمالوطى -عليه الرحمة والرضوان-

حكاية ذكرها عندما قرأ حديث "احفظ الله يحفظك" قال: وقع رجل تقى فى شدة وهى أن امرأة دعته إلى بيتها، فلما وصل للبيت غلّقت الأبواب، ودعته إلى نفسها، فأمرها بطعام فذهبت لتأتيه به، فقام وتوضا، وصلى ركعتين، وقال: اللهم هذه التقوى فأين المخرج؟ فانفلق له الجدار فخرج منه، فجعل الله له مخرجًا بسبب تقواه".

ويروى عن شيخه قصة أخرى تدل على ما كان له من مقام عالٍ ومن كشف فقال:

"وكنت أجلس فى درس الشيخ السمالوطى على يمين الكرسى الذى كان يجلس عليه، فقلت بقلبى: هل النبى ﷺ - مع الشيخ كما يقول؟ فقال الشيخ لى: نعم يا ولد، نعم يا ولد، نعم يا ولد".

۞۞۞

الشيخ محمد بخيت المطيعى:

عرّفنا به الشيخ فقال: "شيخى الشيخ محمد بخيت المطيعى -رحمه الله- عاش ١٠٣ سنة، وظل يتردد على الجامع الأزهر ليدرس فيه حتى توفى -رحمه الله- وكان يدرس فى الرواق العباسى، كان ذات مرة يقرأ الدرس فى تفسير آية الصبر وهى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فأراد أن يضرب مثالا على الصبر كيف يكون؟ فقال: كأن يسبُّ "دخيل الله" صالح، و "صالحًا" يصبر.

وكان الشيخ "دخيل الله" زميلاً للشيخ صالح فى الدراسة، وكان قد سبّه قبل حضورهما الدرس مباشرة، فكان ذلك كشفًا للشيخ المطيعى رحمه الله.

ولما كان الشيخ المطيعى يفتتح درسه بهاتين الآيتين من القرآن: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ و﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآيه، فقد أخذ الشيخ

الجعفرى هذا الاستهلال عن شيخه، فكان يفتتح به درسه أيضا اقتداء بشيخه المطيعى.

ومناقب الشيخ محمد بخيت المطيعى تتناثر هنا وهناك فى دروس الشيخ وفى كتبه، ومنها قوله:

"وبعد وفاته -رحمه الله- ظهر أشخاص ينادون بترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية، فوُجد عند الشيخ (المطيعى) ضمن كتبه رسالة سمّاها الشيخ [حجة الله على خليقته] قال فيها: ومن ترجم القرآن إلى اللغات بغير العربية فقد كفر ، لأن الله تعالى يقول: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ ويقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

۞۞۞

الشيخ حبيب الله الشنقيطى:

قال الشيخ عنه:

"شيخى حبيب الله الشنقيطى -رحمه الله- لقد شاهدت منه كرامات منها: أننى ذهبت إلى بيته بجوار القلعة ناويًا بقلبى أن أستأذنه فى أن أكون مقرئًا له متن حديث البخارى ومسلم، فلما وصلت البيت، وجلست بغرفة الاستقبال، وهى أول مرة أزوره بها، جاءنى متبسمًا، فلما سلمت عليه وقبلت يده، قال لى: "أنت الذى -إن شاء الله- ستكون سرادًا لى هذا العام" ومعنى "سرادًا": مقرئًا، والحمد لله قد لازمته إلى الممات، ونزلت قبره، ولحدته بيدى".

وقال أيضا:

"وكنت أقرأ للإخوان الحاضرين درسًا قبل حضوره بالمسجد

الحسينى، فإذا عارضنى إنسان أو شاغبنى يهمس لى فى أذنى عند جلوسه على الكرسى بقوله: "يعاكسونك وأنت خير منهم" كأنه كان معى، ثم يأتى فى درسه بكل موضع حرفت فيه شيئًا، أو ذكرته ناقصًا، كأنه كان جالسًا معى يسمع ما قلته وقد حصل ذلك منه مرات كثيرة، وكان إذا حصل له عذر يرسل لى تلميذًا أن اقرأ الدرس نيابة عن الشيخ".

"وفى يوم أرسل لى ورقة مكتوبة بخط يده فيها:- "قد وكلتك بقراءة الدرس" فتعجبت من ذلك: لماذا غير الشيخ عادته من المشافهة إلى المكاتبة؟ وما أشعر إلا ومدير المساجد قد حضر وأنا أقرأ الدرس، فسألنى: وهل وكّلك الشيخ؟ قلت: نعم، قال: وأين التوكيل؟ فقدمت له الورقة المرسلة من الشيخ، ففرح بها، ودعا لى بخير، فكانت هذه كرامة منه -رحمه الله تعالى- وغفر له وأسكنه فسيح الجنان، فإنه كان يحبنى كثيرًا ويقول لى أنت بركة الدرس، قد أجزتك بجميع إجازاتى ومؤلفاتى".

".. وقد لازمته خمس عشرة سنة، وكان يبدأ الحديث، فيغوص فى بحر التراجم وشرح الحديث، ويأتى بتفسير آيات قرآنية ومسائل فقهية وأصولية، وغير ذلك.

فقد كان يحفظ القرآن الكريم بالقراءات، ومعه بذلك إجازة من بلاده، وألف كتابا أسماه "تيسير العسير فى علوم التفسير" وله نظم فى القرآن بالقراءات السبع حلت من رموز الشيخ الشاطبى -رحمه الله- وله منظومة فى أدلة التوسل، وكان يقول: عليك بشرحى على زاد

المسلم فإننى ما تركت فيه شاذة ولا فاذة".

"وكان له حب عظيم لمولانا الشريف السيد أحمد بن إدريس – رضى الله عنه– ولذريته".

سمعت منه رحمه الله أعجوبة ذكرها فى أثناء درسه بالمسجد الحسينى فى شهر رمضان قال: "كنت معتكفًا بالمسجد النبوى فى العشر الأواخر من رمضان فخطر بقلبى مامنّ الله تعالى به على سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه من تسليمه ومصافحته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فدنوت من المقصورة النبوية وسلمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنشدته البيتين الذين أنشدهما سيدى أحمد الرفاعى فمدّ لى صلى الله عليه وآله وسلم يده الشريفة فقبلتها". أ هـ وهذه القصة ماسمعتها منه إلا فى العام الذى قبض فيه".

❋ ❋ ❋

لم يكن الشيخ الشنقيطى منكبًا على العلم والعبادة فحسب، ولكنه كان مهمومًا بأحوال الأمة، مشغولاً بشئونها، روى الشيخ الجعفرى عن شيخه الشنقيطى قوله:

"رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى النوم فقلت له ياأمير المؤمنين، أنت موجود والحال هكذا؟.. فقال لى بصوت عال فيه أثر الغضب: دعك من أصحاب هذا الزمن فإن الله تعالى لا يعبأ بهم، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر، ماذا أفعل".

توفى العلامة حبيب الله الشنقيطى رحمه الله فى شهر صفر ١٣٦٣هـ . وقد شهد الإمام الجعفرى رضى الله عنه وفاته، ودخل قبره، ولحده بيده.

۞۞۞

الشيخ يوسف الدجوى:

وقال عن شيخه الدجوى:

"وقد لازمت درسه بعد صلاة الصبح بالجامع الأزهر الشريف بالرواق العباسى سبع سنين، وكان السيد الحسن الإدريسى إذا جاء من السودان يلقانى فى درسه، وبعد الدرس يسلم على الشيخ فيفرح فرحًا عظيمًا، ويقول السيد أحمد بن إدريس قطب لا كالأقطاب، وكان الشيخ الدجوى قد أخذ الطريقة الإدريسية عن شيخى السيد محمد الشريف رضى الله عنه، والشيخ الدجوى من هيئة كبار علماء الأزهر، وله مؤلفات نافعة، ومقالات قيمة فى مجلة الأزهر الشريف، ولما نظمت المنظومة المسماة: البردة الحسنية الحسينية، أهديت إليه نسخة".

وقد حضرت عليه التفسير من سورة "محمد" صلى الله عليه وآله وسلم. إلى آخر سورة "الناس" ثم ابتدأ شرح البخارى بعده، وكان يحفظ القرآن العظيم بالتجويد والقراءات، ويذكر أقوال المفسرين. ويعرب الآية إعرابًا دقيقًا، ويبين الألفاظ اللغوية فيها، ويتعرض للأحكام الفقهية على المذاهب، وكان يقرأ الحديث بالسند، ويترجم لرجاله ترجمة طريفة، ويذكر أقوالاً كثيرة عن شراح الحديث. وكان له الباع الطويل فى مسائل التصوف، والانتصار للصوفية وله أبحاث كثيرة قيمة فى أدلة التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم، ذكر أكثرها فى مجلة الأزهر المسماه فى ذلك الوقت "نور الإسلام" فعليك بهذه المجلة لأجل أقوال هذا الشيخ فإنها نافعة. وكان رحمه الله مرة

يقرأ حديث سؤال القبر فى البخارى، وكنت ذاكرت شرح الكرمانى على البخارى، ورأيت فيه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم – يظهر للمسئول عند قول الملك له: "ما تقول فى هذا الرجل"؟ وبعد انتهاء الدرس قبلت يده، وقلت له: يقول الشيخ الكرمانى: إنه صلى الله عليه وآله وسلم يظهر للمسئول، فوكزنى فى صدرى وقال لى: أنا ذاكرت شرح الكرمانى، واطّلعت فيه على هذه المسئله، لماذا لم تذكرّنى فى الدرس حتى يسمعها منى الناس؟".

***

وكان مرة يتكلم عن رؤية النبى صلى الله عليه وآله وسلم –منامًا فقال: إن الشيطان لا يتمثل به صلى الله عليه وآله وسلم – إذا جاء فى صورته الأصلية والمعتمد أنه –أيضا– لايتمثل به فى غير صورته الأصلية، فقلت له: روى شيخنا السيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه فى كتابه المسمى "روح السنة" أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: "من رآنى فقد رآنى فإنى أظهر فى كل صورة". ففرح فرحًا عظيمًا وقال لى: – هذا الحديث هو الدليل على أن الشيطان لايتمثل به صلى الله عليه وآله وسلم. ولو جاء فى غير صورته الأصلية، أنت مبارك يا شيخ صالح، نفع الله بك المسلمين".

"وقد أنشدنا الشيخ الدجوى بدرس التفسير بالجامع الأزهر عام ١٣٦٠هـ:

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليـــس مؤانس وحبيب قلبى فى الفـؤاد أنيسى

وقد توفى العلامة الشيخ يوسف الدجوى -رحمه الله تعالى رحمة واسعة- فى ٥ صفر سنة ١٣٦٥هـ عن ثمان وسبعين سنة، أى بعد وفاة الشيخ حبيب الله الشنقيطى بسنتين".

۞۞۞

الشيخ على الشائب:

قال عنه الشيخ صالح:

"كان الشيخ على الشائب إذا دخل قبة سيدنا الحسين -رضى الله عنه- لا يتكلم مع أحد أبدًا، ويحصل له حال خشوع عجيب، كأنه يشاهده وينزل عليه عرق كثير، وكنت أدرس عليه أيضًا شرح ابن عقيل على ألفيه ابن مالك، وفى ليلة من الليالى رأيت النبى ﷺ، فى النوم وكان يحدثنى فى مسألة علمية أخطأت فيها، فغضب صلى الله عليه وآله وسلم وقال لى: "ياولد" وذلك من ضمن كلام يطول، فلما أصبحت وحضرت فى الدرس قلت فى نفسى وأنا جالس: يقول لى النبى ﷺ، ياولد فهل أنا صغير؟ فالتفت إلىّ الشيخ وهو يدرس وقال: إنما قلنا لك ياولد كعادة العرب لا لأنك صغير.

ومرة رأيت وجهه صار فى صورة عجيبة، وبلحية طويلة، ثم تحول إلى وجه آخر، فقلت فى نفسى، ما هذا؟ رد الشيخ علىّ وهو يدرس: هذا الوجه الذى رأيته هو وجه سيدنا الحسين -رضى الله عنه- والثانى وجه الإمام الليث -رضى الله عنه- ثم رجع إلى درسه،

إلى المكان الذى كان يقرأ فيه. وأمثال هذا الشيخ عند الصوفية يسمّوْن أرباب القلوب، ولعلهم يكونون المحدَّثين الذين منهم سيدنا عمر – رضى الله عنه– كما فى حديث البخارى".

***

ويمضى الشيخ فى ذكر شيوخه، فلا تخفى على السامع محبته وتوقيره وتعظيمه لهم، وهو دائما أبدًا يردد الحديث عنهم مرات ومرات فى دروسه وفى كتبه كأنه يتلذذ بذكرهم، ويقول مع القائل:

كرِّر علىَّ حديثهم ياحادى فحديثهم يروى الفؤاد الصَّادى

۞۞۞

رجال الأزهر:

وبعد.. فهذه نُبذ سريعة مما ذكره شيخنا الجعفرى عن بعض مشايخه بالأزهر الشريف، كنت أتمنى أن أضيف إليها بعض ما يزيد من معرفتنا بهم، ولكنى عجزت عن أن أجد ما يساعدنى على ذلك بسهولة، إذ لم أجد كتابًا يُستعان به فى طبقات علماء الأزهر، ولم أجد من له علم بوجود مثل هذا الكتاب الجامع.

وإن هذا مما يبعث على الدهشة. أيكون مثل الأزهر من يقع فى حقه مثل هذا التقصير فى أمة العلم والعلماء؟ والأزهر أعرق مؤسسة علمية على وجه الأرض، له من الفضل على أهل الإسلام فى الدنيا كلها مالا ينكره أحد، خرّج من العلماء العاملين، والهداة المهديين، والدعاة المخلصين مالم يتح لمكان غيره، ذهب إليه الطلاب من جميع أقطار الإسلام ليعودوا إليها بعد إتمام دراساتهم لينشروا فيها العلم الصحيح ويجمعوا الأمة على كلمة سواء.

لذلك حورب الأزهر فى مختلف العصور من المبتدعة وأعداء الإسلام، وتواطئوا

معًا فى محاولة تشويه صورته والحط من شأن رجاله وأعلامه..

كيف لم تعتنِ إدارات جامعة الأزهر المتعاقبة على إخراج مثل هذا المرجع المهم؟! وكيف لم يتوافر لهذا الأمر أحد من المخلصين يقوم بإنجازه كما أنجز المحبى والمرادى والبيطار جمع طبقات أعلام الأمة فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر الهجرية وغير ذلك من أعمال عظيمة وجليلة قام بها رجال فى شتى المجالات؟! حتى أن بعضهم كتب طبقات علماء مدينة بعينها مثل دمشق وغيرها.

لقد خرّج الأزهر رجالاً على مر العصور، لا نفتخر بهم فحسب، ولكن يمكننا أيضا أن ننتفع بهم كما انتفع بهم معاصروهم، فإن أهل الصدق يُنتفع بهم أمواتا كما انتُفِع بهم وهم أحياء، بل من العارفين من يجزم بأن النفع بهم بعد موتهم يكون أعظم، لأنهم وقد انتقلوا إلى الحياة البرزخية قد تخلصوا من معوقات المادة وسجن الجسد، وأصبحت أرواحهم حرة طليقة. لذلك قالوا: إن من كتب عن ولى مجهول فكأنما أحياه فى الناس.

اللهم وفق لهذا الأمر من يقوم به مخلصًا لك، واثقًا بك، واجزه عنه جزاءً يغبطه عليه الأولون والآخرون.

آمين.. آمين.. آمين..

۞۞۞

مشايخه فى الطريق:

نرجع مرة أخرى إلى رحاب شيخنا الإمام الجعفرى الحسينى الأزهرى رضى الله عنه فى حديثه الحميم عن مشايخه لنقول:

أما حديثه الذى لا ينقطع، تتردد أصداؤه فى صدره كما تتردّد بين جنبات الجبال الشامخة، فهو حديثه عن مشايخه فى الطريق، من كان لهم الفضل فى تربيته وإرشاده قبل أن يجيىء إلى الأزهر، وظل يعيش فى كنفهم و يستمد من أنوارهم طوال حياته، لا يترك

مناسبة إلا ذكرهم بأعطر الذكر واعترف بجميل فضلهم عليه.

فى كتابه"الإلهام النافع" ذكر الشيخ قصة من قصص التربية فقال:

"سمعت حكاية عن بعض العلماء أن تلميذًا للشيخ (أبى حامد) الغزالى رضى الله عنه صار يدرس بالبلد التى بها شيخه، فحدثته نفسه بالخروج من تلك البلدة وأنه استغنى عن الشيخ. فركب السفينة وسافر، ففى وسط البحر اضطربت الأمواج وتحركت السفينة، فقال للبحر: اسكن يا بحر إنما عليك بحر مثلك.

فمدت إليه سمكة من البحر رأسها وقالت له: يا أيها البحر ما قولك فى رجل مسخ هل تعتد زوجته عدة وفاة أم عدة طلاق؟

فسكت ولم يجب بشىء، وقال لملاح السفينة: رد السفينة إلى حيث بدأنا السير، فرجع إلى الشيخ الغزالى، فقال له: ما الذى ردك من سفرك؟ قال: سؤال سُئلته.

ثم ذكر له سؤال السمكة، فقال له الشيخ الغزالى:

ننظر فيه إن كان مُسخ حجرا اعتدت زوجته عدة وفاة. وإن كان مُسخ حيوانا آخر اعتدت عدة طلاق.

فرجع التلميذ، فلما وصل المكان من البحر خرجت له السمكة، فقال لها الجواب الذى سمعه من شيخه، فقالت له السمكة: "ذاك البحر لاأنت"أهـ.

ثم يعلق شيخنا على هذه القصة فيقول فى تواضع الأولياء وإخبات العارفين:

"وهكذا إن شاء الله كلما وقفت فكرتى رددت سفينتى حتى يقال

لى: ذاك من الشيخ لا منك".

فمن شيخه الذى استمد منه الفيوضات والأنوار؟

۞۞۞

قطب الزمان ومنهل العرفان

سيدى أحمد بن إدريس:

الإمام الذى جمع علمى الظاهر والباطن، شيخ المشايخ القطب الربانى صاحب الأحوال الشريفة، والمقامات المنيفة، حجة العارفين وقدوة السالكين وبقية السلف الصالحين سيدى أحمد بن إدريس الحسنى نسبًا، المغربى مولدًا، من ذرية السادة الأدارسة بالمغرب.

حفظ القرآن صغيرًا، وكثيرًا من المتون، ونال قسطًا وافرًا من العلوم حتى بلغ العشرين من عمره فانتقل إلى فاس ليلتحق بجامع القرويين فى طلب العلم، وكان كثير الرحلة فى طلب المشايخ الكبار إلى أن جمعه الله على شيخه وأستاذه العارف بالله الشيخ عبد الوهاب التازى الذى تم أمره على يديه. وكان قد كبر سنه، وكان أحيانا يقول بين تلامذته امتحانا لهم: وددنا لو أن أحدًا جاء لنا بفاكهة بلد كذا. فيقول بعض الحاضرين: كبر سن الشيخ فيتكلم بمثل هذا. لكن السيد أحمد يأخذ كلام الشيخ مأخذ الجد، فيقوم ويتهيأ ويتزود للسفر حالاً، ثم يأتى لوداع الشيخ قائلا: يا سيدى إنى مسافر لذلك. فإذا قبل يده قال له سرًّا فى أذنه: يا أحمد أمرنا كله جد. من أعطى الجد يُعط الجد.

وكان الشيخ عبد الوهاب ممن لا يظهر حاله، وكان أحيانا يحضر درس السيد أحمد بن إدريس قبل اجتماعه عليه، وكان يعجب ببلاغته وقوة صوته. فلما اجتمع به وتتلمذ

عليه لازمه وكان لا يرفع صوته أمامه أدبًا، فكان الشيخ التازى يقول له أحيانا: أين تلك الهدرة يا أحمد، ويعنى بذلك نبرات صوته القوية عندما كان يدرس ببلدة "تازة".

بعد وفاة شيخه التازى سعى إلى غيره؛ فذهب إلى الشيخ أبى القاسم الوزير، ولكن صحبته له لم تطل إذ توفى أيضا، وراح السيد أحمد يبحث عمن يصاحبه من المشايخ، ورحل فى سبيل ذلك إلى المشرق..

قال: "مما وجدت من المنفعة فى خدمة المشايخ كان لى حرص عظيم، وكنت أظن أنى لا أنقطع أبدًا عن صحبة واحد بعد واحد، حتى قيل لى من الحضرة الإلهية: لم يبق على وجه الأرض أحد تنتفع منه إلا القرآن. فجلست سنين عديدة لا أشتغل بشىء غير القرآن العظيم. ثم آخى رسول الله ﷺ بينى وبين القرآن وقال: أبدلك ما فيه من العلوم والأسرار (فى المنتقى النفيس، وكذا عند التليدى: أبدله ما فيك من العلوم والأسرار)".

فكان رضى الله عنه إذا سئل عن آية من القرآن العظيم يأتى من الحقائق من معانيه ودقائقه ما يبهر العقول وتعجز دونه الأفكار والنقول..

***

قال رضى الله عنه:

"اجتمعت بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم اجتماعًا صوريًّا ومعه الخضر عليه السلام، فأمر النبى ﷺ الخضر أن يلقننى أذكار الطريقة الشاذلية، فلقننى إياها بحضرته، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم للخضر عليه السلام: يا خضر لقنه ما كان جامعا لسائر الأذكار والصلوات والاستغفار، وأفضل ثوابا وأكثر عددًا فقال: أى شىء هو

يا – رسول الله؟ فقال: قل(لا إله إلا الله محمد رسول الله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله) فقالها وقلتها بعدهما، وكررها صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثا ثم قال: قل: (اللهم إنى أسألك بنور وجه الله العظيم) إلى آخر الصلاة العظيمية: ثم قال له قل: (أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم غفار الذنوب ذا الجلال والإكرام) إلى آخر الاستغفار الكبير، فقلت بعدهما وقد كسيت أنوارًا وقوة محمدية، ورزقت عيونا إلهية، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا أحمد قد أعطيتك مفاتيح السموات والأرض، وهى الذكر المخصوص والصلاة العظيمية والاستغفار الكبير المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والآخرة، وما فيهما أضعافا مضاعفة. ثم لقنها لى صلى الله عليه وآله وسلم من غير واسطة، فصرت ألقن المريدين كما لقّننى به صلى الله عليه وآله وسلم، ومرة قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله. خزنتُها لك يا أحمد، ما سبقك بها أحد، علِّمها أصحابك يسبقون بها).

وكان رضى الله عنه يقول: "أملى علىَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأحزاب من لفظه، حتى استشكل بعض أصحابه من العلماء مرة كلمة فى الحزب الخامس. فقال: يا أخانا هكذا قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم".

لذلك كان رضى الله عنه يقول: أخذنا العلم من أفواه الرجال كما تأخذون، ثم عرضناه على الله والرسول فما أثبته أثبتناه، وما نفاه نفيناه.. يا ويلى يوم العرض على الله إن غيرت أو بدلت.

***

مر السيد أحمد فى رحلته إلى الشرق ببلاد شمال أفريقيا ومصر، ثم استقر بمكة حيث أقام بها نحوا من ثلاثين سنة ناشرا العلم والهدى والنور، ثم رحل بعدها إلى اليمن فاستوطن "صبيا" بقية عمره بعد أن كانت طريقته قد انتشرت فى بقاع الأرض، وأخذ عنه أكابر الشيوخ منهم من كوّنوا طرقًا صوفية مستقلة نفع الله بها خلقًا لا يحصون، منهم الشيخ محمد بن على السنوسى، والشيخ محمد عثمان الميرغنى، والشيخ إبراهيم الرشيد، والشيخ محمد ظافر المدنى..

قال الكوهن فى طبقات الشاذلية:

"وكراماته تجل عن الحصر، ولا تحويها الأوراق، فهو بحر تلاطمت أمواجه، فعنه حدث ولا حرج، ولا يخفى على من يطالع أحزابه وكلامه عظيم قدره ومكانته. وله مؤلفات نفيسة تشهد بفضله، منها "العقد النفيس" و "رسالة القواعد"، "أحزابه وصلواته" رضى الله عنه. توفى -رحمه الله- ليلة السبت واحد وعشرين رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف بصبيا، ومقامه يُزار، تقصده بلاد الإسلام قاطبة من كل ناحية، وتشد إليه الرحال من سائر الآفاق".

***

لم يلتق سيدى صالح الجعفرى بشيخه سيدى أحمد بن إدريس لقاء الأجسام، ولكن لقاء الأرواح، واستمد من مدده المتصل فى ولده سيدى عبد العالى الإدريسى ثم فى ابنه سيدى محمد الشريف الذى التقى به شيخنا فى صباه بمسجد دنقلا بالسودان كما رأينا سابقًا.

عن هذه العلاقة الروحية قال:

وشيخى هو ابن إدريس بحر موارد ... جليسى أنيسى بل إمامى وقدوتى

فإن غاب عن عينى فما غاب حبه ... وما غاب عن روحى ولا عن بصيرتى

عليه رضاء الله ثم أمانه ... وروح وريحان وأزكى تحية

وآل وأصحاب وكل من انتمى ... إلى ورده السامى لدى كل أمة

***

بيَّن الشيخ معالم الطريق الذى رسمه القطب الكبير سيدى أحمد بن إدريس والذى سوف يسير عليه ويلتزمه فيما بعد فقال:

"وقد كان شيخنا السيد أحمد بن إدريس -رضى الله عنه- طالبًا للعلم من صغره بعد أن حفظ القرآن، وكان يسافر إلى العلماء، ويتغرّب من أجل طلب العلم، فلما أراد الله أن يُظهره أظهره بالعلم فى عهد العلماء الأكابر".

وشرح الشيخ فى أجمل عبارة وأقربها كيف تتم الوراثة بين الأولياء والعارفين فقال:

"إذا سلكت طريق شيخ وكنت محبًا له انتقل حاله الذى كان فى الدنيا عليه إليك، بمعنى أن روحك تعمل مثل عمله، فإن كان عالما مالت إلى العلم، وإن كان فى خلوة مالت إلى الخلوة، وإن كان فى عزلة مالت إلى العزلة، وإن كان فى جذب مالت إلى الجذب، وإن كان فى

تلاوة قرآن وتدريس علم مالت الروح إلى ذلك حتى تكون فى الدنيا
حياته كحياة شيخه، وهذا يسمى مقام الوراثة يتأتى بالمحبة وتلاوة
الأوراد واقتفاء أثر الشيخ، وكل شىء كان الشيخ فى حياته لا يفعله
فإنه اليوم فى برزخه لا يحبه ولا يحب فاعله، نعوذ بالله من ذلك".

فلقد تحقق لشيخنا الجعفرى مقام الوراثة من شيخه سيدى أحمد بن إدريس، وطريقته الجعفرية التى سعدت بها أرض مصر هى نهر متدفق من بحيرة ابن إدريس التى تفجرّت منها الأنهر فملأت البلاد خضرة وثمارًا.

لذلك يمكننا القول: بأن الطرق التى تفرعت عن القطب الكبير والموجودة إلى يومنا هذا هى - تقريبا: الطريقة السنوسية لمؤسسها سيدى محمد بن على السنوسى والطريقة الميرغنية لمؤسسها سيدى محمد عثمان الميرغنى والطريقة الرشيدية (وما تفرع عنها) لمؤسسها سيدى إبراهيم الرشيد، والطريقة المدنيه لمؤسسها سيدى محمد ظافر المدنى، والطريقة الأهدلية لمؤسسها سيدى سليمان الأهدل، والطريقة الجعفرية لمؤسسها سيدى صالح الجعفرى رضى الله عنهم أجمعين.

***

عندما بلغ الشيخ نبأ وفاة والده، كتب رسالة يخاطب بها روحه فى البرازخ، يبشر فيها أباه بأجمل البشريات، ويذكره بما ناله من أفضال بلقياه لبعض السادة الأدارسة، متخذًا من تلك المناسبة فرصة للثناء على مشايخه وتبيين فضائلهم، إنها رسالة كريمة جليلة، ما أجمل أن نقرأها معه فكم من الفوائد سوف نجدها فى طياتها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله
فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله، أيها السيد الوالد الحاج
محمد صالح محمد الجعفرى السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فى عالم

برزخك، وفى روضتك، حيث تسمع وترى، وتبصر مالا نرى، أسلِّم عليك من قلب حزين، برحمة الله يود رؤيتك، ولكن الحكم لله، فإذا حجبت عن بصرى، فلم تحجب عن بصيرتى، وإذا غبت عن المكان، فلم تغب عن الجنان، قد منّ الله عليك بنعمة عظيمة، ووهبك حياة طيبة كريمة، واليوم أنت فى ضيافة الكريم الأكرم فى راحة تامة، ونعيم أعظم، وقد منّ الله عليك بشىء لم تنله بلسانك ولا بيديك، وهو اتصالك بمن أنت منهم، وهم أجدادك الجعافرة فهنيئا لك اليوم بمجاورتك لتلك الأرواح النقية الطاهرة، ولقد كنت تمشى على آثارهم فى حياتك، واليوم تفرح بلقائهم بعد مماتك، ولقد أخبرتنى أنك ووالدك كنتما تجلسان لسماع دروس بحر العلوم المتلاطمة أمواجها والشمس التى أضاءت قلوب الأحبة بسراجها، الزاهد التقى والشريف الولى السيد عبد المتعال الإدريسى -رضى الله عنه- فهنيئا ياوالدى، فلطالما تمتع نظرك بالنظر إلى ذلك الوجه البراق، وتشنَّف سمعك بذلك العلم الترياق، الذى تلقاه السيد عبد المتعال عن شيخه الفاضل المفضال، علامة الزمان، وفريد الأوان، ذى الأنوار الباهرة، والعلوم الظاهرة والعبادة والمجاهدات، والمواعظ والإرشادات، الحافظ المتقن لما يرويه، والفقيه المحقق لما يحكيه، الذى سار على قدم شيخه ولم يخالف قيد شعرة والذى أعطى شيخه حقه من الإجلال وعرف قدره، السيد محمد بن على السنوسى الإدريسى وهو قد تلقى عن شيخه: شيخ الشيوخ الأكابر، والإمام فى علمى الباطن والظاهر، شيخ الطريقة، وعالم الحقيقة، عالم الأسانيد ومفتاح

الاجتهاد والتقليد، عالم الفنون الغريبة، مظهر الأسرار العجيبة، تالى الأحاديث بالأسانيد والروايات، المؤيد من عند الله بالنصر والكرامات الذى علمه نافع لكل سامع، فمن ذاق منه قطرة صار وليا، والذى نظره ترياق للقلوب، فمن نظر إليه صار بإذن الله تقيًا، المجاهد الهمام، والعارف الإمام، السيد أحمد بن إدريس، ذو الأفعال الأحمدية، والأخلاق المرضية فهنيئًا لك يا والدى بهذا الاتصال، وبسماعك ونظرك للسيد عبد المتعال وبذلك تعتبر من الإخوان السنوسية، الذين بشّرهم ابن السنوسى بكل خير، ومن أعظم ما بشرهم به أن شيخه أخبره أن رسول الله ﷺ، أخبره أن من يأخذ طريقه يتولى تربية روحه النبى ﷺ ولذلك يقال لها: الطريقة المحمدية، وأن صاحبها يكون متمسكا غاية التمسك بمتابعته ﷺ.

فهنيئًا لك ياوالدى، لأنك صحبت البحر الذى تلاطمت أمواجه واتسعت فجاجه، قطب الأولياء، وإمام الأصفياء، الذى تحيرت أمام أحواله الأكابر، وظهرت كراماته لكل برًّ وفاجر".

۞۞۞

سيدى محمد الشريف:

ابن سيدى عبد العالى بن سيدى أحمد بن إدريس، وقد مر بنا من قبل حديث الشيخ الجعفرى عنه، والآن يزيدنا به معرفة حين يقول:

"ومما منَّ الله به علىّ أن شيخى قطب أهل الوصال السيد محمد عبد العالى قد حضر درسى بالأزهر الشريف وأظهر كرامة وهى: كنت وأنا صغير إذا سلمت عليه بالبلد يقول: "أهلا شيخنا" ومرة

سلمت عليه ومعى مشايخى فسلم عليهم وعلىّ، فلما رجعنا قال لى أحد مشايخى: لماذا السيد يقول لك: أهلا شيخنا. ونحن مشايخك لا يقول لنا هذه الجملة؟ فقلت: الله أعلم.فلما أتيت الأزهر الشريف، وكان حضورى إلى الأزهر بأمر والده سيدى عبد العالى بطريق الإشارة، ومنه رضى الله تعالى عنهما بطريق العبارة، وبعد أن مكثت بالأزهر سبع سنوات حضر سيدى محمد الشريف بدرسى يوم الجمعة، وكنت أفسر سورة الكوثر والناس يزدحمون ما بين جالس وواقف، فلما حضر قال: من هذا؟ قالوا له: هذا الشيخ صالح. قال: صالح ابنى؟! صالح تلميذى؟! قالوا: نعم. فأخذه حال وفرح عظيم رضى الله تعالى عنه.

فلما انتهى الدرس قلت: يا أيها الإخوان إن شيخى قد حضر فقوموا جميعا وسلموا عليه. فلما سلمت عليه وقبلت يده تبسم وقال: "أهلا شيخنا" فتذكرت كلمته التى كان يقولها لى سابقا.

وقد استبشرت روحى بحضوره عند تفسيرى هذه السورة، وأخذت منها البشرى بكثرة الخير وكثرة الحج وقطع دابر أعدائى.

ولشيخى هذا أسرار وكرامات ونفحات وعجائب وغرائب، سره مكتوم وأمره معلوم، ظاهره باطن وباطنه ظاهر، له سيف قاطع ونور ساطع، قد ورث عن جده ووالده أحوالا، ونال من بركاتهما منالا، كان مرة يمشى خلف والده ببلدة دنقلا بالسودان، والناس يزدحمون عليه بالإقبال والإجلال فحدثته نفسه هل أنا إذا بلغت عمر والدى هذا يكون لى من الاحترام والإكرام ما حصل له؟ فالتفت إليه

والده سيدى عبد العالى رضى الله تعالى عنه وقال له: "وأكثر من هذا يا محمد" فكان كما قال، والحمد لله تعالى على كل حال، والصلاة والسلام على النبى وعلى جميع الأصحاب والآل.

وحكى عنه – أيضا – هذه الحكاية:

"كنت مرة جالسًا عنده بسفينة بمصر عند زيارته الأخيرة لها وكان مريضا، فقلت فى نفسى: ما هذا المرض؟ سبحان الله! فرفع رأسه وقال بصوت مرتفع: ابتلاء يا ابنى.

وهكذا كان نداؤه لى حتى فى البلد إما أن يقول: يا شيخنا، وإما أن يقول يا ابنى".

۞۞۞

علومـه وأعماله:

حصّل الشيخ صالح علومًا كثيرة، وتفوق فيها، وبثها فى دروسه أكثر مما بثها فى صفحات الكتب، لأنه مربٍّ اهتم بتربية الأرواح وإصلاح النفوس، ودعوة العباد إلى رب العباد.

ومع ذلك فقد جمع أصحابه ما خلف من تراث فى مكتبة كاملة اشتملت على الكثير الطيب مما ينفع الناس، منها:

١. ديوان الجعفرى، صدر منه اثنا عشر جزءًا.
٢. فتح وفيض وفضل من الله.
٣. المعانى الرقيقة على الدرر الدقيقة.
٤. أسرار الصيام.
٥. الإلهام النافع لكل قاصد.

٦. البردة الحسنية الحسينية.

٧. روضة القلوب والأرواح.

٨. جالبة الفرج.

٩. المدائح المقبولة.

١٠. السيرة النبوية المحمدية.

١١. الذخيرة المعجلة للأرواح المعطلة.

١٢. المنتقى النفيس من مناقب سيدى أحمد بن إدريس.

١٣. النفحات الكبرى.

١٤. أعطار أزهار أغصان حظيرة التقديس.

١٥. مفاتح كنوز السموات والأرض.

١٦. الصلوات الجعفرية.

١٧. منبر الأزهر يترجم عن نعمة الله على آل جعفر "خطب".

١٨. الحكم والفوائد الجعفرية.

١٩. كنز السعادة.

٢٠. مفيدة العوام.

٢١. دعوات الفرج السريع.

٢٢. مفرحة الفؤاد.

٢٣. مفرحة الأرواح.

٢٤. لآلىء البحار.

٢٥. الأربعين الجعفرية.

٢٦. القصيدة الرائية.

٢٧. القصدية التائية.

٢٨. نظم الآجرومية فى علم العربية.

٢٩. القصيدة الميسورة فى علم الميراث.

٣٠. جلت عظمتك.

٣١. رسالة فى الحج والعمرة.

٣٢. الأوراد الجعفرية.

٣٣. دروس الجمعة بالأزهر الشريف.

وله –أيضا– فضل فى نشر تراث شيخه سيدى أحمد بن إدريس وتحقيقه وطبعه والتعريف به وبطريقته فكان من ذلك:

١. لوامع البروق النورانية.

٢. كيمياء اليقين.

٣. شهد مشاهدة الأرواح التقية.

٤. نصر الله بالالهامات العلمية.

٥. الفيوضات الربانية.

٦. شرح الصدور بإذن اللطيف الخبير.

٧. رسالة القواعد.

٨. كنـز السعادة.

٩. العقد النفيس.

۞۞۞

طريقة السلف:

كان -رضى الله عنه- فى حياته وأعماله - أشبه الناس بسلفنا الصالح، ونهج نهجهم -أيضا- فى نظم المسائل العلمية فى أبيات من الشعر حتى يسهل على الطلاب حفظها، وهى الطريقة التى تدل على تبحره فى العلوم وتمكنه من أداة الشعر، من أمثلة ذلك ما قاله فى شرح حديث من أحاديث النبى ﷺ فى "المنتقى النفيس" حيث قال:

"قال عليه الصلاة والسلام: "إنَّ الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء".

مروى عن أوس بن أوس من حديث طويل أخرجه أبو داود، والإمام أحمد والنسائى، وابن ماجه، والدارمى، والبيهقى فى كتاب الدعوات الكبير، وابن خزيمة، وابن حبَّان فى صحيحه، والطبرانى فى الكبير، وسعيد بن منصور فى سننه، وابن أبى شيبة والحاكم وصححه، وأيضًا صححه النووى – رحمهم الله أجمعين.

وقد نظمت بفضل ربى المخرّجين لهذا الحديث لكثرتهم ليسهل حفظهم:

تحريم أكل الأرض جسما للنبى   قد قاله المختار خيرُ العـــرب

أخرجه عشـــر كذاك اثنــان   من سادة الحديث والإتقـــانِ

وهم إمامنا أحمد والنســائى   كذاك ابن حبان بلا افتـــراءِ

كذا أبو داود نعـــم المرتقى   والحاكم المشهور ثم البيهقـــى

والطبـــرانى لدى الكبيـــر   ثم ابن ماجه عالم

نحـــرير

وابن خزيمـــة كذا سعيـــد فى سنـــن أقوالـهـــا تفيـــد

وابن أبى شيبة ثم الـدارمـى فاحفظ حديث الفضل للأكارم

❋ ❋ ❋

ومثال ثان الأرجوزة التى نظمها فى علم التوحيد وأسماها "مفيدة العوام" وقال فى شأنها:

"قال العلماء إن علم التوحيد واجب عينى على كل فرد: رجل وامرأة، ويكون الإنسان بتركه عاصيا، وقد وفقنى الله تعالى إلى منظومة صغيرة جامعة لمسائل التوحيد، فعلى كل مريد أن يجتهد فى حفظها.

ويزيدنا الشيخ بيانا بأهمية هذا العلم، وسبب نظمه لقواعده فى قصيدة فيقول:

"ولما كان الشيطان يوسوس بأشياء لا يقبلها الشرع لمن كمل إيمانه أردت بقراءة علم التوحيد أن يستطيع المريد أن يدفع شبه الشيطان ووساوسه، فهو علم نافع، وشيح للوساوس قاطع، وبه يكون الثبات فى الحياة الدنيا والآخرة".

تنتظم القصيدة ثمانية وخمسين بيتًا نقلتها بكاملها لما أرجوه منها من نفع فى زماننا الذى تشوشت فيه القلوب بانتشار عقائد المشبهة والمجسمة من خلعوا على الخالق صفات المخلوق، والذين ينقصون من قدر النبى ﷺ ويبغضون أهل البيت وأولياء الله الصالحين. ولقد اهتم أئمة أهل السنة والجماعة عبر العصور ببيان عقيدة أهل السنة لأنهم قالوا: "اعرف الحق تعرف رجاله". فليس كل داع يجب اتباعه. قد يكون الداعى

من أطلق الناس لسانا، وأقواهم حجة وأكثرهم نشاطًا فى نشر دعوته وأعظمهم قدرة على اجتذاب الناس، ولكنه يقودهم إلى النار لأنه يدعوهم إلى غير ما بعث به نبينا محمد ﷺ.

وشيخنا الإمام الجعفرى يبين فى هذه المنظومة ما يجب فى حق الله، وما يستحيل فى حقه –تعالى– وكذلك ما يجب وما يستحيل وما يجوز فى حق رسله عليهم الصلاة والسلام – حتى يكون المسلم على بينة من أمره فى هذه المسائل الشائكة الخطيرة.

مفيدة العوام

يقول راجى رحمة الرب العلى ... الجعفرى صالح نسل الولى

الجعفرى ساكن الجنان ... معلم للعلم والقرآن

الحمد لله على التوحيد ... ننجو به من ربقة الترديد

ثم الصلاة بالسلام السرمدى ... على النبى المصطفى محمد

وآله أهل التقى والطهر ... ألقى بها النجاة يوم الحشر

وبعد فالعلم بذا التوحيد ... فرضٌ محتمٌ على العبيد

وهذه أرجوزة صغيرة ... لكنها فى علمها كبيرة

سميتها مفيدة أرجو بها موائد
العوام الإكرام
وأسأل الله الكريم قبولها فى البدو
البارى والأمصار
ونفع حافظ لها وافتح لهم خزائن
وقارى الأسرار
أرجو بها القبول واليسر والتوفيق
والسعادة والإفادة
ودفع حاسد وما يا حى يا قيوم يا
يريد مريد
قد أوجب الله على الإنسان معرفة المهيمن
الديان
فواجب معرفة لما فى حقه والمستحيل فاحتسب
يجب
وما يجوز إن عرفت ومثل ذا لرسله
فالزم فحتم
فواجب فى حقه كل كمال قد أتى
تعالى إجمالا
ويستحيل ضده من المصير راجع
عليه إليه
وواجب فى حقه جل الإله الواحد

الوجود   المعبود

والقدم البقاء   مخالف لخلقه

للقدير   الكثير

قيامه بنفسه   أوجب له كذاك

العلية   وحدانية

وقدرة إرادة   كذا الحياة قد أتانا

والعلم   العلم

سمع له   سبحانه مقدس

وبصر كلام   علام

وهذه الصفات سبع قد   وبالمعانى عندهم قد

أتت   علمت

ومعنوية له   سبع صفات فاحذر

تعالى   الجدالا

ككونه جل عن   أى قادرًا فى غاية

التشبيه   التنزيه

جل المريد عالم   حى سميع خالق

الأشياء   الأفياء

وهو البصير فى دجى   متكلم وصادق

الظلماء   الأنباء

ويستحيل ضد ذى   على الجليل منزل

الصفات   الآيات

العدم الحدوث مماثل للخلق لا
والفناء يجاء

كذا احتياجه إلى كذا تعدد له
سواه يأباه

فى الذات والصفات جل إله العرش عن
والأفعال مثال

عجز كراهة كذاك وموته وصمم ذا
الجهل نقل

كذا العمى وبكم عن الإله وهو
منفى العلى

وفعل ممكن عليه أو تركه ومن دراه
جازا فازا

فواجب فى حق رسل الصدق فى الأقوال
البارى والأخبار

أمانة تبليغهم والكل معصوم له
فطانه صيانه

ويستحيل كذب كذاك كتمان فخذ
خيانه بيانه

كتمانهم شيئا من كذا بلادة لدى
الأحكام الأحلام

وجائز فى حقهم والأكل والشراب عند

كالنوم القوم

وهذه الخمسون واجب على كل الأنام فهمها على الولا

تنبيك عنها كلمة التوحيد فلا تكن فى الأمر ذا ترديد

يا سعد من بذكرها يوالى يحيى بها الأيام و الليالى

فذا موفق كذا سعيد قد جاءه الفتوح والتأييد

لا سيما للذكر بالاثنين فلازم الذكر بكل أين

تقول لا إله إلا الله محمد أرسله الإله

فالمصطفى وسيلة القبول أكرم به من صادق رسول

بغيره إيماننا لا يقبل ومن قلاه كافر مجندل

والحمد لله على التمام ثم صلاة الله بالسلام

على نبى جاء بالأحكام ورسل أفاضل كرام

ما الجعفرى سأل المجيبـــا	فتح الهـــدى ميســـرًا قريبا
كذاك للأصحاب والأحبـــاب	من خـــالق مدبر وهـــاب
فإن أردت حفظها توســـل	بأحمـــد نبينـــا المفضـــل
عساك أن تحفظ ما نظمتـــه	من درر التوحيـــد قد بينتـــه
بنوره تهدى إلى الرشـــاد	فإنـــه وسيلة العبـــاد
وبالصـــلاة دائمـا عليـــه	إن شاء ربى واصـــلاً لديـــه
وتم نظمها ببعـــض ليلـــه	بالأزهر الشريف يوم الجمعـــة
سألت مـــولاى لكل قـــارى	لنظمها سعـــادة الأخيـــار
كذاك خـــتم الخـــير للجميـع	من غير تفـــريق ولا تضييـــع
أبياتها خمســـون مع ثمانـيه	من فضل ربى نظمها أتى ليـــه

* * *

ومثال ثالث وضعه لقواعد النحو فى قصيدة وهى المعروفة "بنظم الأجرومية فى علم العربية" التى يقول فى مطلعها:

يقـــــول راجى رحمـــة العلى أى صالح المشـــــــهور بالمدنىّ
الحمد لله وصـلى على نبىٍّ خــــافض البــــــارى الكفـــــــارِ
وبعد فالنحو هو لكل عـــــــالم له السنـــــــانُ بيــــــــانُ
وهذه أرجـــــوزة قد وضحت لنحـونا مباركــــــة مســــالكه
سميتها مفيدة جامعة لأوضـــح الإخــــــوان المعـــــانى

۞۞۞

الزاهد

لو حظيت بزيارة الشيخ فى مقامه المنيف بمسجده بالدراسة، لوجدت غرفة صغيرة ملحقة بالغرفة التى بها قبره. فى هذه الغرفة ترى بعض آثار الشيخ: مسبحته وعمامته وملابسه وحذاءه وعكازه ودورق الوضوء وسجادة الصلاة وزجاجات عطر وسرير حديدى غاية فى التواضع.. آثار قليلة فقيرة تنبى عن صاحبها؛ هذا ما خلف هذا الرجل الكبير والإمام العظيم غير مكتبته ومؤلفاته.. هذا ما ترك من الدنيا.. عبرة لطالبيها واللاهثين وراء سرابها.

نعم، لقد كان –رضى الله عنه– زاهدًا فى الدنيا فعلاً لا قولاً.. نفض منها قلبه كما

ينفض أحدنا التراب عن ثوبه. وفى ذلك يقول:

"ولقد نفضنا قلبنا منها نفض القديد، ذهبها عندى كالحديد إن شاء الله تعالى. لا أغتر بها كمن غرّتهم، ولا اشتغل بها كمن شغلتهم، فما سُر ظهر لمن إليها نظر، ولا كشف الحجب لمن طلب فيها الرتب".

يقول الدكتور محمد عبد الدايم الجندى مؤلف كتاب "الشيخ صالح الجعفرى حياته وجهوده فى الحياة الروحية".

"إن الشيخ عاش فى غرفة خشبية ضيقة برواق المغاربة بالجامع الأزهر الشريف إذ قضى به خمسين عامًا من عمره، وكان رغم مكانته العلمية يحرصُ على مشاركة الخدم بالجامع الأزهر الشريف فى أعمال النظافة ويحيا حياة البساطة والشظف، فلا يزيد طعامه المعتاد على قطعة من الجبن وكسرة من الخبز".

ويقول نقلاً عن الدكتور محمد رجب البيومى فى مقال له عن الشيخ بمجلة الأزهر سنة ١٩٧٩:

"كان للشيخ -الجعفرى- أتباع من كبار الموسرين يعرضون عليه الإقامة فى الشقق الفاخرة، ويرون فى تنوع مجرى حياته وسيلة إلى استبقاء صحته، ولكنه كان يتخذ من هذا العرض الودود سببا إلى موعظة حسنة فى الدرس إذ يشرح حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم، ثم ينتقل إلى سير الصحابة الأعلام.. مرددًا قول الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه:

يا دنيا غرى غيرى إلىَّ تعرضت؟ أم إلىَّ تشوفت؟ هيهات

هيهات! قد باينتك ثلاثًا، لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وأثرك حقير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

وكان أتباعه من عشرات الموسرين فى شتى ممالك الإسلام يرسلون إليه الهدايا الثمينة فى كل موسم، فكان يدفع بها إلى أحد معارفه من كبار التجار بالقاهرة، ويطلب منه أن يشتريها بثمنها الحقيقى، وأن يستبدل به أقمشة متواضعة متينة، ويعلمه عدد الأمتار، فإذا تم ذلك أخذ الشيخ يستعرض المحتاجين من روَّاد مدرسته وعشاق موعظته ليعطى كلا منهم كوبونًا ممهورا باسمه، وبه مبلغ من الأمتار يحدده الشيخ وفق ما يتلقاه من إجابة مريده الفقير عن أسرته وصفتهم من الأنوثة والذكورة، ثم يبعث به إلى صديقه التاجر ليأخذ ما يحتاج من الرصيد المدَّخر".

***

لم يكتف الشيخ بإبراز قيمة الزهد فى حياته وغدوه ورواحه بين مريديه وعامة الناس، ولكنه نبه إليه وحرض عليه فى كثير من قصائده مثل قوله:

ازهد لكل مفارق من قبـــل أن   تلقاه فارق فالبقا للبـاقى

لاسيما الدنيا كظـــل يـا فـــتى   تلقاه قد ولَّى بغير تلاقى

كم من غرور قد رآها جنــة   فأرته ذل الهُون بالإمـلاق

وترى القنوع بها أراح فــــؤاده   لما اكتفى بموائد الرزاق

فأزهد تجد قلبا لديك   هذا النعيم لكل قلب راق

منعمـــا

۞۞۞

مقامات الطالبين

تكلم العارفون عن منازل السالكين إلى الله، المتوجهين إليه كالزهد والورع واليقين وهكذا.. ذكر الإمام القشيرى فى "الرسالة" نحوا من أربعين منزلاً ومقامًا، وربما زاد عددها عن ذلك أو نقص عند غيره من العارفين، ولكنهم جميعا اتفقوا على أن أولها جميعًا هو التوبة.

فالتوبة -كما قال الإمام القشيرى- هى أول منزلة من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين.

وشيخنا الجعفرى تناول هذه المقامات كلها تقريبا.. تكلم عنها فى دروسه وخطبه، وكتب عنها فى كتاباته وذكرها فى قصائده، فهو شيخ التربية الذى ربى السالكين، والداعى إلى الله الذى انفق حياته فى دلالة الناس والأخذ بأيديهم إلى ما يقربهم إليه.

* * *

وها هو ذا حديثه عن التوبة نقلاً عن كتاب الدكتور الجندى باختصار وتصرف وتقديم وتأخير:

قال الشيخ:

تُب إن أردْت محبـــــة الغفـار ... فالله يغفـرُ ســـائـر الأوزارِ

ماخاب من قَصَد المُهيمـــن تائبًا ... ينجو بتوبته من الأغيـــــارِ

لا يستقيمُ القلبُ فى أعمــــاله ... حتى يتوب لواحدٍ قهَـــارِ

يرغبنا فى التوبة قبل أن يبين أهم شروطها فيقول:

"وقد أمر الله تعالى جميع المسلمين بالتوبة ووعدهم بالفلاح (إشارة لقوله تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون} "النور:٣١" فبادِرْ بالمتاب قبل المبادرة عليك بالتراب، فإنك لا تدرى ماذا يكون بعد لحظة، أحياة أم المنون؟ فكم من صحيح لحينه رحل، وكم من مريض يمشى إلى الموت على مهل، وقلت فى ذلك شعرا:

تهيأ للممـــــات فلست تـدرى ... بأنفاس المات متى تكـونُ

فتب لله تـوبـــة ذى رجـــــاء ... وهوِّن كل ما تلقى يهـــونُ

فمن عرف الحقيقة ليس يخشى ... سوى المـولى ويُفرحه المنـونُ

إذا ما تـــــاب كان له مُحِبًا ... ورؤياه تقـرّ بها العيـــــونُ

***

ويحدثنا الشيخ عن التائبين حديثا مشوقًا يجعلنا نتمنى أن ننضم إلى ركب التائبين: اللهم اجعلنا منهم بجودك يا كريم. يقول رضى الله عنه:

"الدنيا لديهم صاغرة، والآخرة لديهم ماثلة حاضرة، شربوا على ذكر ربهم صافى الشراب، فصارت الدنيا تمر أمامهم مَرّ السحاب. رأوها فعرفوها زائلة، فعرفتهم فأقبلت عليهم بعد إعراضهم عنها فخدمتهم، فهى تتشرف بخدمتهم إذا هُم رأوا العار فى خدمتها، وهى

تفرُّ إليهم لعُلوِّ قدرهم إذا هم فروا منها لخسّتها، فما سبحت أرواحهم إلا بأجنحة أعمالهم، وما نشطت أفكارهم إلا بِقلّة آمالهم، فلا تحيّر روحك بين زائلين: جسدك وأملك، وانهض بكليتك إلى حظيرة قدسيتك وعملك، فما أنت إلا غريب طيار، مالك فى هذه الدنيا من قرار، أنسيت يوم أن طرت من السماء إلى الأرض، لإقامة السنة وأداء الفرض إلى أجل مسمى، ثم تطير كما كنت، فهل نسيت أنك طائر، أم إلى أرض جسمك أخلدت؟ وهل يعيش طير بغير طيران؟ أم يتنعم روح علوى بغير قرآن؟ أم هل أنستك الغفلةُ السفرة الكرام البررة؟ فكيف ركنت إلى الوحوش الضارية، والبلاقع الخاوية، وكيف استبدلت أصوات القرآن العلوية بمنكرات الأصوات السفلية، ما بين ناهق ونابح وسخاب ونائح، وطعان وكاشح. أفق من غفلتك إلى يقظتك، ومن رقدتك إلى جنتك فقد آن أوان رحيلك".

***

أهم ما يركز عليه العارفون فى التوبة هو سرعة إتيانها، فالتسويف آفتها الكبرى التى غلت أيدينا، لذلك قال سهل بن عبد الله التسترى: التوبة ترك التسويف. وقال ذو النون المصرى: الاستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين.

لذلك يحض الإمام الجعفرى على المسارعة فيها "فإذا ما سارع السالك بالتوبة، وفرّ من نفسه إلى ربه، وجدها (أى التوبة) محلاً لرقى روحه وقربه من ربه ومحبته".. قال:

"فبادر بإعطاء الحقوق لأصحابها، وبإرضاء الخصماء قبل ذهابها، وبالإخلاص قبل طلوع الروح وإزهاقتها، إياك أن تؤخر التوبة، فقد

اقتربت الساعة وانشق القمر، أتريد الساعة، فالساعة أدهى وأمر، أم تريد أن تلقى مولاك وأنت مقبل على مانهاك"؟.

اللهم لا.

***

احذر هواك فإنه يهـــــوى بمن مَلَك الهوى أعناقهم فى الهــاوية
إن القوى هو الذى غَلبَ الهوى ليس الذى غلب الأسود الضارية
كم من مُريد قد أضرَّ به الهوى لـو كان يعـقـــــل ما تمنى الفانية

۞۞۞

طريقتــه:

هى طريقة شيخه القطب الكبير سيدى أحمد بن إدريس، وهى تجريد القلب لله تبارك وتعالى، وتقوم على الكتاب والسنة، "وقد مكث سيدى أحمد عدة سنين لا شغل له إلا تلاوة كتاب الله والتعرّض لنفحات أسرار علومه، ولطائف رقائقه وفهومه حتى منح الله به ما منح، وفتح بها فتح".

بين الشيخ صالح معالم هذا الطريق قائلا فى "الإلهام النافع":

"طريقنا هذا طريق الله تعالى، المجرّد عن شوائب الدنيا وكدوراتها، ليس لنا رغبة إلا التوجه إلى الحق سبحانه وتعالى، قاطعين جميع العوائق والعلائق والأغيار النفسية، متخلقين بالكتاب والسنة فى جميع أحوالنا وتطوراتنا وحركاتنا وسكناتنا، راضين به عن غيره،

عاكفين على بساط أنس محبته فى الدنيا قبل الآخرة".

من أبرز سمات هذه الطريقة كثرة الصلاة على النبى ﷺ حتى تتأكد محبته فى القلب، ويزداد المريد بذلك قربًا منه ﷺ وهو الطريق الموصل إلى الاستقامة على طريق النبى ﷺ واتباع سنته. لذلك كان السيد أحمد بن إدريس يقول: الاستقامة عندنا هى غاية الكرامة.

وهكذا يبين شيخنا الجعفرى سند طريقته فيقول:

أنا الشيخ عن شيخى تلقَّيْتُ وِرْدَها وشيخى هو ابنُ ادريس بحر الحقيقة

ويقول أيضا:

"قد أجاد شيخنا "الشفا" القطب النفيس مولانا السيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه حينما وكلنا إلى رسول الله ﷺ يتولى تربيتنا، وقد شاهد كثير من إخواننا ذلك إلى يومنا هذا، فاختص الله الآخدين لطريقه المحمدى بالتربية المحمدية.. فامتاز هذا الطريق فى أوراده بهذه الميزات المميزات له، وأن صاحبه كانت له القدم الراسخة فى المتابعة المحمدية الظاهرة فى جميع أحواله، فكانت الرابطة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – رابطة قوية متينة، وقالوا إن كل مريد يرث من مقام شيخه وحاله على قدر اجتهاده واستعداده ووثوق الشيخ به".

وهذا نفسه ما حدث للشيخ فتحقق له الفتح، ونال الاتصال بسيد الكائنات ﷺ، ونال به ما نال من خيرات لا يعلمها إلا الله. أشار بنفسه إلى بعض ذلك فى أبيات تتألق فرحة واستبشارا:

إنِّى رجوتُكَ أنْ أكونَ كأحمـــدٍ شيخ الطَّريق مُلبيًا لِنـــدائـهِ
اسْلُكْ بُنَىَّ طريقَنا هـذا النبى مِنه الطريق وأنتَ تحت لوائهِ
يا سَعْد أولادى لقد بَلَغوا المُنى بنبِيِّنـــا وبآلهِ ودُعـــــائِـهِ
أُذكر طريقى لا تكن مُتغـــافِلاً السِّرّ كلُّ السرِّ فى إمـــلائـهِ
أَمْلَى علىَّ المصطـــفى أورادَهُ أيْقِنْ بهذا النّور من أضـوائهِ
يا داخلاً هذا الطّريق لك المُنَى دُنْيا وأخرى فى بديع بَهائـــهِ

***

لقد حفل ديوان الإمام الجعفرى بالقصائد التى ترسم معالم الطريق حتى لا ينحرف عنها المريد، إذ أن هذه القصائد نفسها مما تتردد دائما فى مجلس المديح وحضرة الذكر، من ذلك قوله:

ما عندنا لهـــوٌ ولا غُـــرورُ ولا خُرافاتٌ ولا ظُهُـــورُ
بَلْ عندنا الله هـو المقصـــودُ الواحدُ الموجودُ والمعبودُ
فى حضرةِ المختارِ خيرِ الخلقِ مُسْتغرقًا مشاهدًا للحـقِّ
فشَهْدُنا شهـــــدٌ عظيم المِنَّـةْ فى سُور القرآنِ ثم السُّنَّةْ

ثم نظم قصيدة واحدة جمعت مبادئ الطريقة، وعرَّفت بها، وبينت معالمها حتى

تكون مرجعًا سهلاً لكل مريد، وجعل اسمها "الذخيرة" وهى فعلاً ذخيرة لطالب الوصول، وها هى ذى:

الذخيرة

شرعت ببسم الله نظم ذخيرتى ... وأثنى بحمد الله بارى الخليقة

صلاة على المبعوث للناس رحمة ... وآلٍ وأصحاب نجوم الهداية

طريقى طريق القوم أهل الحقيقة ... فعجِّلْ إليه وادخلنَّ بنيَّةِ

وداوم على الأوراد والذكر دائما ... بحضرة إخوان أقاموا لحضرة

ففى الحضرة الأنوار والسرّ يا فتى ... بمدح رسول الله خير البريّة

وأفضل ذكر الله تتلو كتابه ... وتسمعُ درس العلم يأتى بحكمة

فشمِّر أخا التوفيق وادْخُل لحضرة ... لتتلو مع الإخوان كنز السعادة

ففيه من الأسرار ما جلَّ حصرهُ ... ودعواته كنزٌ لأهل الطريقة

وهذا طريقٌ جامع الخير كله ... بدنيا وأخرى فى جنانٍ عليَّةِ

هناءٌ ويُسْـــرٌ والغــــنى وعلـم وإرشـــــادٌ وحبٌّ
وصيانـــــة بهيبـــــة

وستر وتوفيـــق وبر وحجٌّ كثيرٌ والطـــواف
ورحمـــــــة بكعبـــــة

وإن كنـــت ذا أرض فبـــورك وإن كنت ذا تجـْـرٍ فربحُ
نَبْتُــهَا التجــــارةِ

وإن كنت ذا غـــزْل فغـــزلك وإن كنت ذا صُنْعٍ نعمت
نافـعٌ بصنعـــة

طريقى طريق الله فيـــــه أناالشيخ وابن إدريس شيخ
منــافعٌ العنــاية

أناالشيخ عن شيخى تلقيــتُ وشيخى هو ابن إدريس بحر
وِرْدَهــا الحقيـقة

آتـانى رســـــول الله بالـورد ففى النوم أحيانًا وفى حال
منحـــــة يقظـــةٍ

فبُعدك عنّـــــا حيث ما كنت مكائد للشيطـــان فاحْـــذر
غفـلة لغفلـةِ

وذكـرك للرحمـــــن نـــورٌ ظلامٌ فـلا تركن إلى ســـوء
وتركـــه ظلمـــةِ

هـــواتفُ شيطـــان تـــوالت بذكـــر لـرب العرش ذكرًا
فرُدَّها بهمـــــةِ

فما خــــاب ذو ذكرٍ لـربٍ يـردُّ شياطين النفـــوس

جـــــلالُه بسُـــــرْعةِ

فلا تنـــس من لـولاهُ ما كنـــت كائنا ولا تنس قـرب الله فى كل لمحــــةِ

فإن كنت مقــداماً فهذا مـجــــال من تقـــــدم فى الميـــدان بين الأحبـــــةِ

فـلا تجعل الشيطـان يأتى موســــوساً إليــــك وقد نـوديت هيًّا لحضـــــرةِ

أيحسن منك السوء إن كنت عــاقلاً وقد رشحوك القــوم أهـــل الحقيقـــةِ

وبايعــــــت شيخًا للعـــلوم محققًا له قـــدم التحقيـــــق بين البريَّـــةِ

عليك بحفـــــظٍ للكتـــــاب فإنـــــه أنيسٌ لأهـــــل الذكر فى كل ليـــلةِ

وتتلوه جــــوف الليل والليلُ مظـــلمٌ لتسبح فى الأنـوار حال التـــــلاوةِ

طريقى هـو القـــــرآن والعــلم والتُّقى ومدح رسول الله مـاحــى الضــــلالةِ

وحال تلاميــــــــذى إذا ما رأيتهـم لدى حضرة القــــرآن كُلّ عَشِيَّـــةِ

وبعد غروب الشمـــس يتلون وردهـم وبعـد صلاة الصبــح خير التــــلاوةِ

صــــــــــلاة وتسليمٌ مـن الله دائــــــمٌ
على خير مبعـــــــــوث إلى خير أمـةِ

تقبل دعـــــاء الجعفـــــــــرى ومُـدَّهُ
بأســـــــرار علمٍ من علـوم الحقيقـــــة

۞۞۞

فائدة جعفرية

يقول الشيخ فى "الإلهام النافع":

إذا عصتك نفسك وخالَفَت وعن الفضائل تخلّفت، وعن دعوة الحق تولّت، وصارت جموحة الأخلاق، منفرة للرفاق، أجدبت أرض قلبها بنسيانها لذكر ربها، وتسربلت بالخمول والكسل، وصارت حليفة البطالة والفشل.

فعليك بالإكثار من الصلاة على نبى التوبة ﷺ، لأنك إذا أكثرت من الصلاة والسلام عليه وصلك، وإذا وصلك تاب الله عليك ورحمك.

وهذا أقرب سبل الخير المنقذة لك، واجعله المرئى لمرآة قلبك، متوجها به ﷺ إلى ربك. فهو إمام روحك المبين: {وما هو على الغيب بضنين} "التكوير: ٢٤"، سراج أفق الألوهية لمن أراد أن يسير فى ضوئه إلى حضرة الألوهية، ومعدن الأسرار الربانية، لمن أراد أن يطلع على الأسرار الخفية، لوح علم الله المخزون لمن أراد أن يطلع على الجوهر المكنون، تبصرة المستبصر، وتذكرة المستذكر، ومفتاح فتح الفاتحين، وقدوة الراسخين المرشدين.

فهو ﷺ الذات المكملة النورانية، بمشاهدته يحصل الكمال والنور، ويتفاوت الكمال والنور تفاوتا عظيما على حسب مراتب القرب منه ﷺ ، فجرد نفسك لنفائس قدسك، لتحظى بجنة قربك، وتأدب بآداب القوم، خشية العتاب واللوم، لكى حبل وصلك يقوى. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ "الحجرات:٣".

ولا تحد النظر إليه إذا رزقت الجلوس بين يديه:

كأنه وهو فرد من جلالته   فى عسكر حين تلقاه وفى حشم

وشطرت هذا البيت الذى للشيخ البوصيرى رحمه الله:

كأنه وهو فرد من جلالته   فى هيبة الأسد إذ كانت لدى أجم

كأنه حين يمشى من مهابته   فى عسكر حين تلقاه وفى حشم

وقلت أيضا:

انظر إلى جبريل حين تأخرا   والمصطفى قد سار فى أنواره

جبريل يخشى الاحتراق وأحمد   يقوى بحول الله فى أنواره

نور الجلال له الجلال وبعد ذا   كشف الحجاب ونال من أسراره

نور ولكن ليس   أهل الشهود كذاك فى أعطاره

كالأنـــــــــوار يا

أمـــــر غريب للقــريب لاحت له الأنـــوار فى

بقـــربه أذكـــــاره

اشرب أخى شراب أرباب واترك طريد النفس فى إنكـــــاره

الصفا

أول ما خلق الله نور نبيك ﷺ فنبّأه وعلّمه وجمّله وكمّله وقدّمه وكرّمه وقرّبه ورفعه وآواه وقرن اسمه باسمه.

۞۞۞

أسلوبه وحاله فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

قال العارفون إن الله سبحانه وتعالى إذا تجلى على وليه بصفة الجمال كان الولى هينا لينا رفيقًا يعذر الناس ويبحث عن محاسنهم، وهكذا كان شيخنا الجعفرى، ولا يتناقض هذا طرفة عين مع واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأولياء الله أول القائمين به والمسارعين إليه والقادرين على القيام به على أكمل وجه.

هم حراس الدين، الذائدون عن حياضه، لا يسكتون عن منكر قط، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم.

۞۞۞

مع الوهابية:

من أكبر المنكر فى هذا القرن الدعوة الوهابية التى روجت بين عوام المسلمين أن التوسل بالنبى ﷺ شرك وكذا بالصالحين وزيارة قبورهم، وأعملوا جهودهم فى تنقيص قدر النبى ﷺ الذى رفعه ربه، وحكموا بالشرك على من يقرأ كتب الصلاة عليه ﷺ مثل

"دلائل الخيرات" وقصيدة "البردة المباركة" للبوصيرى.. وقد انتشرت هذه الفتنة حتى وصلت للقرى والنجوع، وأصبح أهل هذه الفرقة وأشياعها يتهمون المسلمين فى أعز ما يملكون وهو الإسلام واصفين من يزور أهل البيت أو أولياء الله بأنه قبورى وأنه يعبد القبور ويحاولون إثناء الناس عن زيارة حبيب رب العالمين!! وكم من المعارك خاضوها ليوقفوا الصلاة على النبى ﷺ بعد الأذان وكذا الصلاة على النبى فى تكبيرات العيدين وغير ذلك مما لهم من الشنائع والمنكرات.

مصيبتهم الكبرى أنهم تنصلوا من سلف الأمة، مع أنهم يُسمّون أنفسهم "بالسلفيين"، ونشروا بين العوام أن كل مسلم يجتهد فى الدين، وفتحوا أبواب فتن تُرى آثارها فى واقع الأمة المعاصر.

لذلك يحذر شيخنا الجعفرى منهم ومن صحبتهم أشد التحذير، فيقول فى "الإلهام النافع":

"ومن الوبال على المريد انتماؤه للمدَّعين ممن يدّعون الاجتهاد، وينكرون على الأئمة رضوان الله تعالى عليهم، وهم لا يعرفون القرآن ولا الحديث ولا علم الأصول، فهم فتنة بين المسلمين، وهم أضر على المريد السالك من المعاصى.

ومن العجب أن حالهم لا يعجب أحدًا إلا الجهال، وشَرَكهم لا يصطاد إلا الجهال كما قال الشاعر: إن الطيور على أشكالها تقع.

ومن علاماتهم غبرة على وجوههم، وأنهم من أهل الوجهين، وبخلهم إلا على من يوافق قولهم، وكثرة كلامهم بغير ذكر الله تعالى، وإظهار الحماقة عند الحديث معهم، واحتقارهم لمن دونهم ولو كان أعلم وأشرف، وكثرة غفلتهم عن ذكر الله تعالى، وكثرة الرياء،

واعتناؤهم بكل ما يراه الناس، وبغضهم للصوفية، وإنكارهم عليهم، وإنكار كرامات الأولياء، واتخاذهم قولهم مهنة للعيش، وعجزهم عند المناظرة مع أى عالم، واحتقار جميع المسلمين وتضليلهم وتسفيه آرائهم.

***

قال شيخنا فى إحدى القصائد الزينبيات:

ياقومُ مالى قَد رأيتُ ـنَّاسَ فى شىءٍ مُشينْ

الـ

يَرْمُوننا بالشِّـرْكِ ـكُفْرِ الصَّـريحِ مُبيِّنينْ

والـ

أنَّ الزيـارةَ فى شَأْنِ قومٍ مُشْـرِكينْ

بِـدْعـةٌ

وهُـمُ إلى الكُفّـارِ ـيًا كـل حينٍ زايـرينْ

سَعْـ

وإلى الأجـانب فى د سَعَوْا لأجْلِ الدِّرْهمِينْ

البلا

وإلى النبِّى فمـا ولمنْ سَعَى مُتعرِّضـينْ

سَعَـوْا

وقال فى "روضة القلوب والأرواح":

وكَمْ قـومٍ لهم بُغْضٌ أضَرَّ بهِم وكانوا مُبْغَضِـينا

شـديدٌ

ومَنْ يُنكر على الأشرافِ فَضْلاً تَرى أعلامَهُ فى الـهـالِكِينا

شَقِىٌّ مـــن تولَّى عن دِيـــارٍ تدورُ بِها قلوبُ العاشِقِـــينا

ومَن زَاروا الكِرامَ فَهْم كِـــرامٌ ومَن زَاروا الأَسَافِلَ سافِلينا

وكَمْ زاروا دِيارَ الكُفـرِ جَهْرًا و ما زَاروا بِقاعَ الطَّاهِـرينا

أيكفـــُر مَن يزورُ لآلِ طَــهَ ويُسلِمُ من يزُور المُشْـرِكينا

تعجَّبْ مِن ضلالٍ فى عُقـــولٍ وحَاذِر مِن دُعاةِ المُنْكِـرينا

وكُنْ رَجُلَ الثَّباتِ ولا تُمـــارى لِمَنْ بالرَّيْبِ صارُوا مُمْتَــرينا

***

لكن الروح المهيمن على كثير من قصائده – ولم أطلع منها إلا على القليل – روح فرحة مستبشرة، هائمة فى بحار المحبة التى لا تُدركُ لها شطآن، حب الله ورسوله وآل بيته وصحابته وأولياء الله الصالحين، المحبة التى تأكدت وزادت وربت بالمشاهدة أحيانا كثيرة كما أخبر الشيخ بنفسه فى مواضع عديدة، وكما روى أصحابه ومريدوه من كراماته التى سيجىء الحديث عن بعضها إن شاء الله.

قال الشيخ فى نفس القصيدة السابقة:

رأيت المصطفى كالبدرِ يأتى يزور حُسَيْنَـهُ حِينًا فَحينا

فزُوروا مِثْــله سِبْطًا سَميًا وكونوا مثلَ خيْرِ المُرْسَلينا

نعــم..

إن المحب يسعد بحبه، والمبغض يشقى بها يأكل قلبه، والمحب إذا نزل بساحة من يحب سها عن الدنيا وما فيها، ولم يعد له شغل إلا بمن أحب، وإمامنا الجعفرى فى هذه الساحة هائم أبدا.

من أوائل ما نظم من القصائد الطويلة قصيدته المسماه "بالبردة الحسنية الحسينية فى مدح آل خير البرية" التى نظمها على غرار بردة إمام المادحين سيدنا البوصيرى رضى الله عنه.

وهكذا افتتح شيخنا قصيدته بقوله:

يارب صل وسـلم دائما أبدا على النبى وأهـل البيت كلهـم
أَمِن تَذكُّرِ أهل البيتِ والحـرمِ بكيتَ دَمْعًا على الخدَّين كالدِّيَمِ
أم حنَّتِ الرُّوح للأحباب طالبةً أهلَ الكمالِ لكى تحظـى بقُرْبِهِمِ

۞۞۞

مع الشيعة:

زاره جماعة من الشيعة -فيما رواه لى الدكتور عطية مصطفى- وراحوا يثنون عليه لمدائحه فى أهل البيت، فلما فرغوا من كلامهم سألهم عن مشايخهم، فقالوا إن عندهم شيوخًا كبارًا، وجعلوا يعددون أمامه أسماءهم وصفاتهم وعلومهم ومناصبهم الدينية إلى غير ذلك.

فسألهم: أهم يحسنون تربية تلامذتهم؟

فقالوا: طبعًا، هم فى ذلك مبرزون.

فقال لهم الشيخ: أيُفلح مشايخكم فى تربية أصحابهم، ولا يُفلح رسول الله ﷺ فى

تربية أصحابه؟؟ فبهتوا وما استطاعوا ردا!!

والشيخ يشير بذلك إلى سوء اعتقادهم فى الصحابة رضوان الله عليهم، وسبهم ولعنهم لصاحبى رسول الله ووزيريه وحبيبيه أبى بكر وعمر وبنتيهما أمنا عائشة وأمنا حفصة وذى النورين عثمان الذى تستحى منه الملائكة رضوان الله عليهم أجمعين.

يارَبِّ فارْضَ عن الصِّدِّيقِ سيّدنا حِبِّ النبىِّ له العَلْياءُ فى الهِممِ

فى الغارِ كان مع المُخْتار صاحِبِهِ له التقدُّمُ فى الإسلامِ والكرمِ

أَثْنَى عليه إِلَهُ العرْشِ خالِقُنَا خير الثَّناءِ فيابُشْراهُ بالنِّعمِ

واجعل رِضاكَ على الفاروقِ سيِّدنا أبى الفُتوحاتِ ذى بَطْشٍ بِذِى صَنمِ

يفرُّ إبليسُ إن لاقاهُ فى طُرُقٍ والجَوْرُ والظلمُ من مَرآهُ فى عَدَمِ

وحُبُّه لرسولِ اللهِ يُعلِنُهُ لدى النَّبىِّ على نفسٍ على رَحِمِ

واجعل رِضاكَ على عُثمانَ سيِّدنا وجامِعٌ لكتابِ اللهِ بالقَلَمِ

مُجَهِّزُ الجيشِ فى أيّامِ عُسْرتِهِ وقائمُ اللَّيلَ فى الأسْحارِ والظُّلمِ

صِهْرُ النَّبىِّ وذو النُّورَيْنِ كذا الصَّبورُ على البَلْواءِ

كُنْيَتـهُ والغُمَـمِ

هذه الأبيات أيضا من "البردة الحسنية الحسينية فى مدح آل خير البرية".

***

ومن أجمل قصائد الشيخ فى مدح أهل البيت أيضا قصيدة "رضينا" التى ابتدأها بهذا البيت:

رضينا يا بنى الزهرا رضينـا بحبكم لنا دنيا ودينـا

لكن الشيخ غيَّر هذا المطلع فيما بعد، ربما بعد زيارة أولئك الشيعة له، ليرسم معالم محبة أهل البيت، ويضع لها قانونها الأزلى الذى لا يتغير ولا يتبدل حتى تكون هذه المحبة "نعمة" لأصحابها لا "نقمة" عليهم، وأصبح البيت هكذا:

رضينا يابنى الزهرا رضينـا بحب فيكم يُرضى نبينا

وهو حل مُعجز، ومدد من الله لا يخفى، يشبه قول الإمام البوصيرى فى سيد الكائنات ﷺ:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

فوضع به قاعدة لا يتسرب إليها أدنى خطأ فى كيفية مدح النبى صلى الله عليه وآله وسلم وحدوده.

وأخبرنى أيضا أخى الدكتور عطية بأن فضيلة الشيخ عبد الغنى -نجل الإمام الجعفرى وشيخ الطريقة- كان فى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، فقال له بعضهم - منكرًا قول الجعفرى "بحب فيكم يرضى نبينا":

- أهناك حب لأهل البيت لا يُرضى النبى ﷺ؟

فقال الشيخ:

- نعم.. النبى ﷺ لا يرضى عن حب أهل البيت إذا صاحبه الخوض فى أصحابه.

❋ ❋ ❋

كثيرة ومتعددة أبواب الخير التى فتحها الإمام الجعفرى، فإذا ولجنا من أحدها هالنا ما وراءها مما حباه الله من علوم وآداب وأنوار وأسرار والله يرزق من يشاء بغير حساب.

إن الحديث قد طال عن الشيخ، وكلما استدعيت نهايته تفتحت آفاق وآفاق تجذبنى إليها جذبًا. ولسوف أحاول أن أقصر حديثى فى الصفحات القادمة إن شاء الله على بعض معالم الجانب الروحى "الربانى" فى حياة الشيخ، ثم بعض كراماته ثم أختم والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

۞۞۞

العالِم الربَّانى:

إن الدور العظيم الرائد الذى قام به شيخنا الإمام الجعفرى يتمثل فى إحيائه للربانية فى صورها النقية الصافية فى عصر المادة والشهوات.

هذا رجل من أتباع سيدنا محمد ﷺ قام بدوره فى الحياة على أكمل وجه، فاق فى ذلك كثيرين غيره، ومع ذلك لم يتنازل عن أى قدر من ثوابت ديننا الإسلامى الحنيف فى ذروة درجاته: درجة الإحسان، ولم يأخذ بحجج من احتجوا بتغير الزمان والظروف، لأن الربانيين ما نظروا أبدًا لغير الله خالق الظروف والزمان وخالق كل شىء.

إنك أيها القارئ الكريم إذ رأيت قصيدة من قصائده مثل "شراب العارفين" ظننت أن ناظمها واحد من سلف الأمة الصالح، الذين عاشوا فى عصور العفاف والطهر فى قرون الإسلام الأولى.

والإمام الجعفرى ما قالها – وقال أشباهها – وهو معتزل للناس فى مغارة على قمة جبل، وإنما قالها وهو فى خضم الحياة رائحا غاديًا بين الناس فى قلب القاهرة التى تعج بالزحام وكل متناقضات الحياة فى العصر الحديث. إنما تحقق فيه درجة عالية من درجات العبودية، حيث يكون القلب مع الله والجسم بين الناس.

استمع إليه وهو يقول فى لغة سهلة لا تصعب على أحد:

شرابُ الرَّاحِ فى   شـــرابٌ فائِحُ
الـذِّكرِ   العِطْرِ

دَخَلْنَا حَضْـــرَةَ   وكانتْ لَيْـــلَةَ
القُـدسِ   القَـدْرِ

شربنَا شَرْبَةَ   فَهِمْنَا طِيلَةَ
الحُـــــبِّ   العُـــــمْرِ

شـــــرابًا طيّـــب   وكانتْ سَاعَـةَ
العَصْرِ   العَصْرِ

بِجِـــــوفِ اللَّيْـــلِ   إلـه العـَرشِ
نادَانَـا   لِلفـجــــرِ

فَكَمْ من سَـــاهِرٍ   وَكَـم من تَالِ
يدعُـو   للذِّكـــرِ

وَكَم من قـــــائمٍ   بِدَمعٍ سَـالَ
يبكـِي   كـالقَــــطْرِ

فَسَـــلْ عنه   بوقتِ اللَّيلِ إذ
رُكيْعَــــاتٍ   يســـرِى

وكم فى مسجدٍ كَمِثلِ الطَّيـــرِ فى
عَاكِفْ الـوكرِ
وكـمْ مـــن بائِعٍ وحُبُّ القلبِ
شـــــارٍ كالجَمْـرِ
وكمْ مـن عابدٍ مع الأقطابِ
يمشــــى والخِضـرِ
وكـمْ من سائحٍ كسعْيِ الطَّيرِ
يسْعَـــــى والنِّسْــرِ
وكـم من عالِم لآلى العِلْمِ
يُهْـــــدى كالبَحــــــْرِ
وكمْ مـن ذَاكرٍ كَمِثْل اللَّيْـــثِ فى
لَيْـــــلاً الزَّأْرِ
وكمْ مـن صَامِتٍ بِرُوحٍ منــه فى
يَتْـــــلو السِّــــرِّ

۞۞۞

كرامات الأولياء:

العارف بالله لا يحب ذكر كراماته لأنه يستحيى من الله أن تُرفع له رأس بين الناس وهو يعلم، بل يرى فى كل لحظة أنه لولا فضل الله عليه لكان واحدًا من أرذل الناس.

فأولياء الله لهم العذر كل العذر فى إخفاء كراماتهم لأنهم أعرف بالله من غيرهم، لا يأمنون مكره طرفة عين، ويخافون من السلب بعد العطاء، فهو سبحانه الفعال لما يريد، لو شاء إهلاك أهل الأرض جميعًا لفعل ولا يبالى.

أما سائر الناس فإن إخفاء كرامات الأولياء فى حقهم لا يصح، لأن إخفاءها إخفاء لعلم أبرزه الله لينتفع به الناس ويزدادوا به إيمانا ويقينا.

روى الإمام القرطبى فى تفسيره عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال:

"جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبى أخذ مالى. فقال النبى ﷺ للرجل: "فأتنى بأبيك". فنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شىء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه، فلما جاء الشيخ قال له النبى ﷺ: "مابال ابنك يشكوك! أتريد أن تأخذ ماله؟" فقال: سله يارسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسى. فقال له رسول الله ﷺ: "إيه، دعنا من هذا، أخبرنى عن شىء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك".

فقال الشيخ: والله يارسول الله مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا".

(ثم ذكر الرجل أبياتا من الشعر قالها فى نفسه يعتب فيها على ولده ذكرها القرطبى بعد هذه القصة فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾.

معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء تزيد المؤمنين -فى كل زمان ومكان- إيمانًا ويقينا.

لذلك كان الأولياء -الصحابة فمن بعدهم- يوصون إذا اطلع أحد على كرامة لهم أن يكتمها ولا يذكرها لأحد مدة حياتهم، أما بعد موتهم فليذكروها لمن شاءوا.

فكرامة الولى ليست منه، وإنما هى من الله تثبيتا له، وزيادة لإيمان من حوله من المؤمنين وتشجيعًا لهم على التعلق به واتباع طريقته والرغبة فى سلوك الطريق إلى الله.

***

وشيخنا الإمام الجعفرى -رضى الله عنه- كان زاهدا فى الكرامات، مؤثرًا للخفاء فيما يتعلق بمواهب الله وألطافه. ومع ذلك كان دائم الذكر لكرامات مشايخه وأولياء الله الصالحين، كما ذاعت عنه كرامات كثيرة ما كان إلى إخفائها من سبيل، منها على سبيل المثال أنه كان يلقى درسه المعتاد فى صحن الأزهر المكشوف وقد ازدحم حوله المستمعون، فإذا بالسماء تهل عليهم بالمطر، فقال الشيخ: ألا يوجد فيكم ولىّ لله يقول: اللهم حوالينا ولا علينا. فإذا بالمطر يمتنع عن موقع الدرس فقط دون سائر المواضع.

هذه كرامة للشيخ شاهدها المئات ممن كانوا فى الدرس، وتناقلوها واشتهر أمرها ولم تعد خافية.

وإن كان الشيخ قد حذر المريدين من الجرى وراء الكرامات والاغترار بها والوقوف عندها صيانة لقلب المريد حتى يكمل حاله، فقد كان أكثر تحذيرًا من مجالسة المنكرين لكرامات الأولياء المتعالين عليها، فقال فى "الإلهام النافع":

"ومن الوبال على المريد اختلاطه بالمنكرين الذين كلامهم كالحجارة، وإن قلب المريد كالزجاجة "والزجاجة كسرها لا يجبر" فمن عرض قلبه لهم فقد عرض زجاجته للكسر.

واعلم يا أيها المريد هدانا الله وإياك لنوره التام، وأدخلنا وإياك فى حضرة القدس التى لا يكدر صفوها بوجه من الوجوه: أن الآية فى اللغة هى العلامة التى تدل على الشىء المراد، وهى إما قولية كآيات القرآن الحكيم، وإما فعلية بلا واسطة ترى كالسماء والأرض، وإما

بواسطة كالمعجزات للرسل عليهم الصلاة والسلام، والكرامات للأولياء، لأن الآية من القرآن العظيم دليل على وجود الله تعالى، والسموات والأرض وما فيهن دليل كذلك.

والمعجزة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دليل على صدقه، والكرامة من الولى دليل على صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

إذا علمت كلامى هذا علمت معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾.

فجلوسك مع المنكرين وسماعك لقولهم حرام، إذ أنت مأمور بالإعراض عنهم، ففكر فى قولى هذا ولا تهمله فإنه نفيس إن شاء الله تعالى.

***

أعرض عن الجُهّـال لا تسمع لهُم ... فكلامُهُم شُؤم على من يَسْمَعُهْ

وإذا ذكرت لواحدٍ أهلَ الهُدَى ... وذَكَرْتَ سيرتَهُ فقَوْلُك يُفْجِعـُهْ

وإذا ذكرْتَ سواه مِنْ أهـلِ الدُّنا ... تَلْقاه يسمعُ للكلامِ وَيَجْمعُــهْ

۞۞۞

من كرامات الشيخ:

أخبرنى أحد الأخوة ممن حضر الشيخ صالح وسعد بخدمته لسنوات طويلة أن الشيخ كان قد كلّفه بحمل قصيدة "البردة الحسنية الحسينية" إلى خطاط ليقوم بكتابتها

تمهيدًا لطبعها، وكان الخطاط يعمل فى نفس المصلحة التى يعمل بها أخونا (مصلحة المساحة) بل كان رئيسًا عليه.

ظلت القصيدة مدة طويلة عند الخطاط دون أن يكتبها، وكلما سأل عنها الشيخ وذهب الأخ إليه وجده مشغولاً بأعمال أخرى غيرها، ثم يعده بالانتهاء منها بعد يوم أو يومين، ولا يفى. فلما طال الأمر مما أوقع أخانا فى حرج شديد بين شيخه وبين رئيسه فى العمل حدث أن تغيب الخطاط عن العمل، فلما سأل عنه فى بيته علم من زوجته أنه استيقظ فى الصباح ليجد نفسه عاجزًا عن الإبصار وكانت أسرته فى كرب شديد لذلك.

فلما سأل الشيخ عن مصير القصيدة أخبره أخونا بما حدث للخطاط، فقال له: اذهب إليه وقل له يذهب إلى سيدنا الحسين، ويقف تجاه وجهه ويقول بصوت يسمعه من بجواره: يا مولانا الحسين بينما أنا أكتب فى قصيدتك ذهب بصرى، ثم يرجع.

وفعلا ذهب الخطاط يقوده ولده إلى مقام سيد الشهداء – عليه السلام – وفعل ما أمره به الشيخ، ثم أخذ بيد ولده خارجا من المقام ثم من المسجد، وبينما هو يلبس حذاءه على باب المسجد رُدّ إليه بصره، وأصبح أقوى من ذى قبل فذهب من المسجد إلى سيدى صالح. ومن يومها تولى كتابة قصائد الشيخ وأوراده، وإنك إذا فرغت من قراءة البردة الحسنية الحسينية وجدت اسم الخطاط المعنى بهذه القصة مكتوبا بخط صغير: كتبها وصممها الفقير إلى الله تعالى المهندس / عبد المتعال محمد إبراهيم.

***

وأطلعنى أخى الدكتور عطية مصطفى على كراسة عنده جمع فيها أحد أصحاب الشيخ ممن كان يواظب على دروسه بالأزهر عددًا من الكرامات التى رآها بنفسه منها ما يلى:

- "فى عام ١٩٦٥ دخلت الجامع الأزهر فرأيت سيدى الشيخ

صالح الجعفرى، ومنذ ذلك اليوم لازمت الشيخ فى درس الجمعة وفى الحضرات، وكنت أذهب إلى الأزهر كثيرًا لصلاة الظهر لأستمع إليه، وفى يوم كنا جالسين معه بعد صلاة الظهر فقال: ذهبت إلى الشيخ الباجورى فى قبره لزيارته وقراءة الفاتحة، فقال لى الشيخ الباجورى (من قبره): الناس فى كرب وضيق لأنهم لا يقرءون القرآن.

ومنذ ذلك الوقت وأنا أذهب لأتعلم قراءة القرآن حتى تعلمت تجويد القرآن، ومنذ ذلك اليوم وأنا ملازم لقراءة القرآن ببركة الشيخ صالح".

• "كنا جالسين حول الشيخ فى صحن الأزهر وهو يتحدث إلينا، ثم قام ليدخل إلى خلوته، فذهب كل واحد منا ليقبل يده، وذهب شاب ليقبل يده فإذا بالشيخ يبعد يده ويقول له: أنت وأمك لماذا تتآمرون على والدك؟ فدهش الشاب وقال: كيف عرف الشيخ هذا وأنا أول مرة أراه، وأول مرة أدخل الأزهر؟"

• "فى عام ١٩٦٩ تقريبا قرأت فى إحدى الصحف القومية مقالاً للشيخ على الخفيف مدير المساجد يشكك فى وجود سيدنا الحسين والسيدة زينب وأهل البيت فى مصر. وبعد ذلك ذهبت إلى الجامع الأزهر لصلاة الظهر، وبعد الصلاة كنت جالسًا على يمين الشيخ ولم أقل له شيئًا، فتلفت إلىّ وقال لى عن طريق الكشف: لا تسمع كلام الشيخ على الخفيف فأهل البيت موجودون بمصر".

• "كنا جالسين حول الشيخ صالح فى صحن الأزهر يتحدث إلينا ثم قال: معظم الناس أولادهم البنات يلبسون ملابس عريانة وهذا لا

يصح. فقال واحد منا: الحمد لله ليس لى بنات. فسكت الشيخ قليلا ثم قال للرجل: الملائكة تقول إن أولادك لا يصلون.

فقلنا: سبحان الله، والشيخ يكلم الملائكة وتكلمه ونحن لا نحس بهم".

***

هذه بعض كرامات الشيخ التى جمعتها فى هذه العجالة، ولقد مر بنا كرامات أخرى له والذى يطالع كتبه وقصائده يجد فيها الكثير الكثير من الكرامات التى ذكرها بنفسه أسأل الله أن يقيض لها من يجمعها ويضمها إلى سيرته.

ومن ذلك ما رأيته بمحض الصدفة فى كتابه "فتح وفيض وفضل من الله فى شرح كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله".

قال الشيخ:

- "ومن فضل الله تعالى كنت مرة جالسًا فى الروضة الشريفة بين المغرب والعشاء مغمضًا عينى مصلِّيًا على النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فسمعت صوته صلى الله عليه وآله وسلم من الروضة الشريفة (يقول:) عظ الناس من غير تفريط ولا إفراط".
- "وفى سنة من السنين أيضا كنت جالسًا فى الروضة الشريفة كالجلسة المتقدمة ومعى جماعة وهم يريدون السفر إلى مصر، وأنا أريد البقاء بالمدينة، وكنت أفكر فى ذلك، فسمعته صلى الله عليه وآله وسلم من الروضة الشريفة يقول: إما أن تبقى معنا وإما أن تسافر".
- "وفى سنة من السنين وأظنها فى أول حجة عام ١٣٧٢ هجرية

لقينى رجل من الكرد عليه حال، جاءنى ووضع يده على رأسى وصار يقول: مبارك، مبارك، فقلت له: أين سيدنا الخضر عليه السلام؟ فقال لى: ستلقاه بالروضة الشريفة، فلما وصلت المدينة جلست فى يوم من الأيام بعد صلاة العصر بالروضة، فجاءنى رجل ما رأيت مثله، وعليه عمامة صفراء، ولا يوجد له شبه فى الناس، له لحية بيضاء عظيمة، فسلم علىَّ وقال لى: هل هذا النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا سلمنا عليه يسمع سلامنا ويرد علينا ويرانا؟ فقلت له: نعم. فقال لى بلسان عربى فصيح: أرحت قلبى أراح الله قلبك. ثم قال لى: إذا كنا فى بلادنا وسلمنا عليه وصلينا عليه هل يبلغه ذلك؟ فقلت له: نعم. فقال لى: أرحت قلبى أراح الله قلبك. وسألنى عن أشياء أخر لا أذكرها الآن".

- "ثم جاءنى أناس يسلمون علىَّ فلما انصرفوا التفت فلم أجده فوقع فى خاطرى الكلام الذى أخبرنى به الكردى فى منى. ثم رأيته بالليل فى المنام كأننى فى السفينة التى كان قد ركبها مع سيدنا موسى عليه السلام فى البحر، ورأيته واقفا بالبر بالهيئة والثياب التى رأيته عليها وهو يسلم علىَّ من بعيد ويشير إلىَّ بيده، يعنى: أنا الذى رأيتنى بالأمس. على نبينا وعليه الصلاة والسلام".

* * *

أما تاج الكرامات، وغاية أهل المقامات فقد أكرم الله بها وليه الصالح إمامنا الشيخ صالح، وهى رؤية النبى ﷺ فى اليقظة والتلقى عنه، وقد بّين الشيخ ذلك فى مواضع من شعره منها قوله الذى مررنا به قبل قليل:

أتانى رسول الله بالـورد منحـة وفى النوم أحيانا وفى حال يقظـة

۞۞۞

وفاتــه:

انتقل شيخنا إلى جوار ربه مساء يوم الاثنين الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ الموافق السادس عشر من أبريل سنة ١٩٧٩م، ودُفن بجوار مسجده الذى أنشأه قبيل وفاته بالدراسة بحديقة الخالدين بالقاهرة، يزوره فيه أحبابه وعارفو فضله وملتمسو أنواره وفيوضاته، وقد خلف الشيخ تراثا عظيما، وتلامذه ينشرون طريقته فى الآفاق، وصرحًا منيرًا يشرف على القاهرة من عل، ناشرًا المحبة التى هى جوهر الدين الإسلامى: حب الله ورسوله وأهل بيته وصحابته والعلماء العاملين وأولياء الله الصالحين..

يارب ارض عن الإمام الجعفرى وانشر طريقته مدى الآفاق(*)

۞۞۞

(*) من قصيدة طويلة للشيخ عبد الغنى صالح الجعفرى بعنوان "رقائق الحقائق".

مراجع

- الكنز الثرى فى مناقب الجعفرى جمعه الشيخ عبد الغنى صالح الجعفرى.
- المنتقى النفيس فى مناقب قطب دائرة التقديس سيدى أحمد بن إدريس للشيخ صالح الجعفرى.
- الإلهام النافع لكل قاصد للشيخ صالح الجعفرى.
- فتح وفيض وفضل من الله فى شرح كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله للشيخ صالح الجعفرى.
- ديوان الجعفرى.
- البردة الحسنية الحسينية فى مدح آل خير البرية للشيخ صالح الجعفرى.
- الشيخ صالح الجعفرى حياته وجهوده فى الحياة الروحية فى ميزان الإسلام، د. محمد عبد الدايم على سليمان الجندى، دار جوامع الكلم بالقاهرة.
- المطرب فى أولياء المغرب، عبد الله التليدى، دار الامان، الرباط.
- الرسالة القشيرية.

الكتاب الثالث

الشيخ أحمد بمب

خادم الرسول وسيد الناس

(١٢٧١- ١٣٤٦هـ = ١٨٥٣ – ١٩٢٧م)

غنيتُ باللهِ عنِ الأربابِ

وبأحمدٍ عَنْ سائرِ الأسْبابِ

المحتوى

شيوخه

الشيخ مجخت كل

الشيخ محمد اليدالى

الشيخ سيديا بابا

عطاء بعد عطاء

الصلة بسيد الأنبياء ﷺ

أيام العسر والشدة

فى المنفى

العناية

الحفظ من كيد الظالمين

العفو عمن ظلم

المنحة فى المحنة

البيعة

أهل بدر

طريق الشوك

دعوة الإصلاح والتجديد

الطريقة المريدية

مجابهة الباطل

المعلم

إنفاقه الدنيا

مكانة الولى فى الناس

الشيخ فى عيون العارفين

من كراماته أيضا

الوفاة

ما هذه الصورة التى لا تفتأ تقع عليها العين هنا وهناك، صورة لرجل أسود البشرة فى جلباب أبيض وقد لف شالاً أبيض على رأسه ووضع طرفه على فمه، فلا يرى من وجهه إلا بريق عينيه وأنفه؟

هذه الصوره بعينها تتكرر فى أماكن عديدة فى بلاد السنغال، فى الشوارع وعلى الجدران وفى البيوت والمكاتب والمحال التجارية وعلى السيارات، بل إن بعض لاعبى كرة القدم يلبس فانلات رياضية مطبوع عليها نفس الصوره..

لقد أبدع السنغاليون فى رسمها بطرق لاحصر لها، بالألوان، وبالأبيض والأسود، وعلى الخشب والورق والقماش والزجاج والجلد والحجارة.. ورسموا نفس الشخص بنفس الهيئة فى مواقف مختلفة ومتعددة، فهذه صورة له وهو جالس على مصلاه ومسبحته فى يده وقد رقد بجواره أسد ضخم، وأخرى وهو يصلى على الماء ومن ورائه

سفينة وأهلها ينظرون إليه فى دهشة، وأخرى وهو يجلس فى الدرس وحوله المريدون، وأخرى وهو جالس وسط نار متّقدة وهكذا..

فما الخبر؟

وأى رجل هذا؟

وكيف تعلقت قلوب الملايين فى السنغال به إلى هذا الحد؟

هذا ما سنحاول -إن شاء الله تعالى- أن نستكشف خبره فى الصفحات التالية.

***

إنى لم أذهب قط إلى السنغال، ولم أر بنفسى شيئا مما وصفت، ولكنى اطلعت عليه فى كتاب مصور باللغة الإنجليزية عنوانه: [illegible] أى "ولىٌّ بالمدينة" وهو كتاب حافل بالصور التى أشرت إلى بعضها، وذلك لأنه يعتنى بالظاهرة الفنية التى تكاد تكون فريدة من نوعها، فيقدم اللوحات المختلفة ومن قاموا برسمها، ويشرح مناسباتها مع استعراض بعض خلفياتها التاريخية..

ولما كنت لا أجيد الإنجليزية قراءة ولا كتابة فقد كدت أن أنصرف عن الكتاب لولا أننى صادفت هنا وهناك إشارات وملامح جعلتنى أظن أن وراء هذا الرجل -موضوع الكتاب- أمورًا عظيمة. منها محبته للنبى ﷺ واشتغاله بمدحه فى قصائد شعرية كثيرة باللغة العربية، وتسميته نفسه بخادم الرسول ﷺ..

هو إذن ممن بدأهم الله بالإحسان، فقذف فى قلوبهم محبة سيد الأكوان ﷺ، وهى الرتبة التى لا توهب قط لمبتدع أو ناقص إيمان.

ظللت عدة شهور أبحث عما يزيدنى معرفة به ولكن دون جدوى، وفى يوم رأيت بالمكتبة طالبًا من نيجيريا يشترى بعض الكتب، فسألته: هل سمعت عن ولى لله

بالسنغال اسمه "أحمد بمب"؟ فأجاب بالنفى. فسألته إذا كان بإمكانه أن يسأل عنه بين أصدقائه خاصة من السنغال، فوعد بذلك مشكورًا.

ولم تمضِ سوى أيام قلائل حتى اتصل بى ذلك الطالب الكريم واسمه "مصطفى أبو بكر"، ثم حضر ومعه زميل من السنغال، له معرفة بالشيخ أحمد بمب.

هذا الأخ السنغالى يدرس أيضا بالأزهر الشريف، واسمه "إبراهيم أنجاى" له منى أعظم الشكر والعرفان، فقد أمدنى بمعظم ما رجعت إليه فى كتابة هذه الصفحات، مُبديا فى ذلك معونة صادقة، وباذلا من الجهد مالا يكافئه عليه إلا الله، فجزاه الله خير الجزاء.

* * *

واليوم أحمد الله تبارك وتعالى، وأسجد له شكرًا على نعمته الجزيلة، فقد عرّفنى بواحد من رجاله العظام وأوليائه الصالحين المصلحين. رجل لا يكون مثله إلا فى أمة محمد.. خير أمة أخرجت للناس.

ولكن دعنا لا نستبق الأحداث ولا نتعجل النتائج، فأولى بنا الآن أن نقلب فيما أمامنا من أوراق ومراجع لنرى ونسمع خبر ولى الله الكبير سيدى أحمد بمب على قدر ما أتاحت هذه المصادر، والله سبحانه وتعالى المستعان على كل حال.

۞۞۞

خلفية تاريخية:

تقع السنغال فى أقصى الغرب من قارة أفريقيا حيث تطل على المحيط الأطلنطى من جهة الغرب، ويحدها شمالاً "موريتانيا"، وجنوبًا "غينيا" وشرقًا "مالى".

وكغيرها من دول القارة الأفريقية تعرضت السنغال للهجمات الاستعمارية

الأوروبية حيث تعاقب عليها البرتغاليون والهولنديون ثم أخيرًا الفرنسيون.

بعد سقوط الأندلس خرجت أوربا فى موجة صليبية مسعورة مزودة بتفوق عسكرى هائل لتنقض على العالم الإسلامى المترامى الأطراف، الموزع بين قارات الدنيا القديمة محاولة أن تطبق فيه ما نجحت فى تطبيقه فى الأندلس من محوٍ تامٍ للإسلام، وصحب ذلك طمع فى ثروات المسلمين وشره لايزداد مع كثرة النهب والسلب إلا حدّة وتفاقما.. وتوسلوا لتحقيق أهدافهم بالمداهنة والخداع حينا، وبالسلاح والقهر أحيانا..

عندما نزل الفرنسيون على سواحل السنغال سنة ١٦٥٢م كانوا يتقمصون دور التجار، وحاولوا إقامة علاقات ودية مع أهل البلاد الذين صدقوا فى البداية أنهم جاءوا للتجارة ومدوا لهم يد المساعدة، فراحوا يتغلغلون فى البلاد حتى صارت لهم بها قوة فكشروا حينئذ عن أنيابهم، وبدا للناس وجههم القبيح.

***

قام الشعب المسلم بقيادة مشايخ الصوفية بالتصدى لهذا الوجود الطفيلى المتسلط المُتَبجِّح، خاصة أنه راح يحارب الدين واللغة العربية، ويحاول قهرًا نشر ديانة التثليث عن طريق القساوسة والمبشرين المدعومين بقوة الجيوش والأساطيل، وبذل الفرنسيون قصارى جهدهم فى تلك الغايات ولكن الله أقام لهم من رجال الأمة من وقفوا فى وجه هجمتهم الإلحادية الشريرة، فحاربوهم بالسلاح على الرغم من تفوق سلاح العدو الكبير، وبذلوا دماءهم رخيصة فى الدفاع عن الإسلام.

يصور كتاب "أضواء على الطرق الصوفية فى القارة الأفريقية جانبا من تلك الصورة فيقول:

"قامت الطرق الصوفية فى القارة الأفريقية بدور كبير فى المجال السياسى والعسكرى، وتصدت بعنف للموجة الاستعمارية التى

اجتاحت العالم الإسلامى، وكانت القارة الأفريقية منذ مطلع العصور الحديثة وبعد طرد المسلمين من الأندلس فى عام ١٤٩٢م هدفا للدول المسيحية لضرب المسلمين ونشر الثقافة المسيحية فى القارة، ورصدت البابوية مبالغ ضخمة وشجعت الحكام والملوك على التصدى للدين الحنيف، وشهدت سواحل أفريقيا فى القرن السادس عشر موجات متلاحقة من الصراع بين الإسلام والمسيحية، ولذا وجدنا أن الطرق الجازولية والشاذلية والتيجانية والقادرية والسنوسية لعبت الدور الكبير فى التصدى لهذه الحركات الاستعمارية، ومن يطالع تاريخ أفريقيا فى العصر الحديث وحتى يومنا هذا يجد أن رجال الطرق الصوفية قد تصدوا للاستعمار والمستعمرين، ووقفوا لهم بالمرصاد فى كل مرحلة من مراحل كشف القارة، وكلما اكتشف الأوربيون منطقة جديدة من القارة وحاولوا نشر الديانة المسيحية بها كان المسلمون من رجال الطرق الصوفية ينافسونهم ويتصدون لمحاولاتهم، بل وفى كثير من المناطق أغلق المسلمون الباب أمام هذه التحركات المسيحية، وقاموا بدور كبير فى تحويل السكان الوثنيين إلى الدين الإسلامى، وأقاموا دويلات إسلامية بعد إعلان الجهاد هنا وهناك وصارت القارة الأفريقية فى القرن التاسع عشر عبارة عن خلية عمل متصل من الجهاد سواء فى الشمال أو الغرب أو الشرق، والتقى المصلحون من رجال الطرق الصوفية التى أدت دورا رائدا ووقفت بحزم وعزم، وكانت تجاهد بالسيف والقلم، تنشر الدين وتجمع الأتباع وتؤسس الدول ثم تواجه جحافل الأوربيين الذين انطلقوا فى موجات متصلة

بهدف استعمار القارة ونشر الحضارة الأوربية بها، ولولا وقوف الطرق الصوفية أمام هذه الموجات الاستعمارية لتغيرت صورة القارة، ولأصبح الدين الإسلامى منكمشا فقط فى جيوب صغيرة منها، لكن هذا الدور الصوفى ساعد على الصمود بحزم أمام رجال التبشير الأوربى، وتاريخ أفريقيا حافل بالبطولات الإسلامية التى عرضت الدماء رخيصة من أجل الدفاع عن هذا الدين الحنيف..".

***

من مشايخ الصوفية من لم يرفعوا سيفا ولا بندقية فى وجه أعداء الله، ولكنهم راحوا فى ثبات عظيم يشيدون بناء الإسلام فى القلوب، ويوسعون رقعته، يبنون قلاعًا من الإيمان واليقين. فكانوا أشد وقعًا على الكفار ممن حاربوهم بالسلاح، وكانوا أعظم أثرًا فى حياة الأمة لأنهم عملوا ليل نهار على تسليحها بالسلاح الذى لا يقهر: الله.

ولقد صدق إمامنا الشبلى رضى الله عنه عندما سُئل عن قول النبى ﷺ: "جُعل رزقى تحت سيفى" فقال: سيفه الله، أما ذو الفقار فهو قطعة من حديد. (الحلية ١٠/ ٣٧٥).

من هؤلاء كان صاحب هذه الترجمة، الشيخ سيدى أحمد بمب الذى سوف نسعد بصحبته من الآن إلى نهاية هذا الكتاب.

***

رآه أحد الصالحين فى رؤيا عجيبة قصّها بنفسه على الشيخ محمد الأمين صاحب كتاب "إرواء النديم" فقال:

"يا أخى كنت يوما أقرأ أحزابى من القرآن، فلما فتحت المصحف، فإذا الله تبارك وتعالى القادر على كل شىء كشف لى: "يوم

ألست بربكم" فشاهدت الواقعة، وعاينت الأنبياء نبيًا نبيًا، بجماعاتهم المقل منهم والمكثر. ثم شاهدت الأولياء وليًا وليًا بجماعاتهم المقل منهم والمكثر، حتى شاهدت شخصا – هو الشيخ أحمد هذا وقد سدَّ الأفق أتباعه – خرج من الحضرة، وتباعد قليلاً، ثم التفت إلى الحضرة وقال: من يبلغ عنى إلى ربى رسالة؟ مرتين أو ثلاثا. فوفقنى الله وقوانى فقلت: أنا.

فالتفت إلىّ وقال: أفلان؟

قلت: نعم.

قال: لئن فعلت وأتينا للدنيا لأفعلن لك ولأفعلن ثم لأفعلن. (ثم قال): قل لربى يزيدنى، إن أتباعى لكثيرون، ولا أريد لهم إلا ما تقر به أعينهم - أو كلامًا نحو هذا..

فدخلت وقلت كما قال. فرأيته خرجت له حثية، ثم حثية، ثم حثية، حتى سمعته قال: حسبى.

ثم انصرف".

۞۞۞

مولده ونشأته:

هو محمد بن محمد بن حبيب الله البكى، وُلد فى سنة ١٢٧١ من هجرة سيد الكائنات ﷺ الموافقة لسنة ١٨٥٣ من ميلاد السيد المسيح عليه السلام فى قرية "امباكى" التى أسسسها جده. وأسرته أسرة عريقة مشهورة بالعلم فقد كان جده عالمًا وفقيها،

وكذلك كان أبوه الذى عمل بتدريس العلوم الشرعية وعمل قاضيا ومستشارًا لدى الملك "لتجور".

نشأ بين أبوين كريمين فكان والده مثلا فى العلم والورع والتقوى والصلاح.

وكانت أمه السيدة مريام جارة الله غاية فى الصلاح وكانت كثيرة الصوم والصلاة والصدقة. قامت بتربية أولادها على الدين والطهارة وكثيرًا ما كانت تحكى لهم حكايات الصالحين.

فى هذا البيت الطاهر، وفى ظل هذه الأسرة الصالحة ترعرع، ومنذ فطامه أوكل والده شئونه إلى عمه العالم والمفسر الكبير، الذى تولى تحفيظه القرآن الكريم حتى ختمه فى سن مبكرة جدا. وبعد وفاة عمه سلّمه والده إلى شيوخ مبرزين فى العلم، منهم خاله الشيخ محمد بن حماد بن على البسوبى، وكان والده يتولى تعليمه أيضا حتى إذا ما بلغ مبلغ الشباب كان قد حصّل من العلوم قسطًا كبيرًا فاق أقرانه. ومع ذلك تاقت نفسه إلى الرحلة فى طلب المزيد من العلم ولقاء الشيوخ، فبدأ سياحته فى ربوع السنغال وموريتانيا لهذه الغاية، وسيجىء عما قليل -إن شاء الله- الحديث عن بعض من لقى من المشايخ والعارفين.

۞۞۞

تفوقه فى العلم:

فى هذا الجو العلمى الراقى نشأ وترعرع حتى برع فى مختلف العلوم الدينية والعربية براعة فائقة.

وصف الدكتور عامر صمب شدة ذكائه وقوة حفظه وإدراكه منذ صغره فقال نقلاً عن "منن الباقى القديم":

"وبالجملة فهو رضى الله عنه آية فى الحفظ والإتقان، أما القرآن

والحديث فهو وعاؤهما وخزينتهما ومنبع علومهما إتقانا وتفسيرًا، يفيض بأنواع العلوم والغوامض".

***

بدأ فى سن مبكرة فى التأليف والنظم، وكل ما كتبه من كتب وأشعار ورسائل كان باللغة العربية، واشتغل أيضا مع والده فى التدريس، وصنف فى تلك الفترة بعض الكتب تسهيلاً على الطلاب..

من مؤلفاته "مواهب القدوس" وهو نظم لكتاب الإمام السنوسى فى علم التوحيد، كما نظم فى فقه العبادات كتاب "الجوهر النفيس" عن كتاب للإمام الأخضرى، ونظم أيضا "مسالك الجنان" الذى وضع فيه أهم مبادئ التصوف التى تناولتها كتب المتصوفة الكبار مثل الإمام حجة الإسلام أبى حامد الغزالى فى "إحياء علوم الدين"، وله منظومات أخرى فى مختلف العلوم الدينية واللغوية.

إن حُسن التربية والتعلم إذا صاحبهما توفيق الله وعنايته حدثت المعجزة، وتفجر الخير عيونًا وأنهارًا.. وهذا ما حدث مع شيخنا رضى الله عنه وأرضاه.

***

منذ تلك الفترة المبكرة من حياته ذاع صيته حتى أطلق عليه البعض لقب: "سيد العلماء"، وتوافد عليه طلاب العلم والعلماء ينهلون من معارفه، واشتهر أمره لدى الأمراء والملوك، وأقبل عليه عوام الناس إقبالاً شديدًا، وانتفع كثيرون بمؤلفاته التى تضمنت أفكار الشيخ ودعوته الإصلاحية، حيث تناول بالنقد والتوجيه بعض ما يسود المجتمع من ممارسات ومعتقدات، وكذا ما يرتكبه الملوك والأمراء من مظالم فى حق الناس، خاصة الفقراء..

لقد ربط الدين بالحياة ربطًا أيقظ فى الناس محبة الإسلام والتمسك بأهدابه، وأدركوا أن هذا الشيخ الشاب التقى النقى الطاهر هو قائدهم الموعود، فازدادوا التفافًا حوله وإقبالاً عليه، واتخذوا من قصائده فى الدعاء والمناجاة ومديح المصطفى والصلاة عليه مادة يجتمعون حولها ويتقربون إلى الله بإنشادها، ويستمدون فى هذه المجالس قوة ونشاطًا، وتمتلئ قلوبهم محبة وحنانا..

وقد تشجع كثير من العوام على طلب العلم عندما نظم الشيخ مبادئه فى قصائد سهلة تُحفظ ويُتَغنىَّ بها، وكان طلب العلم قبل ذلك قاصرًا على أبناء الشيوخ والقضاة.

۞۞۞

كثرة مؤلفاته

هل كل ما كتب الشيخ فى حياته المباركة تم طبعه وتداوله بين الناس لينتفعوا به؟؟

هذا سؤال إنما يفرضه علينا تلك الكثرة المتناهية لمؤلفاته شعرًا ونثرًا، والتى أشار الدكتور عامر صمب مؤلف كتاب "الأدب السنغالى العربى" إلى بعض دلالاتها فقال:

"قضى الشيخ الخديم كل حياته فى التأليف، ولا سيما فى نظم الأشعار، وكان كثيرًا ما يستخدم التطريز، إذ جميع قصائده إذا جُمعت حروف أوائل أبياتها شكّلت آية قرآنية أو اسم رسول الله ﷺ.

والحق أن مؤلفاته لا يُحصى عددها كثرة، والسيد (فرناد دومو) الذى اعتقد أن هذا العدد لم يتجاوز ثلاثين ألف بيت تعجّب يوم ذهبت به إلى منزل بعض المريدين فأخرجوا من صناديقهم كُتبا شعرية أنشأها الشيخ الخديم لم يرها قط من قبل.

وفى شهر نيسان سنة ١٩٦٩م زرنا الشيخ المصطفى امبك ابن الشيخ البشير ابن الشيخ أحمد بمب، فقال لنا: هذا هو الفلك

المشحون من كتب جدى، نسخ منه جزءًا الشيخ حمزة جَخَت والجزء الآخر من خط الجدّ، ولا يحتوى هذا الكتاب إلا على قصائد طرّزها بحروف آى من القرآن، وعندى سبع صناديق ونصف صندوق ممتلئة بمخطوطات لجدّى.

ثم قال الدكتور عامر - نقلاً عن بعضهم- إنه من العجب أن يظن أحد أن هذا هوكل ما كتب الشيخ أحمد بمب، ونقل عن بعض المريدين ما هو معروف بينهم من أن كتب الشيخ تبلغ سبعمائة كيلو فى الوزن.

ولا أظن أن فى ذلك مبالغة، لأننا سنقابل فى أخبار الشيخ وأحواله ما يدل على أنه كان مُكبًا على الكتابة فى معظم أوقاته، وأن الظروف الصعبة لم تكن تمنعه عن الكتابة، فإن من يُملى عليه ما يكتب تسهل عليه الكتابة فى أى وقت وفى أى حال، غير من يكتب تكلفا أو صنعة.

۞۞۞

رفض الدنيـا:

كان فى حوالى الثلاثين من عمره عندما توفى والده، وكان والده يرجو أن يتولى مناصبه فى بلاط الملك "لتجور" من بعده، لذلك ولاه كتابة الرسائل والرد عليها بالإضافة إلى عمله فى التدريس.

وبالفعل عرض عليه"لتجور" –عن طريق بعض الوسطاء - منصب والده كقاضٍ وإمام لمدينة "مباك" ولكنه رفض هذا العرض قائلاً لهم: "أنا لا أذهب إلى الأمراء، ولا أرغب فى دنياهم، ولا أطلب الكرامة إلا من الله رب الأرباب".

وفى ذلك قال – شعرًا:

قالوا لِىَ ارْكَن لأبـوابِ السّــــلاطين   تَحُز جوائز تُغنى كُلّ ما حِــــينِ

فقلتُ حسبى ربى واكْتفيـــــتُ بـه ولستُ راضِىَ غير العلـمِ والديــنِ

ولستُ أرجو ولا أخْشى سِوى مَلِكى لأنّـه جَـلّ يُغنينى ويُنجــــــــينى

أنَّى أُفـوِّض أحـوالى لمن عَـجــــــزَوا عن حـالِ أنفسهم عَجْز المسـاكينِ

أو كيـف يبعثُنى حبُّ الحُطـام على جِوارِ مَن دورُهم رَوْض الشيـاطينِ

إن كنتُ ذا حزنٍ أو كنـت ذا وطرٍ دعـوتُ ذا العين قبل الرّاءِ والشِّـــينِ

وهو المعينُ الذى لاشــــىء يُعْجزهُ وهـو المكوِّنُ مـاشآ أىَّ تكــــــوينِ

إن كان عَيْبِىَ زُهْــــدًا فى حُطامِهِـمُ فذاك عيبٌ نفيسٌ ليس يُخْزينى

***

لكن مكانة الشيخ أحمد بمب، وكثرة الناس الملتفين حوله جعلا الملك لتجور يعـاود المحاولة مرة ومرات من أجل استقدام الشيخ إليه وتوظيفه فى بلاطه.

وكان أحد وزرائه ممن تاب على يد الشيخ وأصبح من أتباعه، فكان الملك يرسل معه ومع غيره الرسائل للشيخ يدعوه إليه، والشيخ يعتذر إما مشافهة أو كتابـة، وفى إحـداها قال للرسول الذى جاءه من عنده:

" قـل للأمـير: أسـتحى أن ترانـى ملائكـة الله تحملنـى أقـدامى إلى ملك غير الله".

ولعل إلحاح الملك عليه بالرسل والرسائل استمر على حاله حتى تناول الشيخ رقعـة وكتب عليها بخط يده:

" قـال محمـد بـن مـسلمة رضى الله تعـالى عنـه: العـالِمُ عـلى بـاب السلطان كالذباب على العذرة"

تقول الرواية كما جاءت فى "إرواء النديم":

"فدفع الأمير الكتاب إلى القاضى "مجَخَت" وهو المفتى الجليل.

فلما قرأها أعلن بالاسترجاع: – إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الأمير: ماذا قال؟

قال القاضى: لم يعنك، إنما يعنينى أنا.

قال الأمير: بالله إلا ما قلت.

قال القاضى: قال: "العالم على باب السلطان كالذباب على العذرة"

قال الأمير: وهو علىَّ أشد، إذ رآك ذبابا، ورآنى ما تعلم. ولكن أيها القاضى ما ترى فى أمره؟

قال القاضى: أرى أن يُترك، لأن مغالبته غرر، فمن غلبه يكون من أعلى الأعالين، ومن غلبه هو يكون من أسفل السافلين. وما أراه إلا غالبا.

قال الأمير: صدقت أيها القاضى، فلربما يجد الزارع فى بستانه بقعة لا تلين لحارث، ولا تنبت له زرعًا.

قال القاضى: نعم.

قال الأمير: (فلنعتبر الشيخ) تلك البقعة فى بلدنا هذا.

فانقطع بذلك الطلب، وانقشع الكرب والحمد لله".

* * *

هكذا انقضت هذه المحنة بسلام، لأن الملوك إذا أرادوا شيئا سعوا إليه بسطوة الملك والسلطان، وهى المحنة التى عانى منها كثير من سلفنا الصالح، وقضت على سفيان

الثورى – مثلا– أن يمضى بقية عمره فى الهرب والتخفى والفرار من بلد إلى بلد لأنه رفض أن يتولى القضاء لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى.

۞۞۞

معاملة الله

هذا رجل عرف ربه، فزاده الله معرفة ويقينًا أن الناس لا يضرون ولا ينفعون، عرف الملك الحق فتصاغر فى عينه ملوك الدنيا ورآهم – كما رأى سائر الناس– هياكل وأشباحًا تجرى عليهم أحكام القدرة.

لم تكن قوة أحمد بمب بكثرة الأتباع وتزايد أعداد الساعين إليه، بل لعله فى انشغاله بربهِ لم يلحظ ذلك أصلاً، ولم يُقم له وزنًا، مع أنه كان قد وصل إلى الغاية العليا التى يطمح إليها أى عالم ممن يطلبون الدنيا: علم غزير، ومؤلفات كثيرة مشهورة بين الناس، وأعداد غفيرة من المتعلقين به تتزايد أعدادها مع كل يوم جديد يجىء.

لكنه لم يكن يطمح لهذا، ولا كانت هذه وجهته، وإنما كانت وجهته الآخرة..

فأصبحت تستهويه السياحة فى أرض الله، بحثا عن المعرفة.. ورجاء الالتقاء بالرجال الذين يدلون على الله، كان يسعى لإلقاء نفسه على باريه، معتمدًا عليه، واثقا فى حسن تدبيره له، بغير زاد ولا راحلة، ولا شئ من أسباب الدنيا اعتمادًا على مسبب الأسباب وخالق الأرض والسماء.

تقول الرواية:

"وحُبِّب إليه التجرد والسياحة كالقوم.. إلى أن استولى عليه سلطان الهمة العالية.. فجمع الأصحاب وقام (فيهم) خطيبا، معتمدًا على عكاز عزم (وقال):

" ألا من كان صحبنا للتعلم، فلينظر لنفسه وليذهب حيث شاء، وليأو لجنسه، ومن أراد ما أردنا فليسر بسيرنا، وليقم بأمرنا". ثم انفصل داخلاً.

فأوقع كلامه الأصحاب فى (الحيرة)، فاضطربوا اضطرابا شديدًا بين من ينصرف ومن يبقى معه، ومن يمنع خليله من الذهاب، ومن يمنع من البقاء. كل ذلك والشيخ ساكت لا يسئل، مصمم لا يتردد، حتى آل الأمر إلى ذهاب الجل، وبقاء القل".

***

هكذا نضا عنه فى لحظة جماهيرًا عريضة يسيل لها لعاب الشيوخ، لم يبق معه إلا نفر قليل، ولكن الله إذا بارك فى القليل أصبح كثيرًا، وإذا نزع البركة من الكثير أصبح هباء منثورا.

هؤلاء النفر القليل صاحبوا الشيخ على مراده من معاملة الخالق ونبذ المخلوق، لم يتلقوا منه العلم فحسب، بل مع العلم العمل وتأجيج الرغبة فى سلوك طريق الله وطلب الوصول إليه. وهناك رواية عن أحد الثقات كما قال الشيخ محمد الأمين تقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد شافهه بقوله:

"رَبِّ أصحابك بالهمة، ولا تربِّهم بالدرس".

وهو الأمر الذى أكّده الشيخ فى شعره بقوله:

أَمَرَهُ صلى عليه اللهُ فى الآل والصَّحبِ ومَن والاهُ
بأن يُعلِّم المريدينَ ومَنْ يقبلُ منه النُّصح من أهل الزَّمَنْ
وأنّه أوْصله عن تَخْلِيهْ لِربِّه مُبشِّرًا بِتَحْلِيَهْ

***

ألا ما أجمل ذلك اللقاء الذى تم بين الشيخ والمريد، والذى نقله لنا كتاب "منن الباقى القديم" مصورًا أول لقاء بين الشيخ و"إبراهيم فال". وكان "إبراهيم فال" من طبقة الأمراء لكن نفسه المتوثبة للمعالى وروحه الطائرة دفعاه إلى البحث عمن يأخذ بيده فى طريق الله، فساقته أقداره السعيدة إلى سيد العلماء وصفوة الأولياء العبد الخديم سيدى أحمد بمب.

وصف هذا اللقاء بقوله:

" إن أول ما عاقدت الشيخ رضى الله عنه من العهد والبيعة قلت له: إنى لم يخرجنى من بيتى إلا طلب شيخ موصل، أجد من حاله نور حق تندفع أمامه ظلمات الخلق، وتنجلى به آيات الحق. لو لم أجد أحدًا ممن هذه صفته إلا قبره لبلَّغنى صدق نيتى فيه أملى، وإنى أبايعك على أن لا أحظى من الدنيا بشعرة، وإنما همى الله والدار الآخرة.

قال: فقال شيخنا رضى الله عنه: يا إبراهيم، أنا لو لم أجد من آثاره صلى الله عليه وسلم إلا منظر هذه النجوم والسماء التى تحقّقت أنه صلى الله عليه وسلم كان ينظر إليها لوثقت بأن نيتى فيه ومحبتى كفيلتان لى بقضاء الحاجة والأخذ باليد عن سابقة الحسنى من الله تعالى لمن رزقه الإيمان به والحب فيه، على أنى أبايعك على الامتثال والاجتناب، وترقية الهمة إلى الله، ولا ترج منى فى الدنيا عريشًا يظلك فضلاً عن أهل ودار"

هكذا تمت البيعة المباركة على ترك الدنيا، المناصب والمال والأهل والولد، ولقد قال قديما سرى السقطى رضى الله عنه – لمن جاء يطلب منه ما طلب "إبراهيم فال" من

شيخه- فقال له: إذا أردت الجنة فعليك بالعبادة، وإذا أردت الله فاترك ما سواه.

❋ ❋ ❋

أتى إلى الشيخ الخديم أحد الأمراء – وهو من أخوة الملك لتجور – وأخذ يشتكى له ما لقى من انفضاض أصحابه من حوله فى حربه للفرنسيين، ويشاور الشيخ فيما يعمل، فقال له الشيخ:

"إن الرأى فى تولى الدنيا أن تتولى عنها، فتترك لأرباب الدولة الجديدة دنياهم، فإن تلك القوة مستقبلة ولا يردّها شىء إلا أن يشاء الله، ولا ينبغى لعاقل أن ينازع فى ذلك، وأهل بيتك وإمارتك من الدنيا.

أما أنا فأقطع لك بأنك إن صرفت هؤلاء الذين معك، وتركت السلاح والخيل حتى تبقى وحدك ستجد ما هو خير لك فيما بينك وبين ربك، وتستريح من هموم الدنيا وغمومها كما فعل أخوك "مختار جوب" هذا".

❋ ❋ ❋

وكان مختار جوب قد حدثت له جذبة ربانية على يد الشيخ الخديم وصفها الشيخ محمد البشير صاحب "منن الباقى القديم" - بعد أن أورد ما سبق- فقال:

"وكان مختار جوب من أول من أسلم على يد شيخنا – رضى الله عنه قال مختار جوب: لما وقعت عينى على الشيخ رضى الله عنه ووجدته لا يدخل فيما يخوض فيه الناس، مقبلاً على شأنه من التلاوة والعبادة، ولا يرفع طرفه، دخلنى حال لا أعبر عنه من محبته مع خوف

واستعظام، فرجع الإسلام فى قلبى أول وهلة من نظرتى هذه، فذهلت عن جميع ما كنت فيه.

فأحس بذلك أخى (الملك لتجور)، وكان ذكيا، فجعل يسارقنى النظر مدة مُكث الشيخ فى ضيافتنا، وكان الحال يزداد فىّ، وأشربت فى قلبى حبه، فجعلت اقترب منه وأوثر مجالسته إلى أن فهمنى أخى (لتجور) وحين انصرف الشيخ إلى قريته رآنى ملجمًا مهمومًا، فتبسم إلى وقال: يا مختارجوب، أخاف عليك أن يكون هذا الشيخ ذهب بك؟ فقلت له: أجل والله.

فقال: إن شئت أن تذهب إليه فأذهب.

قال (مختارجوب): فكأنما أنشطت من عقال، فذهبت إليه وأسلمت على يديه، وسلكت معه إلى اليوم".

۞۞۞

السياحة فى طلب الشيوخ:

إن الذى يوفقه الله إلى صحبة شيخ عارف مرب لسعيد حقًا، لأن فضل هذا الشيخ على من يصحبه أعظم من فضل أمه وأبيه عليه، ومن أعظم فضلاً على الإنسان من ذلك الذى يأخذ بيده خطوة خطوة حتى يقول له: ها أنت وربك.

لذلك كان الموفقون فى كل زمان فى طلب دائم لشيوخ الصدق حتى يلازموهم ويتلقوا على أيديهم التربية.

وقد بذل كثير من أقطاب الأمة فى بداياتهم جهودًا كبيرة، وقطعوا مسافات طويلة فى البحث عن الشيوخ حتى إن سيدى أبا الحسن الشاذلى جاء من المغرب إلى العراق بحثًا عن الشيخ، وفى العراق أخبر أن شيخه بالمغرب، فعاد أدراجه إليه، حيث تمت سعادته

بلقاء شيخه سيدى عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه بجبل "علم" بالمغرب.

والقطب الكبير سيدى أحمد بن أدريس رحل فى طلب الشيوخ بعد وفاة شيخه سيدى عبد الوهاب التازى حتى إنه ليقول: "ومما وجدت من المنفعة فى خدمة المشايخ كان لى حرص عظيم، وكنت أظن أنى لا أنقطع أبدًا عن صحبة واحد بعد واحد".

والإقبال على الشيخ إقبال على الله، وكلما كانت الرغبة فى الوصول إلى الله شديدة كلما ظهرت فى شدة البحث عن الشيخ.

ويبدو أن شيخنا سيدى أحمد بمب كان –فى بدايته – شديد الاهتمام بهذا الأمر حتى إنه يصف – فيما بعد – هذا الدأب فى البحث بـ:"الجنون" حيث يقول:

يا أكرمًا لم يزل برًا ومقتدرًا ... يامن له تبت من أفعال مجنون

وقد بين هذا المعنى ابنه الشيخ محمد البشير إمباكى فقال: "وأما فعل المجنون فهو ذلك الجولان لطلب المشايخ".

وعلى الرغم من طول البحث وشدة الحيرة بسبب عدم العثور على الشيخ الذى يجذبه إليه ويتولى تربيته استمر فى بحثه ودورانه على الشيوخ، وفى هذا يقول:

إنمـا الأعمـال بالنيـات ... ونيتى التـبرك بالسـاداتِ

***

انكب على كتب الحقيقة وأهل السلوك، ينهل منها بشغف ويعيش معها فى أجواء روحانية سامية.

قال مؤلف كتاب "منن الباقى القديم فى سيرة الشيخ الخديم":

"نظر كل هذا بهمة عالية، وتوجه صادق، ونية خالصة. فتحصل له من جميعها وجود ضالته التى كان ينشد، والظفر بحاجته التى كان

يطلب، فأزداد به انقطاعا إلى الله تعالى وابتعادا عن الخلق. وجعل يتوغل فى الخلوات، ويألف الفلوات، زاهدا فى كل ما سوى الله، متقشفا للغاية القصوى، نهاره صائم، وليله قائم، لايفتر عن الذكر والتلاوة آناء الليل وأطراف النهار. رغبتة واحدة، وغرضه واحد وهو رضى الله تعالى ورضى رسوله، هائما مغرما به ﷺ".

۞۞۞

شيوخه:

الإسلام فى السنغال وباقى بلاد أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى هو التصوف، لا يعرفون الإسلام إلا من طريق الإحسان، فهم لذلك أقوى المسلمين إيمانا، لم يفلح التسلط الغربى النصرانى عليهم فيما أفلح فيه مع غيرهم من بلاد الإسلام، والطرق الصوفية الرئيسية فى تلك البلاد هى القادرية نسبة إلى سيدى عبد القادر الجيلانى الذى توفى سنة ٥٦١هـ، والطريقة الشاذلية نسبة إلى سيدى أبى الحسن الشاذلى الذى توفى سنة ٥٩٣هـ، والطريقة التيجانية نسبة إلى سيدى أحمد التيجانى الذى توفى سنة ١٢٣٠هـ .

وقد تنقل شيخنا بين الطرق الثلاثة فى رحلة سلوكه إلى الله، وقضى فى كل منها نحو ثمانى سنوات نال خلالها من أنوار كل واحد من الأقطاب الثلاثة، ومن علومهم وأسرارهم، لذلك يقول:

مشايخى سيدى الجيلانى   والشاذلى معه التيجانى

فى تلك الفترة من حياته اختلط بأهل الطرق الموجودة، واتصل بكثير من مشايخها، وارتحل فى طلب المزيد من العلم والمعرفة على يد من اشتهر فى زمنه من الشيوخ...

۞۞۞

الشيخ "مَجَخَت كَل"

كان القاضى والشاعر "مجخت كل" قد بلغت شهرته الآفاق، وكان يمثل عش اللغة العربية والأدب، قد ملك ناصية اللغة وأجاد فى نظم الشعر إجادة عظيمة وذاعت قصائده..

شُغف شيخنا سيدى أحمد بمب بلقائه والتّلقى عنه منذ شبابه المبكر، فرحل إليه ولازمه وصحح لديه بعض منظوماته الأولى فى الشعر.

قال مؤلف "الأدب السنغالى العربى" إن الشيخ القاضى" مجَخت كَل" هو الذى درب الشيخ الخديم على نظم الشعر، ومازال يدربه حتى برع فيه وتفوق. وقد أرسل القاضى إلى الخديم هذا البيت:

حُقّ البكاءُ على ساداتٍ أمواتٍ تبكى الأراض عليهم كالسماوات

فجعله مطلعًا لقصيدة له هى من أروع ما قيل فى رثاء السادات الصوفية. فلما وصلت هذه القصيدة إلى القاضى فرح بها واستبشر وقال: "الحمد لله الذى حبب إليه النبى ﷺ، فإنه لاينظم قصيدة إلا ولى منها أجر".

وإليك بعضا من أبياتها:

يالهف نفسى على فقد الأكابر من غابوا لرب دعاهم للعلوات

كانوا عبادا بطاعات لربهم وكان جلّ لهم ربا بمنّات

كانوا يعدون ترك الوِرد مع شبع من الحلال من أسباب المصيبات

كانوا إذا الليل أرخى الستر ذا حلك قاموا سراعًا لإحياء الدّجنات

باعـوا فضـــولا بذكر الله فالنوم فى الليل باعوا
خالقـــــهـم بالمناجات
تجفوا المضـــاجع فى ليل ناسين سلمى وليلى
جنوبهـم بالبشـارات
قوم بأسلحــــــةٍ أعـداءَهـم حتى علوا بالمزايا
قهَـروا والكـــرامـات
أركـان بيت جميــــع القــــــوم بها يؤســـس بنيـــــان
أربـعة الـولايات
صمت وجـوع طويـــــل بعـده وعزلةٌ عن شيوخ
سهـــر بالإشـــــارات
قوم طريقتهـــم تكفـــــى من المَريد وأنـــواع
المريـد أذَى الغــــــرورات

❋❋❋

كان الشيخ "مجخت كل" مولعًا بالعلم والثقافة منذ شبابه الباكر، وقد نشأ متوقد الذهن حاد الذكاء فصيح اللسان، ولا غرابة فى ذلك إذ أن أسرته كانت مشهورة بذلك وكان أبوه فقيها يفد إليه الطلاب من كل مكان، وتولى أيضا منصب القضاء لدى أحد الملوك.

نال "مجخت كل" منصب القضاء أيضا بعد أبيه، واتصل بالملوك ونظم فى مدحهم الأشعار الكثيرة التى تصور إعجابه ببطولاتهم، ونظم الشعر أيضا فى أغراض أخرى كثيرة..

وصفه الشيخ سعد أبيه الشنقيطى بقوله: "ما رأيت فى "كيور" (اسم إقليم فى

السنغال) أعلم من القاضى "مجخت كل".

وكان الشيخ سعد صديقًا حميمًا له، وكان قادريًا، ومع ذلك ظل الشيخ "مجخت كل" سنوات طويلة دون أن يأخذ بأى طريقة صوفية، وكان قد صاحب أيضا الحاج "عمر الفوتى" بطل الجهاد ضد الفرنسيين فترة من الزمن، ومع ذلك لم يأخذ عنه الطريقة التيجانية، حتى كان فيما بعد عندما أخذها عن أحد المشايخ، ونظم بعدها أشعارًا فى مدح سيدى أحمد التيجانى مؤسس الطريقة.

توفى الشيخ "مجخت كل" فى سنة ١٩٠٢م وهى نفس السنة التى عاد فيها الشيخ أحمد بمب من منفاه، وكان محبا للشيخ الخديم، وقد وصفه فى رسالة أرسلها إليه بقوله:

من لأحمد بمب تارك الناس   غير الإله فأمسى سيد الناس

❊❊❊

ومن قصائده ما كان ممنوعًا من التداول أيام الاستعمار الفرنسى، لأنه كان يهاجمه ويستخف بشئونه ولا يرى قيمة حقيقيه إلا للإسلام وثقافة الإسلام وحضارة الإسلام، منها هذه الأبيات وهى طريفة وعميقة معًا:

الله يعلم أنى لم أكن أبدًا   أهوى أناسًا أحييهم "ببنسورُ"

وما "كمندا" و"كبتن" لدى ولا   "سرسك"ولا"كلونل"إلا يعافيرُ

ولا "تلايير" ولا "فنترمر" معهم   "كبلار"قائدهم إلا خنازيرُ

وهم جحاش أتان بينهم نهقت   إذا حدقوا تداويهم بدكتورُ

حمدًاإذا ماالنصارى أخرجوا فلنا   من بعدهم لديار الدين تعمـيرُ

۞۞۞

الشيخ محمد اليدالى:

فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب أثبتُّ الشيخ محمد اليدالى ضِمن شيوخ العبد الخديم على الرغم من وجود فارق زمنى كبير بينهما يبلغ أكثر من مائة وخمسين سنة، لأنه قد اشتهر فى تراثنا الصوفى أن الأولياء لا يقفون عند حدود الزمان والمكان، فكم من ولى لله تلقى تربيته على يد شيخ سبقه بعدة قرون؛ الأمير عبد القادر الجزائرى – مثلا– تمت تربيته على يد الشيح الأكبر محيى الدين بن عربى، وبينهما سبعة قرون، والشيخ أحمد محمد حجاب المصرى ربّاه سيدى أحمد البدوى، وبينهما أيضا سبعة قرون.

لكن صاحب "إرواء النديم" قال إن المقصود شيخ آخر هو محمد بن محمد الكريم من بنى ديمان، وقال:

"والعامة عندنا يسمونه محمد اليدالى، وهو غير صاحب "الذهب الإبريز" فى التفسير، إذ ذاك يدالى ديمانى قديم".

وهذا لا ينفى أن يكون الشيخ أحمد بمب قد تلقى روحيًا عن الشيخ محمد اليدالى فيمن تلقى عنهم، خاصة أنه كان كلفًا بالبحث والتنقيب فى كتب القوم أثناء بحثه عن الشيوخ.

ولعل شيخنا كان له حظ من مدائح الشيخ اليدالى وعلومه وأخلاقه، كما أن لكل مادح لرسول الله ﷺ حظ من إمام المادحين محمد البوصيرى رضى الله عنه.

والآن، آن لنا أن نتعرف عليه ونطرب لأخباره ومدائحه..

* * *

هو أحد العلماء الأعلام، قيل إنه أحد الأربعة الذين لم يبلغ مبلغهم أحد فى العلم فى بلد العلم والعلماء: شنقيط (موريتانيا) وكان مشهورًا بالفهم والحفظ والصلاح. وبلغ من سعة اطلاعه أنه قال عن نفسه إنه قرأ جميع كتب العلم إلا كتابين.

وأخذ التصوف عن الطريقة الناصرية بالمغرب، وهى فرع من الشاذلية ومارس حياة التصوف بروحانية عالية واشتهرت له كرامات وأحوال سنية، وقد تناول سيرته نفر من الكتاب مبينين هذه الجوانب من حياته، مثل كتاب "النجم الثاقب فى بعض ما لليدالى من مناقب" للنابغة الغلاوى وكتاب "كرامات أولياء تشمش" وغيرها..

وصفه النابغة الغلاوى فى مقدمة كتابه بقوله: "القطب الولى المجدد ذى التواليف المفيدة والكرامات العديدة".

صنف الشيخ اليدالى العديد من المصنفات فى مختلف المجالات، من تفسير وفقه وعقائد وتصوف وسيرة وتاريخ إلى غير ذلك..

أما عن الشعر فقد كان شاعرًا مُجيدًا نظم قصائده فى أغراض عديدة إلا أن أهمها وأشهرها ما كان فى مدح النبى ﷺ، ومن أشهر ما نظم فى ذلك قصيدته "صلاة ربى" التى كانت – ولا تزال تُحفَّظ للأطفال فى الكتاتيب، وبلغ من إقبال الناس عليها وذيوع شهرتها أن قام الشيخ بعمل شرح لها فى كتاب أسماه: "المربى على شرح صلاة ربى" حيث استرسل فى عشق – فى عرض صفات الرسول ﷺ وآياته ومعجزاته.. ومطلع هذه القصيدة:

صـــــلاةُ ربى مع السّــــلام   على حبيبى خيرِ الأنـــــامْ
بادى الشَّفُوفِ دانى القُطوفِ   بَرّ عطوف ليثٍ هُمـــــــامْ
ذاك النّبى الهـاشمـــــــــى   ذاك العلى الهادى التُّهـــامْ
ذاك الرّفيع الغـــوثُ المنيـعُ   ذاك الشّفيعُ يوم القِيـــــــامْ

عينُ الكمال عينُ الجمـــال قُطبُ الجلالِ قُطبُ الكِرامْ

ويختمها بقوله:

يا من حَباهُ بمـــا حباهُ ثم اصطفاه هَبْ لى مرامـى

رب امح عنى ما كان منى سوءا فإنى بك اعتصـامى

وحُطْ ذنبى وأحْيِ قلبـى فأنت ربى مُحى العظـام

كفِّر ذنوبى واستُرْ عُيـوبى واكْشِف كُروبى واغْفِر أثامى

حقِّق مُنانا فيك امْتِنـانا واغْفر خَنَانا بذا الإمـام

قِنا البلايا وافتح لنا يـا جمَّ العطايا سُبل السّـلام

وارزُق لنا يا بارى البـرايا عِند المنايا حُسن الخِتـام

***

يروى أن الشيخ اليدالى كان عند "ابن هيب" أحد ملوك العرب فى موريتانيا، وكان عنده شعراء يمدحونه ويمجدونه فى قصائدهم، فأعجبته قصيدة منها فقلبها فى مدح النبى ﷺ. فلما علم ذلك "ابن هيب" وكان جبارًا من الجبابرة غضب غضبًا شديدًا وأرسل يستدعيه إليه، فلما سأله عما بلغه قال له الشيخ: قلبته (أى الشعر) فيمن هو خير منك. فأسقط فى يد ابن هيب ولم يحر جوابا وسكن غضبه.

توفى الشيخ محمد اليدالى -رضى الله عنه- سنة ١١٦٦ من هجرة المصطفى ﷺ الموافق سنة ١٧٥٣ من ميلاد المسيح عليه السلام، وكانت وفاته وهو يختم كتابه الجليل فى التفسير: "الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز".

۞۞۞

الشيخ سيديا بابا:

وصفه صاحب "الوسيط فى أدباء شنقيط" بقوله:

"هو العلم الذى رفع على أهل قطره، واستظل به أهل دهره، وماذا أقول فى رجل اتُّفِق على أنه لم يظهر مثله فى تلك البلاد".

اشتغل الشيخ سيديا فى شبابه بالعلوم وبرع فيها، ولازم الشيخ حرم بن عبد الجليل العلوى وكان يتفانى فى خدمته، وتُذكر له فى ذلك قصة طريفة تذكرنا بخدمة سيدى أحمد بن إدريس لشيخه عبد الوهاب التازى حين كان يقول لتلامذته: اشتقنا لفاكهة بلد كذا، فكانوا يقولون: لقد كبر الشيخ فيتكلم بمثل هذا، إلا سيدى أحمد، فإنه يقوم على الفور فيأخذ أهبته للسفر لإحضار طُلبَةَ الشيخ، فإذا ما جاء إليه مستأذنا فى السفر ومقبِّلا يده قال له الشيخ فى أذنه: "يا أحمد.. أمرنا هذا جدّ، فمن أعطى الجدّ يُعطى الجدّ". فبلغ سيدى أحمد بن إدريس ما بلغ!! مما يمكن مراجعته فى الجزء السابق الخاص بسيدى صالح الجعفرى.

كذلك كان الشيخ سيديا يفعل مع شيخه، ففى يوم أرسل الشيخ حرم إلى تلامذته أن يذهب أحدهم إلى الماء ليسقى البقر لأن الخادم المكلف بأمرها غير موجود، فلم يقم من بينهم إلا الشيخ سيديا..

فلما رجع بالبقر بعد أن سقاه جلس مع زملائه يقرأ الدروس فى ضوء النار، فأرسل إليهم الشيخ أن يحلب أحدهم البقر، فلم يقم إلا الشيخ سيديا، ثم رجع بعد أن حلب البقر، وجعل يقرأ فى الدروس حتى جاء أمر من الشيخ بأن يحضر أحدهم طعامًا للضيوف النازلين عنده، فلم يقم لذلك إلا الشيخ سيديا.

نال الشيخ سيديا من علوم وآداب شيخه علاّمة عصره الشيخ حرم بن عبد الجليل حتى تضلّع، ثم شد الرحل إلى الشيخ المختار الكنتى الذى كان من أفراد عصره علمًا وصلاحًا وولاية. وصفه الشيخ سيديا بقوله:

"جئته وقد انتهيت من تحصيل العلوم، فردّنى مبتدءا".

وبعد ستة أشهر مات الشيخ المختار، فبقى عند ابنه المعروف بالخليفة لقيامه مقام أبيه، فلازمه عشرين سنة يخدمه فيها حتى اكتمل حاله وبرع فى معرفة الطريق وعلوم الأسرار، ولما رجع إلى بلده استقبله الناس بما هو أهل له، واعترفوا بفضله وخضعوا له، وأصبح بينهم كالملك فلا يُخالَف أمره، وكان مضرب الأمثال فى الحلم والكرم، ولم تزل الدنيا تنثال عليه ويفرقها فى الناس، وبلغ من شأنه أنه أصبح حرمًا آمنا، يأوى إليه الخائف فيجد الأمن، يقول أحمد بن الأمين الشنقيطى صاحب كتاب "الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط":

"ولم يمض عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس، يطعمهم ويكسوهم، ويقضى جميع مآربهم حتى لقى الله، ولا يسأله أحد حاجة إلا أعطاه إياها بالغة ما بلغت.

وكان تلامذته يريدون أن يقللوا من ذلك، فما أمكنهم وسأله يوما، شخص، حمارًا. فقال: أعطوه الحمار الفلانى. فقالوا: إنه غائب. فقال: أعطوه الجمل الفلانى. فقالوا: إن الحمار قد حضر. فقال: أعطوه إياهما معًا. وجاءه أحد أبناء شيخه، فأعطاه جميع ما يملك من الدنيا، ثم عاد إليه بعد مدة. ففعل ذلك ثلاث مرات.

وكان يبلغه أن الطريق منقطع فى الجهة الفلانية، لعدم عمارتها، فيحفر فيها الآبار، ويبعث المؤن الطائلة يقرى المارين. وفضائله أكثر من أن تذكر".

***

ظل شيخنا سيدى أحمد بمب ملازما لشيخه الشيخ سيديا ينهل من علومه ويستمد

من أنواره حتى وقعت هذه الحادثة التى قطعت الشيخ عن أستاذه وعن كل أستاذ بعده.

***

فى ذلك اليوم أمر الشيخ سيديا تلامذته وقومه بأن يرتحلوا من مكانهم إلى مكان آخر لمصلحة رعى الماشية، لكن سيدى أحمد بمب لم تبد عليه آثار الاستعداد للرحيل مع الباقين، فلما طال عليهم أمْرُ تلكُّوء الشيخ فى الارتحال قال له أحدهم:

- أيها الشيخ أنت أعلم منا فنسألك: أهكذا يفعل المريدون مع أشياخهم؟

فقال له الشيخ:

- يأتيك الجواب إن شاء الله تعالى.

وكتب له على رقعة:

"إنى لست بتلميذ لكم، والشيخ سيديا يعلم أنه ليس بشيخ لى، وحرام علىّ أن أتعلق بأحد على وجه الأرض، وذلك ليس بازدراء للمشايخ منى ولا استحقارًا لهم، إنما ذلك من وجه أن رسول الله ﷺ أقبل علىّ يربينى ويرقينى ويحرّم على الإدبار عنه – عليه الصلاة والسلام".

لقد أقبل عليه معلم البشرية وهاديها يعلمه ويؤدبه، فمن بعده يصلح أن يكون له معلما؟

إن لذلك قصة وأحداثًا يحسن بنا أن نرجع إلى الوراء قليلا لنستجلى خبرها.

۞۞۞

عطاء بعد عطاء:

سبق أن ذكرنا أن الشيخ أحمد بمب -رضى الله عنه- أمضى حوالى ثمانى سنوات فى كل طريقة من الطرق الثلاثة المعروفة آنذاك وهى القادرية والشاذلية والتيجانية، وفى تنقله من طريقة إلى أخرى، ومن شيخ إلى شيخ لم تهتز صورة الطريقة أو شيخها فى نظره طرفة عين، وكان محبًا للأقطاب أصحاب الطرق ومؤسسيها، معظمًا لهم، عارفًا بقدرهم، فارتفع فوق ما يقع فيه كثير من أبناء الطريق حين يصل بهم تعلقهم بشيوخهم وبطريقتهم إلى الحط من الطرق الأخرى ومشايخها. وهذه آفة نسأل الله العلى القدير أن يعافى منها أهل التصوف!

يقول الشيخ – رضى الله عنه – فى إحدى قصائده:

مشايخى سيدنا الجيلانى   والشاذلى معه التيجانى

فى أثناء ذلك فتح الله عليه من أبواب العطاء ما يجل عن الوصف.. عطاء بعد عطاء. والله يرزق من يشاء بغير حساب.

***

أول عطاء فى هذا المجال عبّر عنه شيخنا بقوله:

ملكنى مالك كل جامع   وكل مسجد منى المجامع

وكلمة "المجامع" يقصد بها الطُّرق التى كان قد التزمها واحدة بعد الأخرى، وهى القادرية والشاذلية والتيجانية، لقد بلّغه الله مراتب هؤلاء الأقطاب الثلاثة، جمعها له فى عطاء وهبى من يد الكريم ذى الملك والملكوت. وملك الملوك إذا وهب.. لاتسألن عن السبب.

فراح يناجى مولاه شكرًا قائلا:

لى قُدت ما فاق به الجيلانى   عليه رضوان الذى أعـــلانى

لى قُدت ما بـه أبو الحســـــن فاق بخدمة النبى جد الحسن

تمت لى بها به التيجـــانى فاق وكنت لى بالمرجــــــان

۞۞۞

الصلة بسيد الأنبياء ﷺ:

أما العطاء الثانى فهو أجل وأعظم، لقد وصله الله بسيد الأنبياء ﷺ يتلقى منه مباشرة، ويلزم باب خدمته طول الحياة.

لقد تشرف بخدمة المصطفى ﷺ رجال جعلهم الله من خيرة أهل الأرض، منهم أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما، نالوا بخدمته ﷺ فوق السعادة سعادة، وفوق الفوز فوزا، وفوق النعيم نعيمًا لا ينقضى أبدا.

هذا مقام تشرئب إليه أبصار العارفين، وتتطلع إليه همم أهل الله، فهذا الشيخ يوسف النبهانى العارف الكبير يغبط ابن مسعود على خدمته للحبيب ﷺ إذ اختص بحمل نعل النبى ﷺ وعصاه، ويمشى أمامه حتى يجلسه فى مجلسه، فقال النبهانى محاولا اللحاق بركب أهل السعادة:

سَعِدَ ابنُ مسعودٍ بخدمة نعلِهِ وأنا السعيدُ بِخدْمتى لِمثالِها

* * *

سيدى أحمد بمب فاقت رتبته الرتب، وأعطاه الله فوق ما طلب، تولى النبى ﷺ تربيته بنفسه، وأعطاه فى اليقظة لا فى المنام الورد الذى سيلتزم به أتباعه فى طريقة جديدة خاصة به، تتولى إصلاح وتجديد طريق السلوك إلى الله. وفى ذلك يقول:

بالمصطفى لى بنى القدوس مدرسة بها يزول الأذى والجهل والكبد

* * *

وكـما استعـصت معجـزة الإسراء والمعـراج عـلى فهـوم الـبعض فأنكروهـا، فكـان إنكارهم لها سببا فى خروجهم من الإسلام بعد أن كانوا قد دخلوا فيـه، عـلى الـرغم مـن صـحبتهم للنبـى ﷺ،كـذلك تستعـصى بعـض عطـاءات الله لأوليائـه عـلى فهـوم ضـعاف القلوب، فينكرون ويجحدون.. وقد نال الشيخ أحمد بمب من هؤلاء نصيبًا، وكـان أكثـر ما أُنكر عليه قوله إنه يتلقى مباشرة عن رسول الله ﷺ.

هذه قصة تبين ذلك، حيث قـيض الله للـدفاع عنـه رجـلاً منـصفًا هـو الـسيد الجليـل الحاج عبد الله سيس:

"تكلم قوم فى مجلسه حتى ذكروا الشيخ وأخذه ورده مـن رسـول الله ﷺ. فتكلم شخص من الحـاضرين، كأنـه معـترض، فـانتهره الحـاج وقال:

مـا تقـول؟ ألم يقـل الـشيخ أحمـد التيجـانى إنـه أخـذ بعـض أوراده بإملاء من رسول الله ﷺ؟ قال: بلى.

قـال: ومـا كـان إلا عالمـًا عـاملاً، تقيًـا سُـنيًا، حـسنت ظنوننـا بـه فصدقناه. وهل هذا إلا مثله عالما عاملاً، تقيـا سُـنيا، فـلا يـسعنا إلا أن نصدقه بحُسن ظننا الذى صدقنا به ذلك".

***

لما أشرق نور المصطفى فى قلبه اطمئن، وسكن إلى مرفأ السلامة. قال:

زهدنى طلوع شمس فى النظر إلى النجوم فى السماء والقمر

زهدتنى خدمته المرضيـــــة فى خدمة الملـوك للهديـــــة

لم يعد له شغل إلا بالحبيب ﷺ، ومن اشتغل بالحبيب ﷺ أصلح الله به، وبسط له

قلوب العباد بالمحبة والإقبال..

يشكر شيخنا ربه جل وعلا بذكر نعمائه وفضله إذ أعطاه مقامان شاهقان عظيمان: مقام الخدمة ومقام المدح لسيد الثقلين ﷺ، وفى ذلك يقول:

لى قدت مازحزح عنى الدنس   صرت خديم المصطفى مثل أنس

ملكتنى وقُدت لى إحســـانا   ورثت فى مدح النبى حســـانا

ويتكلم شيخنا عن بيعة بايعها رسول الله ﷺ فيقول:

أبايع اليوم الرســـول المصطفى   بخدمة وأســـأل الله الوفـــا

أعاهد الله على أخذ الكتاب   بخدمة للمصطفى باب الصواب

أحق جملة الورى بخـــدمتى   بالنظم والنثر رسول الرحمـــة

فما هى هذه البيعة؟! ومتى كانت؟

۞۞۞

يا أيام العسر والشدّة..

كم لك على أمة الحبيب من أيادٍ !؟

رأينا فى صفحات سابقة كيف انقضَّ القراصنة المجرمون على بلاد الإسلام فى غرب أفريقيا، وكيف أرادوا تحت شعار الصليب أن يطمسوا نور الله، ولكن هيهات فللإسلام رجال يقومون بنصره، ويفتدونه بأرواحهم.

اختار شيخنا فى جهاده لقوى الشرك المتسلطة طريق السلام، والعمل على تربية الرجال، ومشايخ الطريق منذ الأزل يقولون: إن الطُّرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق. فمن جاهد فى الله بالسلم وصل، ومن جاهد فى الله بالحرب وصل، المهم أن تكون الغاية هى الله، ولا شىء سوى الله.

كم من رجال وشيوخ وصبيان سقطوا فى ساحات الوغى، ورووا أرض الإسلام بدمائهم، وكم من نساء هتكت أعراضهن فى الله، وكم من أبرياء قتلوا بغير جريرة ارتكبوها، وكم من أسر وقبائل تشرّدت فى آفاق الأرض، وكم من فارٍ بدينه مات عطشًا فى الصحراء القاحلة، أو قتله وحش أو هامة فى الغابات المظلمة.. وكم من رجال ونساء وأطفال حملوا قسرًا فى سلاسل الحديد ليباعوا عبيدًا فى بلاد الكفر..

حتى من اختاروا طريق المسالمة كشيخنا سيدى أحمد بمب لم يسلموا من أذى العدو وطغيانه.

***

الذين وصفوا الشيخ سواء كانوا من أعدائه أو من أحبابه اتفقوا على أنه كان يميل إلى التأمل والعبادة، قد زهد فى الدنيا وسما بهمته عن الاشتغال بها عن ربه، لذلك كان يبحث عن الأمان والسلام، وربما أحب أن يخلو بربه فما تمكن من ذلك لكثرة الواردين عليه اللائذين بجنابه الذين وجدوا فيه ما طال بحثهم عنه وسعيهم إليه.

لقد طلب الله وحده، فأتته الدنيا راغمة، تمثل هذا فى أروع صورة فى ذلك الإقبال المنقطع النظير من الناس عليه حتى وصف بعضهم ذلك فقال: "فصار الطريق إلى داره كالطريق إلى السوق"، يفدون إليه زرافات ووحدانا حتى ضاقت بهم الأرض، فخرج إلى البرية واختار موقعًا ليبنى فيه مدينة "طوبا" التى أصبحت فيما بعد من أكبر مدن غرب أفريقيا، وأصبحت بعد مكة والمدينة قبلة لأرواح الملايين من "المريدين" مُتبعى طريقته، أو عارفى فضله.

رأى الناس فيه سمات الولاية، وعلامات التأييد الإلهى، فأقبلوا عليه، وتكاثروا حوله مما أثار حفيظة السلطات الفرنسية، فسعت بكل وسيلة لصرف الناس عنه دون جدوى، فكانت الفرصة السانحة عندما تقدم بعض ضعاف النفوس إلى الفرنسيين

بوشاية كاذبة فى حق الشيخ مفادها أنه يجمع الأسلحة استعدادًا لإعلان الجهاد ضدهم.

فتم القبض على الشيخ ومحاكمته والحكم عليه بالنفى إلى جابون حيث أمضى فى منفاه ثمانى سنوات إلا قليلا، ثم رجع إلى وطنه وبعد سبعة أشهر تم نفيه مرة أخرى إلى موريتانيا ليبقى بها مدة تناهز سبع سنوات، رجع بعدها إلى أرض الوطن لمدة خمس سنوات، ثم أمر الحاكم الفرنسى بانتقاله إلى مقر إقامته الجبرية فى "جوربل" التى أمضى فيها خمسة عشر عاما حتى لقى ربه.

لكن هذه الاجراءات من التضييق على شيخنا ومحاولات الإضرار به لم تزده إلا قوة وثباتا، وهو الصادق حين يقول:

درجتى تعلو وليست تنخفض ومن نحا من الورى خفضى خُفض

* * *

هل خاف الشيخ من قوة البطش التى لا خلاق لها ؟ هل خاف من أسلحتهم وأساطيلهم وجيوشهم ؟ هل خاف من أعوانهم وعملائهم وجواسيسهم ؟

حاش وكلا، فمن خاف الله أمن من كل شىء، فهو فى الأمن يرفل مع وجود السجان وقضبان الحديد .

يخاطب الشيخ سجانيه ساخرًا من ضلالهم فيقول:

يا جملة قد ثلثوا بضلالهم من لم يكن ولد له أو والد

أخرجتمونى ناطقين بأننى عبد الإله وأننى لمجاهد

وظننتم أن المدافع عندنا والكل منكم ذو قلى ويحاسد

ومقالكم حـــق فإنى وخـديم عبد الله وهو الحامـــد
عبـــده
إنـى أجـــاهـد بالعـــلوم عبدًا خديمًا والمهيمن شاهـــد
وبالتـــقى
سيفى الذى يفرى طلى من ثلثـوا توحيده فهــــو الإلـه الواحــــد
ومدافعـى التى بها أنفى وبهـا يفـارقنى عنيـد قاصـد
العـــدى
ذكر حكيــــم أحكمـــت ممن يزحــزح ما يــريد المـــارد
آيـاتـه
أما رمـاحى فالأحـــاديث وردت عن الماحى ونعم الوارد
التى
أما الفروع فأسهـم قـد حـــددت لحديثه إن الفروع شواهـــد
أما الذى يتجسس الأسرار لى فتصوُّف صاف جلاه أمـــاجـد

***

نعم.. إن ما ذكره الشيخ من أسلحة العلم والتقى هى بحق أشد مضاء من أسلحتهم، لأن الذى يعرف ربه، ويتصل به يمدّه الله بمدده الذى لا يُحد ولا ينفد، يصف ذلك مولانا الرب الكريم بقوله:

"لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه".

ولسوف نجد مصداق ذلك فى حياة الشيخ فى الصفحات التالية، صفحة بعد

صفحة..

۞۞۞

فى المنفى:

ركب سيدى أحمد بمب السفينة الفرنسية التى ستنقله إلى منفاه فى "جابون". كان بمفرده بين أعدائه الذين ظنوا أنهم قد ملكوا أمره وهيمنوا عليه، لكنه قابل ذلك كله بالصبر والتسليم حتى انقضت المحنة..

قال ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه "التنوير فى إسقاط التدبير":

"من استسلم لله فى واردات الامتحان أعاد الله عليه شوكها ريحانا، وخوفها أمانا".

ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وصور هذا الدفاع لا يحصيها إلا الله.

وقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ فهم فى أمن بجوار ربهم مهما كانت الظروف!

وقال: "من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب" وحرب الله غير حروب البشر، فهو الرب، وكل الكون له عبد، فأين العبد من الرب، وأين المخلوق من الخالق.

إن كان هذا هو الشأن مع ولى الله سيدى أحمد بمب فأى بأس يُخشى عليه منه؟

* * *

عندما جاء وقت الصلاة -أول صلاة على السفينة- وأراد أن يصلى منعه قبطانها قائلا له إن هذه السفينة أرض مسيحية ولا إذن له فى أن يصلى بصلاة المسلمين عليها.

فألقى الشيخ سجادته على الماء ووقف عليها وصلى حتى أتم صلاته بمرأى من ركاب السفينة. وهى الكرامة التى رسمها الفنانون السنغاليون فى لوحات عديدة، ومع

ذلك لم أجد لها ذكرًا فى أى من المراجع التى أتيحت لى سوى الكتاب الإنجليزى الذى سبق ذكره، فهل أصبح المسلمون اليوم يستحون من ذكر كرامات أولياء الله التى وهبها الله لهم علامة على صدقهم، وتثبيتا لأهل الإيمان؟ والتى ما أبرزها الله إلا ليُنتفع بها، ولو شاء لأخفاها.

لقد انخدع كثيرون منا بظن أن المنهج العلمى هو الذى ينأى بنفسه عن ذكر الغيبيات.

وهذا من أعظم الخطأ إذ أن الإيمان بالغيبيات زيادة فى العلم لأن ما علمه الناس فى كل زمان ومكان فى جنب مالم يعلموا يشبه أن يكون قطرة فى بحر، فتجاهل الغيبيات هو الجهل بعينه، نعوذ بالله من الجهل، ونعوذ بالله من الإصرار عليه.

إن المؤمن إذا عظم الله فى قلبه تضاءلت فى عينه الأشياء، لذلك كان خالد بن الوليد رضى الله عنه ينظر إلى الآلاف المؤلفة من جنود الأعداء فى الخيل والسلاح والعتاد فلا يبالى بهم وكأنه ينظر إلى الذباب.

وشيخنا لم يبال بأعدائه، ولم ير لهم خطرًا، على الرغم مما لهم من سطوة ظاهرة.

۞۞۞

العنايـة

تولته عناية الله، وأحاطت به إحاطة السوار بالمعصم، فى أموره كلها؛ صغيرها وكبيرها. قلّبته فى الأحوال، وضبطته على صراط الله المستقيم، الذى هو كشعاع النور فى استقامته، وكحد السيف فى دقته، حتى أصبح ربانيًا خالصًا، لا حظ لمخلوق فيه..

رأينا سابقًا الشواهد على ذلك، وسوف نرى المزيد منها فى طول مسيرنا معه – رضى الله عنه.

بينما هو فى المنفى يتقلب من شدة إلى شدة، طال مكثه فى بعض المواضع حتى تسرّب السأم إلى نفسه، فشكى إلى ربه ما يجد، ولكن أنى لمن كان مثله أن يتضجّر من فعل مولاه حتى وإن كانت شكواه لله لا لأحد سواه، يقول صاحب إرواء النديم:

"فبمجرد شكايته سلّط الله عليه نملاً كبارًا كثيرًا تؤذيه إذاية. (يقول الشيخ): فلما علمت أنى دُهيت من جهة نفسى ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾. نسخت شكايتى بالشكر فقلت:

نَسخْتُ بالشكرِ شِكايةً فَلا أشكو لهُ ضُرًا، فضُرِّى أَفَلاَ

***

وعندما كان فى السفينة فى طريقه للمنفى، جاءه رجل، وتكلم معه مبديًا محبته وحرصه على سلامته، ثم نصحه قائلا:

"إن هناك أميرًا جديدًا قدِم من أرضهم (أى من فرنسا) لما يختلط مع السّوادين، لو كتبت إليه كتابًا يُعلمه بأنك مظلوم، لردّك إلى دارك وعيالك.

قال (الشيخ): ولم يزل بى الرجل حتى أمالنى، فتناولت المداد والقلم، فلما هممت وكتبت سطرًا أتانى الخطاب من حضرة رب البرية: أترفع حاجتك إلى مخلوق مثلك دونى؟

فمُتُّ خوفًا وحياءً، ومحوت ما كتبت، فألح علىّ الرجل، فقلت: لا سبيل إلى ذلك".

***

وكان الشيخ -وهو فى المنفى- مترفعًا على سجانيه، لا يكلمهم ولا يخالطهم، ولا يطلب منهم شيئا ولا يرجو منهم نفعا. فى واحد من تلك الأيام نفد ما عنده من الحبر، فطلب من الحاكم الذى سارع بإعطائه وعاء كبيرًا من المداد، فشرع الشيخ يكمل الكتابة فى قصائده، فإذا به يُنادى: إن هذه خيانة، تتركهم مطلقًا، ثم تأخذ منهم خُفية!

قال الشيخ: "فانتبهت، ثم حفرت حفرًا عميقًا، وصببت فيه المداد، فعلمت صدق جهادى، فالحمد لله".

* * *

ونختم هذا الفصل بهذه القصة العجيبة التى يرويها لنا الشيخ بنفسه نقلاً عن كتاب "إرواء النديم" للشيخ محمد الأمين. قال:

"ذُكر أن أميرًا منهم (أى الفرنسيين) نزل بجيشه فى الجزيرة التى هو فيها، بعد أن كان الناس يترقبون نزوله، فاشتغلوا بتنقية الطرق، ونصب الألوية أيامًا. فلما نزل بدأ بى، وسأل عنى، فدُلّ على بيتى، فدخل علىّ وسلّم، وذكر اسمى بالتعظيم، ومد إلىّ يده ليصافحنى، فمددت يدى، فإذا أنا بخطاب كأنه صاعقة من السماء:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾

فغُشى على عقلى، فصرفت يده صرفًا عنيفًا، حتى تدأدأ- أى تحرك - وتباعد منى قليلا. فوقف طويلاً كأنه يتفكر وينظر فى أمرى. كل ذلك وأنا أكتب، وبعد ساعة دعا ترجمانه، وتكلم معه طويلاً، فجاءنى الترجمان وقال لى: يسلم عليك الأمير، ويقول لك: لاتجد عليه، فإنه ليس ممن يبغضك، ولا ممن أزعجك وغرّبك عن أوطانك، بل هو لو استطاع الآن لردّك. وإنما اعتنى بك، وبدأ بك قبل نزوله

لأن فلانا من إخوانك السنغاليين -من خاصة أحبابى- شوقنى إليك، وطلب منى أن أسلم عليك عنه، فإنك من أحب الناس إليه، فلذلك أتيتك محبًا لا غير.

فقال الشيخ للترجمان: قل له ما فعلت ذلك ظنا بك بغضا.. فلم يُظهر تغيّرا.

فلما اطمأن فى مجلسه قيل لى: أكرمه. وكان عندى عِدْلٌ من خبزهم المخلوط بسكر، فى غاية الحلاوة، فأرسلته إليه ففرح به، وشكر لى سعيى، ثم قال: مثل هذا لو وقع ممن يُظهر الشجاعة تكلّفا لضره ذلك.

ولكن لا ضرر مع الإذن، فالحمد لله".

ذكر هذه الواقعة الشاعر الموريتانى عبد الله السالمى بن حنبل فى قصيدة له يمدح بها الشيخ ويعدد بعض خوارقه، ومنها قوله:

ومُعتدٍ مُرْتدٍ أثوابَ عِزَّتِهِ يختالُ بين قَبائِهِ وزنّارِهْ

تمشى أُلوفُ أُلوفٍ تحت سَطْوتِهِ لم يُعْن قطُّ بِناهيهِ وأمَّارِهْ

أنزلْتُموهُ حضيضَ الذُّلِّ مُنكسِرًا بسيفِ نَصْرٍ حَديدِ النَّصلِ بَتَّارِهْ

نَصْرٌ مِن الله للعَبْدِ الخَديمِ بِه صارت جُنودُ نَصارَاهُ كأنْصَارِهْ

لَوْ باحَ بالسِّر أبدى لِلوَرَى لكِنَّما صدرُهُ قبرٌ

۞۞۞

قال الشيخ فى إحدى قصائده:

أسيرُ مع الأبـــــــرار حين أسيرُ وظَنَّ العِدَى أَنِّى هنـــاك أسـيرُ

يظنُّوننى وقْتَ اغتـــــــرابٍ لديهمُ أسيرًا لهـم والكُـــلّ ثَم يَحــورُ

حيارَى أسارَى للشياطينِ والهَوى وإنِّى لربِّ العــــرشِ جَلَّ أسيرُ

أسيُر إلى ذى البَرَّ والبحـرِ عابـدٌ ولستُ إلى الفُجّارِ قطُّ أسيرُ

* * *

تُرى من هم أولئك الأبرار الذين كانوا معه؟

أهم من أولياء الله أم من ملائكته، أم من الأرواح الطاهرة؟

أَيًّا ما كانوا، فقد وجد -بعد طول الصبر والمعاناة- الصحبة المؤنسة المؤيِّدة، حتى يثبته الله، ويقيم به -وبأمثاله- موازين الحق فى الأرض، فإن كانت الغلبة العسكرية قد تمت لأهل الشرك على أهل الإيمان فهذا لايعنى بحال من الأحوال أن تعلو قيم الغالبين، لأن الإسلام عزيز وإن ذلّ أهله، والكفر ذليل وإن علا أهله. هذا ميزان الله الذى أقامه فى الناس، وكل ما سواه من موازين باطلة، وسوف يشهد على بطلانها يوم قريب، أقرب إلى كل أحد من شراك نعله.. يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه.

لذلك لا نتعجب عندما نسمع قول الشيخ وهو فى أيدى أعدائه يقول:

كتبتُ فى البحرِ أَنِّى لا أمدُّ يدى إلى النّصارَى عبيدِ المالِ والطينِ

* * *

ولما نزل بقدميه إلى رصيف جزيرة "مايمبا" التى سوف يقضى فى قفرها معظم سنوات المنفى يلقى بنظره إلى البحر الذى تمخر فيه سفن أهل الشرك يمينا وشمالاً وشرقا وغربًا بعد أن هُزمت البحرية الإسلامية وزال سلطانها عن تلك البحار، فيقول له مخاطبا:

أيا بحــرُ وَحِّــدْ لا تُثــلِّثْ فربُّنا تعالى عن التّثــليثِ أكــرِمْ بهِ رَبّا

لِىَ اشْهد بِكوْنى عبد من يغفرُ الذّنبَ وكَوْنى خديم المصطَفى بحر "مايمبا"

لِىَ اشْــهد بأنى لا أُداهنُ مُشــركًا خليلاً حبيبــا للّذى كرّمَ الجنبــا

فكنُ ذا اضطرابٍ مُزبدًا مِن مخافــةٍ مِن الله واشْهد أنّنى عبــدُهُ صَبًّا

* * *

هل حاول أعداؤه أن يقتلوه فى فترة المنفى؟ أو أن ينالوا منه بأى شكل من الأشكال؟

نعم.. لا أشك فى هذا، لأن هذا الأمر من سنن الله فى الكون، فربنا جل وعلا ألصق بكل حق باطلا يناهضه ويحاربه، حاول اليهود أن يقتلوا سيد الكائنات ﷺ بالسم وبإلقاء الحجر عليه، وحاول المنافقون قتله فى إحدى الغزوات، وحاول مشركو مكة ذلك أيضا مرارا..

ولكن الله ما أمكنهم منه، بل حفظه ونصره، وأظهر على يديه خوارق وآيات يزداد بها المؤمنون إيمانا، والجاحدون بُعدًا وكُفرانا.

ذكر الشيخ إحدى المحاولات التى قاموا بها لقتله فقال إنهم جعلوه فى طريق ضيق،

وأطلقوا عليه بقرة عادِيَة. قال فى عبارته:

"وهم واقفون ينظرون إلىّ، وظنوا أنها تنكبّ علىّ. فلما دنت منى طارت كأن لها أجنحة".

وهى الكرامة التى اشتهرت، وذكرها الشعراء فى قصائدهم منها قول عبد الله السالم بن حنبل:

بِكرٌ من البقرِ الأهلى طائرةً   فى الجوِّ حتّى توارَتَ فوق طيّارهْ

* * *

وأخرى ذكرها- أيضا - الشيخ بنفسه، إذ كان منشغلاً بالكتابة حين دخل عليه رجل شاهرًا سيفًا، يقول الشيخ:

"فجعل يدوره على رأسى، ويقول لى:

- أنت فلان؟ باسمى.

فقلت: نعم.

فقال: احذر منى، فإن جدى كان قتالاً للأولياء، فأنا ابنه.

فأومأْت إليه بالقلم، وانتهرته كأنى أسطو عليه:

- اعلم بأنك لست بجدك القتال، وأنا لست كمن كان جدك يقتلهم.

فأرعدت فرائصه، وانهزم أمام القلم".

* * *

وأيّده الله بالملائكة لما تآمروا على قتله، قال فى "النهج القويم":

"وأخيرًا صمموا على القضاء عليه رميًا بالرصاص، وأعدوا له

العدّة، وهيأوا الظروف الزمانية والمكانية، وحدّدوا الوقت، فلما حان الوقت وأزفت الساعة وصدرت الأوامر إلى المكلفين بالعملية، تراجع هؤلاء فجأة لأمر ما، إذ حال بينهم وبين الشيخ جيش باسل من الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ففروا عنه خاشعين. فتبسم الشيخ وقال:

إلى نَصْرنا قد سارعوا معْ خيولهم وخاف العدى منهم ومالوا إلى السلم"

إنهم الملائكة الذين نزلوا لنصرة النبى ﷺ يوم بدر، وسوف يجىء الحديث عنهم مفصلاً بعد قليل إن شاء الله.

سجل الشيخ فى أشعاره فشل المحاولات التى دُبرت لقتله، من ذلك قوله:

نجوتُ من فِتنِ الأعداء إذ قَصدو نى بالمدافع طُرًا والسَّكاكينِ

* * *

ولا يزال أولياء أمتنا إلى يوم القيامة يغترفون من معين سيد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه فى كل يوم كرامات وخوارق هى أعظم دليل على صدق نبوّته وعظيم قدره عند خالقه ومولاه.

وكُلُّهم مِن رسولِ الله مُلْتمِسٌ غَرْفًا مِن البحرِ أوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

۞۞۞

العفو عمن ظلم

قال الشيخ:

"لما نظرت إلى حال أعدائى أعداء الله معى، وعلمت أنهم تمكنوا من إذايتى وإضرارى، بقضاء الله وقدره، وعلمت أن لولا حماية الله ووقايته لبلغ السيل الزبى، تركتهم ومرادهم، وتوجهت إلى الله الذى بيده الأمور، فناجيته فى أمرى، وقلت: اللهم إنك خلقتنا لعبادتك فقلت: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وقلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ فوفَّقت من سبقت له السعادة للسمع والطاعة، وخَذَلت من سبقت له شقاوته، فصُدّ عن الإجابة، فوفقتنى وجعلتنى من زمرة الإجابة، زمرة نبينا محمد ﷺ إمام الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم أجمعين، وزدتنى فضلاً منك أن جعلتنى خديمه، وخليفته فى دينه وأمته، فقام زمرة من أعدائك.. وتسلطوا علىّ ليحولوا بينى وبين عبادتك وخدمته، فها هم فى سعيهم مجدّون، وأنت -يارب- قلت على لسان نبيك قولا معناه إن لكل أحد دارًا فى الجنة ودارًا فى النار، فإذا دخل الجنة كُشف له عن داره فى النار، فقيل له: هذه دارك لو لم تعبد الله، وحين عبدت ودخلت الجنة فهى تُورّث لكافر. وإذا دخل النار كُشف له عن مقامه فى الجنة فقيل له: هذا مقامك لو عبدت الله، وحين لم تعبد ودخلت النار فهو يُورَّث لمؤمن.

فإذا كان الأمر كذلك، فهؤلاء الأعداء -كما علمت- يظلموننى، ويفعلون بى ما شاءوا، وأنا لا أنتقم منهم، ولا أدعو عليهم، ولكن أسألك منازلهم فى الجنة".

* * *

لقد من الله على عبده الخديم بصفة العفو فى أرقى مستوياتها بحيث أصبح العفو عنده سجية لا تكلفًا. من الأمثلة على ذلك هذه القصة التى رواها الشيخ محمد الأمين وهى أن رجلاً جاء إلى الشيخ ونيّته أن يتحيّن الفرصة المناسبة للفتك به. فتظاهر بأنه محب للشيخ وتقرب إليه وتعلق به حتى أصبح من المقربين إليه، وكتب له الشيخ ثلاثة أبيات من الشعر وأمره بملازمتها ومداومة قراءتها وهى:

إلى سِواىَ الضُّرُّ كالشيطانِ ما لهما علىَّ مِن سُلْطـــانِ

اللهُ ربِّى والنّبـــىُّ المُجْتبىَ صلّى عليهِ مَنْ هَداهُ واجْتَبىَ

خِلِّى وحِبِّى وأَبى مَضرَّتى ورَامَ مِن ربِّ الوَرَى مَسَـــرَّتى

فداوم عليها الرجل بالليل والنهار، وفى السِّر والجهر، لا يتوقف إلا لماما حتى اطمئن إلى أن حيلته قد نجحت وأن الوقت قد حان لتنفيذ خطته.

فى إحدى الليالى، وبعد أن هجع الجميع إلى مضاجعهم، وأوى الشيخ إلى فراشه، تجرّد هذا الشقى من ملابسه وتسلل فى خفة الثعلب إلى فراش الشيخ، فأخذ سيفه من مكانه الذى يعرفه وتأهب لينقض به على الشيخ وهو نائم.

كان أحد المريدين فى المسجد عندما رآه يتسلل فى ظلام الليل إلى بيت الشيخ، فأسرع وأخبر أحد الملازمين له وبينما رفع الشقى السيف وأهوى به على الشيخ تعلقت ذبابة السيف بحاشية الخيمة، فى نفس الوقت كان صاحب الشيخ قد وثب عليه وطرحه أرضا وعلا الصياح، وأقبل الأصحاب والمريدون من كل مكان، واستيقظ الشيخ.

تقول الرواية:

"فقام الشيخ، وحال بينهم وبين الرجل أن يقتلوه، وسكّنهم. ثم أرسل خفية إلى جماعة باتوا بعيدًا عن محل الواقعة.. وقال لهم: ليصحبكم هذا (الرجل) إلى محل بسطة النصارى.. ثم خلّوه وامضوا إلى سبيلكم. ثم أوصاهم بالرفق به، وإعانته على متاعه، وأخفى عليهم الخبر استبقاء لنفسه لله، ولم يؤاخذه بسوء فعله".

وصف الشيخ محاولات الأعداء النيل منه فقال بلسان الأقوى والأعلى:

عفوتُ عن الأعداءِ طُرًا لوجْهِ مَنْ نفاهم لغيرى سرمدًا لَسْتُ أدفع

قال هذا البيت من الشعر ضمن أبيات أُخر بمجرد ما وطأت أقدامه أرض ميناء "دكار" حيث كانت جماهير غفيرة من أتباعه ومحبيه فى انتظار قدومه، مستقبلة له استقبالاً حافلاً.. استقبال الظافر المنصور.

وصف مؤلف "النهج القويم فى سيرة الشيخ الخديم "تلك الأيام السعيدة المبتهجة بقوله:

"فى شهر نوفمبر سنة ١٩٠٢ قدم الشيخ الخديم إلى وطنه وقومه، فغمر البشر السنغال كله، وملكه السرور، واستولى عليه الفرح والابتهاج لقدوم بطله الظافر ومنقذه المنتظر. أقام الشيخ فى السنغال حوالى ستة أشهر فاستأنف الناس زياراتهم المتوالية ومبايعاتهم، كما استأنف الوشاة والحسّاد أختلاقاتهم واتهاماتهم الموجهة ضد الشيخ، فكتب أمير "أنْدر" (الحاكم الاستعمارى) رسالة إلى الشيخ، وإن كنت لم أقف على نص رسالة الحاكم فإن الشيخ ردّ على تلك الرسالة قائلا:

"اعلم أيها الأمير بأنى أعبد الله تعالى وحده، ولا أعبد أحدًا غيره،

ولا أعترف بربوبية أحد سواه". وقد تسلم الحاكم هذا الرد بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٩٠٣".

۞۞۞

المنحة فى المحنة:

قد يكون الظاهر شيئًا، والحقيقة شيئًا آخر، فقد ترى الرجل يبكى وقلبه يرقص طربا، وقد تراه فى موطن تكرهه، وتخاف أن توضع فى مثله، بينما يكون هو فيه فى أسعد أوقاته وأطيبها، والمثل الذى يحضرنى فى هذا المقام هو ما وقع لسيدى إبراهيم بن أدهم حين كان فى غزوة فى بلاد الروم فى شتاء قارص، ونزل من السماء ثلج كثيف، فدخل أصحابه فى خيمة لهم وبقى هو واقفًا خارجها، وأرادوه أن يدخل فأبى، وأمضى ليلته كلها تحت الثلج الهاطل، ليس عليه إلا فروة قد أدخل رأسه فيها، فكلما كثر عليها الثلج نفضه.. فلما انقضت الليلة، وطلعت الشمس باهتة من وراء الأفق، خرج أصحابه من الخيمة يتأففون من البرد وقالوا: يا أبا إسحاق، أى ليلة مرت بنا! نسأل الله ألا يبتلينا بليلة أخرى مثلها.

فإذا بسيدى إبراهيم يفاجئهم بهذه الإجابة التى ما توقعوها قط، قال لهم من خلال نظرته الحالمة وقلبه المشوق:

– وكيف لنا بليلة أخرى مثلها؟

أى شىء كان فيه إبراهيم بن أدهم حتى أذهله عن البرد والصقيع؟ إن من يراه واقفا طول الليل تحت الثلج يشفق عليه، أما هو فيشفق على جميع الناس الذين لا يذوقون ما يذوق ولا يرون ما يرى فى تلك اللحظة.

وصاحب يس، كان يتلوى تحت أقدام الكارهين الذين راحوا فى عنف وقسوة

يدكدكون عليه بأقدامهم حتى خرجت أمعاؤه من فمه – كما تقول الرواية – منظر فظيع حقا، بينما هو فى الحقيقة، فى نعيم الجنة الذى أنساه ما كان من أمر الدنيا، فراح يتمنى لقاتليه الخير وهو يقول: ﴿ يَـٰلَيۡتَ قَوۡمِى يَعۡلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ .

سبحانك ياربنا.. ياواسع العطاء.. لا إله إلا أنت!

***

كان هذا شأن سيدى أحمد بمب تحت الاعتقال الفرنسى ثم النفى إلى بلاد بعيدة، وظروف جدُّ قاسية، لكن الله عوضه عن ذلك بمالا نعرف كنهه تماما، ولكننا نستشفه من أخبار الشيخ ومن كلامه حين يقول:

وأدْخل الإلهُ فى قلوبِ مَن ... تَسبّبوا فى نَقْلِه ذاكَ الزَّمَن
إخراجه إلى البـــلادِ النّائيَهْ ... ونالَ فيها فَوْق سمعِ السّارِيهْ

***

مع شروق نهار الخميس ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ استقل شيخنا القطار - وهو فى طريقه إلى منفاه بجابون – إلى مدينة "دكار" التى قضى بها ليلة الجمعة.

فى تلك الليلة كان صائمًا يستعد للإفطار ولصلاة المغرب عندما جاء إليه من يستدعيه من طرف الفرنسيين.

"فقام وسار معه، فانطلق به إلى بيت يُستعاذ منه، شديد الظُّلمة والحرارة والنَّتَن.

فلما رأى ما حلّ به علم أنه البلية من الله، لاحيلة إلا بالرجوع إليه بالصبر والرضى والشكر.. فشرع يسترجع يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.. (قال): وبت أُحيى ليلتى بالزهراوين: البقرة وآل عمران..

واتبعها بالصلاة على مخدومى خير خلق الله، فانشرح صدرى، واطمأن بالله وبرسوله ﷺ ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ فطابت ليلتى فى الله".

يصف الأستاذ سيسى جورتى مؤلف كتاب السنغال والثقافة الإسلامية تلك الليلة بقوله:

"تلك الليلة البيضاء المنيرة التى انطبعت ذكرياتها على صفحة ذاكرته بأحرف ذهبية".

۞۞۞

البيعــة:

فى هذه المحنة تلقى سيدى أحمد بمب من الله المنحة، وأى منحة أعظم من معيّة سيد المرسلين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين.

لما حُمل شيخنا –وحيدا– إلى السفينة التى سوف تحمله إلى بلاد بعيدة غريبة، بعيدًا عن أهله ووطنه وأحبابه، ليكون تحت تصرف أعدائه والشانئين عليه، فى هذه الشدة جاءته البشرى.

عَلَّمنى الرحمنُ فى السَّفينة   بأنّنى خَديمُ ذِى المدينة

فى ذلك اليوم المشهود امتدت يد القدرة إلى شيخنا مبايعة له على أمر عظيم؛ بيعة ثلاثية الجوانب، بين الشيخ وبين الله ورسوله حيث عاهدهما على الاستغناء برسول الله عن سائر المشايخ والأوراد، والاستغناء بالله عمن سواه، وعلى تحمل مشاق الدعوة والصبر على أذى الأعداء، وعلى عدم سفك الدماء فى الأرض، وعلى عدم الإساءة إلى أحد، وعدم الظلم مطلقًا، والاشتغال بخدمة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. وفى شأنها قال:

بايعتُهُ علَى عِبادةٍ لَكـا ثُم على خِدمتِهِ لوجْهِكَ

فكانت هذه البيعة نقلة جديدة فى حياة الشيخ اختلفت كثيرًا عن كل ما سبقها، فكان يومها يسمى بيوم البيعة، وعامها بعام البيعة، حتى إن الشيخ كان يطلب من مريديه أن يميزوا بين ما كُتب قبل البيعة وما كُتب بعدها، وحين يقول:

"انو ما شئت فى قراءتك لقصائدى تجده إن شاء الله" .

يضع لذلك شرطا وهو أن يكون ما تقرأ مما كتبه بعد عام البيعة "أما تلك التى قبلها فلا".

ولكن بعد فترة من إقامته الجبرية فى "جوربل" أنعم الله عليه بقبول جميع ما كتبه من القصائد سواء كانت قبل النفى أو بعده.

***

حول هذه البيعة كتب فى بعض كتبه مناجيا ربه:

"واشهد لى عندك وعند الملأ الأعلى بأنى عبد وخليل وحبيب لك، وبأنى خديم وخليل وحبيب له ﷺ".

قال الشيخ رضى الله عنه:

دلّنى اللهُ على محمدِ وقَادنى محمدُ للصّمَدِ

فالعطاء من الله، والترقى فى مراتبه على يد سيدنا رسول الله ﷺ وقال أيضا:

دلّنى اللهُ علَى الرّسولِ وهُوَ عليهِ ووَجَدتُ سُؤلى

فباب الله الرسول – كما قال العارفون، ووصف شيخنا ذلك بقوله: إن الله سبحانه وتعالى الباب، والمفتاح هو رسول الله، لا يمكن الوصول إلى الله بغير واسطة عبده ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ. وفى ذلك يقول:

"الإيمان والإسلام والإحسان طريق رسول الله والصحابة والتابعين، لا يسلك الطريق أحد إلا ببركاته وإذنه، لأن الطريق وديعة له صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، والوديعة لاتؤخذ إلا بإذن المودع.. من طلب الوصول إلى الله بغير رسول الله فلا يصل إلى الله..".

ويقول كلمة.. لو أنصفنا كأمة واحدة مسلمة، لكتبناها فى كل موضع تقع عليه العيون، حتى تستقر استقرارًا فى القلوب، وتجرى بها الدماء فى العروق.

قال، وما أجمل ما قال وما أصدقه:

"اعلم يا أخى حيث كنت بأنه لا إله إلا الله، فمن توجه إلى غير الله فسيعلم أنه لا إله إلا الله، ومن توجه إلى الله بغير محمد رسول الله ﷺ فسيعلم أن محمدا رسول الله".

***

قسّم شيخنا السنة إلى نصفين، انشغل فيهما معًا بسيد الخلق وحبيب الرب ﷺ، فجعل ستة أشهر للصلاة عليه ﷺ وستة أشهر لمدحه، وفى ذلك يقول:

صـلاة سِتَّـة بمـدح سِتَّـة
تأتيـــه بتّــه مـع ائتســـاء

وستة شهور المدح هى: المحرم وصفر وربيع أول وربيع ثان وجماد أول وجماد ثان وقد أشار الشيخ إلى هذا التحديد فى قوله:

مدحُ الرسولِ الكريمِ الباسطِ النّجبِ مِنَ المحـــــرمِ ديْنٌ لى إلى رَجـــــبِ

***

تفرّد الشيخ الخديم بمرتبة عالية فى مقام الخدمة لسيد الخلق ﷺ، فالذين خدموا جنابه الأسمى كثيرون، ولكن الذين بلغوا فيه ما بلغ سيدى أحمد جد قليلون، ويقول فى

إحدى قصائده إن الله سبحانه وتعالى جعله أسنى خديم:

ملك العلى الباقى القديم　　جعلنى أَسْنَى خَـــديم

لـمـــن له فضـــــلٌ يَـدوم　　وصاننى فى خـدم

ويقرر أن توفيق الله له فى مقام الخدمة فاق غيره من الأكابر، فقال:

مَن ظَنّ أنّه يكـــــونُ أبدَا　　يُرضيه بالّذى كخِدْمتى بَدَا

نفيت ظَنّـــه بأنى الخديم　　بما وَنى عن مِثله كلّ خـديم

ولما كانت القاعدة: "من صبر علينا وصل إلينا" فقد وصل الشيخ، واستقر واطمئن ونال المنى:

سعادتى بغير محو كتبت　　وكونى العبد الخديم قد ثبت

۞۞۞

أهـل بدر:

جمع أحد مريدى الشيخ عددًا من كراماته وكشوفاته فى جزء متوسط بعنوان "المنح المسكية فى الخوارق (البكية) احتوى نحو أربعين كرامة وقال فى مقدمته:

"جمعت فيها ما صححت من خوارق شيخنا الخديم -رضى الله تعالى عنه وأرضاه عنا به- وكشوفاته وكراماته مابدا لى أنا بنفسى منها، وما بلغنى عن ثقة تاركًا مالم أصحح وإن اشتهر وأمكن، راجيا من الله تبارك وتعالى أن يجعلها عملا خالصا لوجهه الكريم، وأن تكون سببا لمودة شيخنا لكل من جهلوا أمره من مسلمى زماننا والآتين بعدنا، وأن تزداد بها محبة محبيه حبا يكسبهم عند الله رضوانه الأكبر.."."

إحدى هذه الكرامات خاصة بأهل بدر، وما أدراك ما أهل بدر؟

إن لأهل بدر فى الإسلام مكانة سامية، ولهم عند الله من الكرامة مالا يعلم قدره إلا هو سبحانه وتعالى، وقد ورد فى الصحيحين أن حاطب بن أبى بلتعة -رضى الله عنه- لما أفشى سر رسول الله ﷺ لقريش استأذن عمر من النبى فى قتله، فقال له ﷺ: "إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم".

وروى البخارى أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبى ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: "من أفضل المسلمين" أو كلمه نحوها. قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة.

لذلك اهتم المسلمون عبر القرون بأهل بدر، وتوسلوا بهم إلى الله فى قضاء الحوائج، وتبركوا بذكر أسمائهم، نظموها فى قصائد، وكتبوها فى لوحات تعلق فى بيوتهم ومساجدهم.. ويقابل أهل بدر من الصحابة أهل بدر من الملائكة الذين نزلوا لعونهم فكان النصر وكانت البشرى.

وإن كرامة سيدى أحمد بمب مع أهل بدر من الصحابة ومن الملائكة لمن أجل الكرامات وأعجبها.

قال صاحب "المنح المسكية" فى مقام ذكر كراماته:

"ومنها قدوم أهل بدر عليه فى داره مرارًا وتكرارًا. ذكر فى بعض ليالى صفر سنة ١٣٤١هـ أنه ما كاد ينام تلك الليلة لكثرة ورود أهل بدر -رضوان الله عليهم- ربما يقال له تلك الليلة: توجه إلى المكان الفلانى، فيتوجّه إليه فيأتونه هنالك، ثم يقال له: انتقل إلى المكان الفلانى فينتقل، ثم يأتونه، ثم كذلك إلى ما شاء الله...".

"ومنها ما كان -رضى الله عنه- يحكى لنا من ظهور أهل بدر للعسكر (الذين كانوا يتولون حراسته) وهم مائتان وسبعون رجلاً، وذلك أنهم كانوا يقومون كل ليلة عند انصداع الفجر إلى موضع اجتماعهم للتدريب كعادة العساكر، وقضى الله ذات ليلة أنهم خرجوا قبل الفجر فلما حصلوا فى البقعة واصطفوا ظهر لهم جند عظيم على خيولهم وأرماحهم وسيوفهم، وكل واحد منهم عمامته مسدلة على كتفيه.. فلما عاينوهم طاشت عقولهم وكادوا يطيرون خوفًا إلا أن قائدهم تثبت وتجلد وأشار إليهم بالسكون والتأنى والسكوت، وصار يرجع بهم القهقرى إلى أن بلغ بهم أول القرية والجند على حالهم (فى) مواجهة العدو غير ذاهبين ولا آتين، فطلع الفجر فغاب الجند، فهدّد القائد جيشه وأوعد من أفشى السر بالقتل، وفشى الخبر بين أهل الدولة إلا أنهم كتموه عن العامة خوفًا من أمر الشيخ.

والظنون أن هذه الواقعة (كانت) أواخر رمضان سنة ١٣١٣هـ.. فى جزيرة "غابون" "ولبرْوَل" ولذلك أخرجوه من القرية يوم الفطر حين صلى بشرذمة قليلين من الناس وفى هذه الواقعة يقول الشيخ:

إلى نحونا قد سارعوا مع خيولهم وخاف العدى منهم ومالوا إلى السلم

وهذه القصة لم يحكها الشيخ إلى أن أتاه رجل من مريديه من البحرية وكان قد بلغ تلك الجزيرة، فحكاها له نصرانى من أهل تلك الجزيرة بسبب أنهما تحادثا فى أمر الشيخ وعجائبه والنصرانى يتعجب إلى أن قصها عليه، فلما حكاها بين يدى الشيخ والجماعة محدقون به

وأنا من جملتهم دعا الشيخ بقصيدة قالها قبلُ.. ذكر فيها مواضع الوقائع التى بينه وبين النصارى (ومنها لِبَرْول):

يسّر لى المُنى لدى لِبَرْوَلِ مَن قادَ لى ما غَابَ عن كلِّ وَلى

لى قاد أهلَ بدرٍ الأسودا مَن زَحْزح الواشى والحَسودا

يعنى يسّر له فى تلك الجزيرة المظلمة القبيحة الظالم أهلها ظهور أكابر أولياء الله الأبرار أهل بدر لإرهاب أعدائه وحيلولتهم بينهم وبينه، وكان الأمر كذلك إذ خافوا منه بسببهم.. ومالوا إلى مسالمته، ومن ثم شرعوا فى التخفيف عليه والرجوع به بالتدريج عامًا فعامًا إلى أن رجع عام ١٣٢٠هـ.. وظهور أهل بدر هكذا غاب عن كل ولى.

وظهور أهل بدر له هنالك لا لقتل الأعداء ولا لقتالهم بل لإرهابهم وتخويفهم لينتهوا عنه حتى يتمكن من خدمة رسول الله ﷺ وأمانة الله تعالى التى عقدها عليهم يوم (جِيوَلْ) وذلك أن الله تبارك وتعالى قال لأهل بدر إن عبدى هذا وخديم رسولى أخرجه الفجار فصار منفردا، فاشهدوا بأنى جعلته منكم. فقالوا: قبلنا ورضينا فأشهد لنا يامخزى الكافرين بأنه لا يتوجه إليه عدو بمالا يليق إلا وأخزيناه بك، ثم وادعه رسول الله ﷺ وضرب عليه حجابا مانعًا وقال له: امش لاتخش ضررًا ما. وكان يوم السبت، وفى غده يوم الأحد شرع فى خدمة أهل بدر بنظم كاليواقيت.. ثم شرع فى قصيدة:

أسير مع الأبرار حين أسيرُ وظن العدى أنى هناك أسيرُ

يشير رضى الله عنه فى هذه القصيدة إلى أنه يغيب مع أهل بدر وهم المقصودون بقوله "مع الأبرار" فى البيت على رغم من الأعداء

الذين ظنوا أنهم أسروه. وإشارته هذه من أصرح الخوارق، إذ لم يعلم به أحد قبل ذلك وفى تلك الأمانة يقول:

عدّنى الله من أهـل بَـدْرِ   عليهم رِضْوان مُعْلِى القَـدْرِ

وفى الحجاب والوداع يقول الشيخ:

وجعل المختـارُ صـلى اللهُ   عليـــــه فى الآل ومــــن والاهُ

له حِجابًا مانعًا من الضَّـررْ   ثُمَّ له قال امشِ لاتَخْشَ الغَرَرْ

كل هذا أفادنيه الشيخ.. والظاهرون من أهل بدر هنالك للأعداء هم الملائكة الذين شهدوا بدرًا لا الصحابة قاله الشيخ".

۞۞۞

طريق الشوك

لم يكن طريق الشيخ كله ورود، بل كان الشوك على جانبيه، وتحت قدميه أيضا، فلم يمنعه عن المضى قدمًا، يقطع الطريق مرحلة بعد أخرى.. متذرعًا بالصبر، راضيًا عن الله.

وصف واحدة من تلك المحن الكثيرة قائلا:

"جعلونى فى بيت كبير أسكنوا فيه العسكر، وكنت كواحد منهم يلعبون ويشربون ويدخنون وأنا ساكت على إذايتهم، لأنى علمت أن الملكين الكاتبين مع كل مُكلّف منا، وما داما صابرين لطاعة ربهما لا ينبغى لى أن أشتكى، لأنهما يؤذيهما ما يؤذينى ولا يشتكيان".

ووصف –مثلا– كيف كان رمضان والعيد يمران به وهو منفرد فى منفاه، لا يجد من يشاركه فرحة العيد.. قال:

"ما كنت أعرف شهر رمضان لولا أن الله تعالى ألهمنى أن أكتب الشهر القمرى كلما استهلّ علىّ هلال، لأن أهل البلدة لا يعرفون إلا الشهر الفرنساوى.

فلما كان يوم الفطر، فطرت مع الصباح واغتسلت وفعلت ما أمرت السُّنة به، وخرجت لأصلى فى ساحة القرية، فوقفت أنظر غربًا وشرقًا، يمينا وشمالا متيقنا بأنه لا يأتينى أحد.

ووصلت إلىّ جاريتان ناهزتا البلوغ، ووقفتا بإزائى تنظران إلى، فكبّرت، فشرعتا تضحكان، كلما كبّرت ضحكتا، وإذا قرأت ضحكتا، هكذا هكذا، حتى سلّمت وخطبت، ثم قلت فى مناجاتى:

"اللهم إنك تعلم أنى صمت شهر رمضان كما أمرت، وأفطرت واغتسلت وصليت كما أمرت. ولكنى لم أجد ما أؤدى به زكاة الفطر، ولو وجدت لا أجد لها مصرفا، فصلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه، وتقبل منى كل ما استطعت من أوامرك وفعلت، واكتب لى ثواب ما عجزت عنه ونويت".

۞۞۞

دعوة الإصلاح والتجديد:

قال رسول الله ﷺ : "يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد للناس أمر دينهم" فأشار هذا الحديث إلى أن أمر الدين قد يضعف أو ينحرف به أهل الأهواء، فيبعث الله من عباده وأحبابه من يقومون بمهام الإصلاح.

وصف الشيخ محمد المحمود الطوبوى فى كتابه القيم "النهج القويم" ما كانت عليه الأحوال فى ذلك الوقت بقوله:

"كان يملأ السنغال كله اللهو واللعب والخرافات والتفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والأولاد فجاء الشيخ الخديم ودعا الناس إلى الله بإخلاص العبادة له تعالى وحده، وترك البدع والخرافات، والتخلق بمكارم الأخلاق، والإعراض عن هذه الدنيا الفانية، والإقبال إلى الله تعالى بالكلية، فاستجاب له الناس واتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كادت تزيغ قلوب كثير من الناس آنذاك، فأنقذهم الله بحكمته، وأتاهم بالفتح وأمر عظيم من عنده ببركته".

مما حدا بالشيخ "تيورو أمباكى" أن يقول ضمن قصيدة يمدح بها الشيخ:

والله لولاه مات الناس كلهم   على طريقة إبليس الذى سمجا

***

ولما كان التصوف هو جوهر الإيمان، والقاطرة التى تسحب وراءها عربات الدين كلها، كان دائما محط اهتمام العارفين، يراقبون أحواله، ويسارعون إلى تطهير ساحته أولا بأول من الكاذبين والطفيليين الذين يتخذون منه مركبا للوصول إلى حظوظ الدنيا وزخرفها الزائل.

منذ عهد التابعين وأئمة التصوف يمقتون الدنيا، ويبغِّضونها للناس حتى لا يغتروا بها، من أمثال الحسن البصرى وإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخى وغيرهم.. ومن جاءوا بعدهم فى جميع العصور أعملوا جهودهم فى معالجة أمراض التصوف وجلها كانت تدور –أيضا– فى فلك حب الدنيا وطلبها.

تمثل حب الدنيا فى زمن الشيخ أحمد بمب فى عدة مظاهر أصابت الحياة الصوفية ومشايخ التصوف، منها التنافر والتحاسد بين أبناء الطرق المختلفة وكذلك بين شيوخ هذه الطرق، ومنها التظاهر بالزهد فى الدنيا بينما انطوت القلوب على محبتها وتعظيمها،

ومنها ادعاء بعض الشيوخ أنهم قد كمل حالهم ووصلوا إلى مرحلة اليقين حيث أساءوا فهم قول الله تعالى فى سورة الحجر:﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ فتوقفوا عن أداء الشعائر الدينية من صلاة وصيام.. ومنها أيضا جهل كثير من مشايخ الطرق بأمور الدين.. ومنها الانشغال بالترهات عن المجاهدة والأعمال..

هذه وغيرها آفات لم يخل منها زمان ولا مكان، ولولا رجال الله المخلصون وجهودهم فى الإصلاح لأكلت الدين كما تأكل الحشائش الضارة الزروع فى الحقل إذا تركت ولم تستأصل..

قام شيخنا طوال حياته المباركة بجهود فى هذا السبيل كان لها أعظم الأثر فى تصفية التصوف فى غرب أفريقيا من كثير من الشوائب..

لقد رأى من أعمال شيوخ الطرق ما زهّده فيهم، وصرفه عنهم وفى ذلك يقول فى كتابه "مسالك الجنان":

إذ بان جهرًا أنما هذا الزمان جلهم فخوخ الشيوخ

وبعضهم يركن إلى رياسة بلا تستر للتصدر

ولم يميز بين فرض وسنن ويجذب الورى لموجب الفتن

ويدعى الكمال يدهى الورى بكثرة الرواية والولاية

وإن مدحت عنده شيخا سواه أغاظه لحسدٍ وحب جاه

ولا يسره سوى بالذكر والمدح لدى العباد

انفــــــراد

وبعضـــــــهم تـــراه ذا متـــوج الرأس مـــع

تعمـــم التلثـــــم

ويـذكر الله كثـيرًا وقلبه أدنس من كل جنــان

بلســــــــان

ويظهــر الزهـد ولم سـوى اقتنـاص المال فلتنتبه

يقصــــد بـه

وهكذا يمضى شيخنا فى كشف المدعين الذين هم أضر على الدين من أعدائه الظاهرين.

ويقول فى موضع آخر:

ويدعى البعض الوصول تاركـا عبادة حتى يصيـــــر هالكـا

وغرّهم فى ذاك سوء الفهـم ودنس الحجـــا بغير العــــلم

وفسروا لفظ "اليقين" باليقـين فى آخر الحجر بلا موت يحين

والبيت الأخير يشير إلى أن كلمة اليقين فى آخر سورة الحجر يفسره أيضا آيات سورة "المدثر" التى تقول: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ . حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.

وقد عرف عن الشيخ -رضى الله عنه- تعظيمه لشعائر الله..

"كان محافظًا على الصلوات الخمس مع الجماعة، وكان ينهى أتباعه عن تأدية أى عمل مهما كان نوعه فى أوقات الصلاة، وكان إذا خالف تلاميذه هذه التعليمات سألهم عن المكان الذى وصلوا إليه من العمل ساعة الأذان، فإذا حددوه أمرهم بهدم الذى بنوه منه وقت

إقامة الصلاة إلى منتهاها".

* * *

ولكن.. هل فساد الشيوخ الظاهرين أو بعض الطرق أو الممارسات الصوفية يقضى بأن يُترك طريق التصوف بالكلية؟

هذا مالا يقول به عاقل قط، والذى يقول بهذا أشبه بمن يقول ببتر الرِّجل تماما إذا ما أصيبت القدم بشوكة.

إن الله تعالى خلق الداء وخلق معه الدواء، فكل آفة لها علاج يطلب من أهله والعالمين به، وآفات التصوف وأمراضه يُطلب علاجها من أهل التصوف العالمين به، وكان سيدى أحمد بمب أحد أولئك بجدارة.

حدث فى زمن الشيخ أن أحد الفقهاء سُئل عما يفعله من يريد التوبة وسلوك سبيل الرشاد فأجاب بأن الأفضل له أن يتوجه إلى مشايخ التعليم يأخذ منهم ويقتدى بهم ولا يتوجه إلى المشايخ الذين ينتسبون إلى التصوف والتربية فإنهم فى هذا الزمن ناقصون أو شىء من هذا القبيل.

فلما عُرض هذا الأمر على شيخنا سيدى أحمد بمب أجاب بخط يده على ورقة، مانصه:

"من رام بالشيخ وصولا للفريد نال الوصول ليس ينحوه مريد

وفى كلام الغوث أبى مدين عليه رضوان الله تعالى: "من لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من تبعه" وفى كلام بعض الأولياء الأصفياء عليهم رضوان الله: "إنما يكون الاقتداء بولى دلّك الله تعالى عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه وطوى شهود بشريته فى

وجود خصوصيته فألقيت عليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد".

فصحبة الأخيار عين الانتفاع   من لم يواصلهم حوى كل اندفاع

وفى كلام بعضهم رضوان الله تعالى عليه: "صحبة أولياء الله تعالى يحصل بها الانتفاع لصاحب دون من عاداهم من المنسوبين إلى العلم".

***

لقد كان ولا يزال – طلب الشيخ علامة على صدق الطالب فى توجهه إلى الله، لذلك قال الإمام – حجة الإسلام أبى حامد الغزالى: "إن التصوف فرض عين، لأن كل إنسان فيه عيوب وأمراض لايخلو منها إلا الأنبياء عليهم السلام".

وقال القطب الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى: "من لم يتغلغل فى علمنا هذا (أى التصوف) مات مُصرًا على الكبائر وهو لا يشعر، وحيث إنه فرض عين يجب السفر إلى من يأخذه عنه إذا عُرف بالتربية، واشتهر الدواء على يده..".

۞۞۞

الطريقة المريدية:

لم تكن نية الشيخ تأسيس طريقة صوفية جديدة، وإنما أراد الإصلاح والتجديد لمعالجة الأوضاع المتردية فى جميع المجالات.

بالمصطفى نويت ما يجددُ   سننه الغرآ وإنى أحمدُ

لذلك سعى منذ البداية إلى رسم معالم منهج تربوى تعليمى متكامل عماده العلم والعمل قائم على القرآن الكريم والسنة والمذهب المالكى فى الفقه.

فكانت ممارسته للتدريس والتصنيف ونظم القصائد التى تحض على ترك الكسل والتواكل للنهوض بأمر الدنيا والدين، فيقول مثلا فى إحدى قصائده:

واعلم أخى بأن علمًا وعمل هما وسيلتا السعادة أجلْ

أما البطالة وتضييع العمـــر بغير ما يعـــنى فَدَاؤه يَضُرْ

لم ينح طريق الجهاد بالسلاح -كما رأينا سابقًا- وإنما جاهد بالعلم والتربية، وأقبل عليه الناس من كل حدب ينسلون، لما رأوه فيه من علامات الصدق ومواهب الله له.

يقول الشيخ محمد المحمود الطوبوى فى كتابه "النهج القويم" فى سيرة الشيخ الخديم:

"ثم شرع يجدد الطريقة الصوفية فى السنغال تجديدًا لم يسبق إليه، فقصده الناس وكثر الآخذون منه والمبايعون، لما شاهدوا فيه من أوصاف الواصلين وتربية العارفين وأتوه بالهدايا من كل ناحية. ومع ذلك كله فهو يفر من الناس أشد الفرار ولا يسكن إلا فى القرى، ولا يدّخر شيئا لغد مما كان يُهدى إليه من الأموال، بل كان يُسمِّيها بحطام الدنيا ويدفعها لأول قادم إليه بقطع النظر عن جنسه ولونه وعن قيمة الهدية: فازدحم الزوار على بابه: قوم جاءوا للتبرك والمبايعة، وآخرون للمال الذى كالنخالة عنده أو هو أهون منها. وما كان الشيخ الخديم ليقتنى سوى المصاحف وكتب الحديث النبوى. وأوقاته كلها معمورة بالذكر والصلاة وتلاوة القرآن والتأليف ومدح النبى ﷺ. لا يفتر عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار إلا ريثما يخرج للناس إذا كثروا ليحضهم على البر والتقوى ويوصيهم بما أوصاهم الله ورسوله -عليه الصلاة والسلام- فى الكتاب العزيز والسنة الغراء، ويسأل عن

حوائج السائلين ويقضيها".

* * *

اختار الشيخ اسم "المريدية" كاسم لحركته التجديدية الإصلاحية، لأن كلمة "مريد" كلمة مشهورة ومستعملة بالنسبة لجميع الطرق، فهى وصف لكل طالب لطريق الحق، وعلامة على أولى درجات السلوك..

فهى إذن كلمة مشتركة بين جميع الطرق حتى تكون حركته شاملة للجميع، لذلك سمح لكل مريد بأن يشتغل بأى ورد من أوراد الطرق مادام لايتعارض مع قواعد الدين، مبينا أن الهدف واحد وإن اختلفت الطرق الموصلة إليه:

فكل ورد يورد المريـــدا   لحضـــــرة الله ولـن يحيـدا

سـواء انتمى إلى الجيـلانى   أو انتمى لأحمد التيجــانى

أو لسواهما من الأقطاب   إذ كلهم قطعًا على الصواب

وظل على هذا النهج حتى لقى رسول الله ﷺ - يقظة – فلقنه الورد المعروف بالورد المأخوذ من الله بواسطة رسوله ﷺ، فأصبح الشيخ يلقنه لأتباعه..

قال فى "النهج القويم":

"وقد مكث الشيخ الخديم على هذه الحالة حتى ألهمه الله تبارك وتعالى هذا الورد الذى بأيدى المريدين والذى أطلق عليه اسم (المأخوذ) لكونه مأخوذا من الله بواسطة رسوله عليه الصلاة والسلام، فأخذ يعمل به ويعطيه الناس. وكان رضى الله عنه – يتمثل بعد ذلك بهذه الكلمات: "منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة" وكلا المرادين يقضى عندى بإذن الله. فطار صيته وانتشر ذكره

فى البلدان وكان عمره حينئذ يناهز الواحد والخمسين.

وبما أن كثيرًا من الناس فى هذا العصر يحسبون أنه ليس هناك ورد خاص يستعمله المريدون، نقدم لكم فيما يلى قصة هذا الورد المبارك ونصه.

ففى شهر رمضان العظيم من سنة ١٣٢١ هجرية فى حى من أحياء موريتانيا اسمه (صَرْصار) رأى الشيخ الخديم رسول الله ﷺ، فأعطاه هذا الورد المبارك بإذن من الله تبارك وتعالى ليستعمله هو وليأمر جميع المريدين والمريدات باستعماله وإليكم نص الورد:

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون (مرة واحدة)، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق (ثلاثا) بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم (ثلاثا) بسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله، بسم الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، بسم الله ما شاء الله، وما بكم من نعمة فمن الله. بسم الله ما شاء الله، لاقوة إلا بالله (ثلاثا) بسم الله ذى الشأن، عظيم البرهان شديد السلطان، ما شاء الله كان، أعوذ بالله من الشيطان (ثلاثا) الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم. له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم (مرة

واحدة) لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (مرة واحدة)، وأفوض أمرى إلى الله، إن الله بصير بالعباد (ثلاثا) حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (سبعين مرة) أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم (سبعين مرة) لا إلا الله محمد رسول الله – عليه وآله وصحبه صلاة الله تبارك وتعالى وسلام الله (خمسين مرة). اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أُغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادى إلى صراطك المستقيم؛ وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم (مائة) لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير (عشرا)، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه صلاة وسلاما وبركة تهب لى بها سعادة لا شقاوة بعدها، وأكبر رضى منك لا سخط بعده أبدا (مرة واحدة) يا كريم، يا جميل، يا ودود، يا رب العالمين، يا بديع، يا وهاب، يا لطيف، يا كريم، يا نافع، يا أكرم، يا رب العالمين، يا أحد، يا لطيف، يا باقى يا لطيف يا أكرم، يا دائم، يا خالق الدنيا والآخرة ومالك الدنيا والآخرة وما فيهما.﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّـٰتٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ‌ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزۡقً۬اۙ قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ‌ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهً۬ا‌ۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٲجٌ۬ مُّطَهَّرَةٌ۬‌ۖ وَهُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ .

"سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله

رب العالمين".

* * *

"وكذلك قيد الشيخ الخديم هذا الورد بشروط مهمة هى: إدامة تلاوة القرآن يوميا، والتزام صلاة الجماعة، وقراءة الورد بعيد صلاة الصبح وبعيد صلاة العصر، وتعلم ما يجب على المكلف من العقائد وأحكام الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج إلخ، والتوبة النصوح، وترك الكبائر كلها، وملازمة أهل الطاعة، والتوكل على الله والالتجاء إليه تعالى بالكلية، إلى آخرها. فليراجع القارئ الكريم كتاب (إغناء العديم بخبايا أوراد الشيخ الخديم) تأليف الشيخ محمد الأمين جوب الدَّغانِى الإمام الأسبق لجامع مدينة جوربيل، وسيرى فيه جميع ما يهمه من أخبار هذا الورد المبارك، وجميع الأوراد التى استعملها الشيخ الخديم فى حياته، ومنافع تلك الأوراد وأحاديثها وشروطها وأوقاتها إلى غير ذلك".

* * *

ولا يزال أمر الشيخ فى زيادة، والناس تزداد إقبالاً عليه، وهو ما وصفه أحد الشعراء المشهورين بقوله:

ترى الناس أفواجًا إلى باب داره كمكة يوم الحج الأكبر للأمل

۞۞۞

مجابهة الباطل:

الباطل من مادة إبليس، خلقه الله ليجابهه أهل الحق، ويتقربوا إلى الله بحربه، أما

مهادنته ففيها قوة للباطل، وتوهين لأهل الحق، وضعف للدين، ثم سقوط من عين الله.

عندما وقع حبيب بن زيد الصحابى الجليل فى يد مسيلمة الكذاب راح يحاول انتزاع اعترافٍ منه بنبوته الزائفة فلم يفلح، فأخذ فى تعذيبه وهو يسأله:

- أتشهد أن محمدا رسول الله؟

فيقول حبيب بملء فيه: نعم أشهد أن محمدًا رسول الله.

فيسأله: أتشهد أنى رسول الله؟

فيجيبه حبيب ساخرًا: لا أسمع.

فقتله الكذاب، ولو شاء حبيب أن يهادن باطله بعض المهادنة لنجا، كأن يقول مثلا: الله أعلم، أو: الله فعّال لما يريد، أو ماشابه ذلك من الإجابات التى تفسح فى مبناها مجالاً - ولو صغيرًا جدًا يمكن أن يُفهم منه غير الحق.

والإمام أحمد بن حنبل -رضى الله عنه- عُذِّب من أجل أن يقول إن القرآن مخلوق، فلم يفعل، وفى يوم جلس أمامه فى سجنه الخليفة المعتصم يرجوه قائلا: يا أحمد قل أى كلمة تجعلنى أفك عنك قيودك بيدى. وكان من الممكن للإمام أن يقولها دون أن يكون فيها تصريح بهذا القول، ودون أن يكون فيها أيضا نفى قاطع بات له، وقد فعل ذلك بعض الفقهاء فنجوا، لكنه لم يفعل لأن الآلاف من الناس كانت وراء أسوار السجن تنتظر ما يقوله الإمام. لو قال كلمة تهادن الباطل قيراطًا واحدًا لتفشى الباطل فى الأمة أربعة وعشرين قيراطا.

لذلك قال أهل العلم: إن الله حفظ الإسلام برجلين، بأبى بكر الصديق رضى الله عنه يوم الردة، وبالإمام أحمد رضى الله عنه يوم المحنة (محنة خلق القرآن).

* * *

وشيخنا أحمد بمب أقامه الله فى مقام القيادة والإرشاد للملايين من المسلمين الذين سقطوا فى يد أكلح قوة غاشمة ظالمة تسعى بشتى الوسائل لمحو كل أثر للإسلام فى حياتهم، فهدموا المساجد، وأغلقوا المدارس الدينية، وحاربوا اللغة العربية، ومنعوا الناس من الحج، إلى غير ذلك من جرائم سافرة، وفى نفس الوقت أطلقوا قساوستهم فى طول البلاد وعرضها يحاولون أن يحولوا المسلمين إلى ديانة التثليث، متبعين فى ذلك شتى أساليب الترغيب والترهيب، مستغلين آلام الناس وفاقاتهم التى نتجت عن حلول استعمارهم البغيض بالبلاد.

فقام الشيخ لهذه المهمة قيام المؤمنين الموقنين؛ لامهادنة للباطل، ولا مجاملة لأهله وإن كانوا هم الغالبين والمسيطرين، ولم يملّ من ترديد قوله لأصحابه ومريديه: "كونوا على الحق مهما كلّفكم الأمر".

لم يتخذ موقف المدافع أمام هجماتهم المتواصلة على الإسلام ورسوله ﷺ، بل بادأهم بالهجوم، مبينا أنهم أعداء للإسلام والمسلمين، وأن دينهم باطل وعقائدهم فاسدة.. ثم أخذ يدعوهم إلى الدين الحق.

يا أيها اليهـــود والنصـــارى   كونوا لخير مرسل أنصـارا
توبوا إلى الإله واطلبوا الهدى   منـه تعالى باتِّباع أحـمـدا

وقبل أن نسترسل مع أشعار الشيخ فى هذا السبيل علينا أن نعرف أن قصائد الشيخ كانت أمضى أثرًا من البنادق والمدافع، لأن المريدين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب، ويرددونها فى المحافل ويتناقلونها فيما بينهم من بلد لآخر، فهى بحق كونت شيئا فشيئا ضمير الأمة الذى عض على دين الإسلام، وتهاون بقوة المحتل الغاشم واحتقر عقيدته وتقاليده، واعتصم بحبل الله والرسول، فتكونت بذلك جبهة ما استطاعت قوى الصليب أن تخترقها أو تهزمها..

***

من الطبيعى أن يُعجب المغلوب بالغالب، وبثقافته وحياته وهو الأمر الذى وقع فيه ضعاف الإيمان، فقام الشيخ ينبه المسلمين لهذا الخطر، إذ كيف يعجب المسلم بالكافر وإن طار فى الهواء أو أمسك النجوم بيده، وراح يردّ الأمور إلى جوهرها حتى لا ينخدع أحد بالمظاهر فيضيع ما وراءها من حقائق!!

يقول فى منظومته "إلهام السلام فى الذبِّ عن دين الإسلام" واصفًا أحوال أولئك المخدوعين المغترين:

ومنهـم من يحســـب التأثـيرا   لهم وينسى الخـالق القــديرا

ومنهم من إن رأى نصـرانى   يحسبه من ملائك الرحمـــن

ومنهم من ظن كـــون الأمرِ   كالنفع والضر لهم فى الدهرِ

قلت مُنبـــها لهم يا قـــومى   انتبهوا من سـكرات النـــوم

لا تجعلوا منتفخًا قد ورمــا   مُستسْمِنًا فذاك جهـل عُلِما

ولا تظنوا أنهم قد فـــازوا   بكل خارقٍ وخيرًا حـــازوا

ويقول فى نفس القصيدة:

لا تحسبوا المجوس والنصارى   سوى أسارى الحرص والحيارى

لأن ما عنــــدهـم استدراجُ   من حيـــث لايـــدروه لا إدراجُ

ولا تظنـــوا أنهـــم ملـــوك   بل إنـمــــا كلهم صُعـــلوكُ

ويقول أيضا:

وبعدُ فالمجوسُ والنّصـارَى   صاروا لإبليس الغوِى أُسارى

حتى غَدوا كأنهم سُكارى   ورأيُهم فى حَتْفـــهـم قَد دارا

وقد مر بنا سالفًا قوله الذى رفعه كدستور لكيفية التعامل مع أولئك اللصوص المعتدين المتسلطين المحاربين لله والرسول:

كتبتُ فى البحرِ أنِّى لا أمدُّ يَدى   إلى النّصارَى عبيدِ الماءِ والطِّين

***

هذا رجل لم يختلج قلبه بخوف إلا من ربه، ففشلت معه كل محاولات القهر والتخويف، ولم يفلح أعداؤه الفرنسيون فى صرف الناس عنه، بل هم فى إقبالهم عليه فى زيادة يومًا عن يوم، حتى النفى والإبعاد لسنوات طويلة لم يفلحا فى إخراج محبته من القلوب، ولما حاولوا قتله -كما مر بنا سابقًا- أفشل الله محاولاتهم وردّ عليهم كيدهم.

لم يبق أمام المستعمر إلا أسلوب المهادنة والمخادعة وإغداق الدنيا لعله يفلح فى استمالته إليهم. وصف الشيخ الطوبوى فى "النهج القويم" إحدى هذه المحاولات فقال:

"فى سنة ١٩١٦ أرادت الحكومة الاستعمارية أن تتفاهم مع الشيخ الخديم لتسهيل الصعوبات التى تعرقل نفوذها فى السنغال بسبب المريدين، فعينته عضوا فى اللجنة الاستشارية للشؤون الإسلامية فى أفريقيا الغربية الفرنسية كلها، وصدر القرار بتاريخ ١٩ إبريل ١٩١٦ فى باريس بتوقيع من رئيس الجمهورية. وفى ١٥ يناير ١٩١٩ أعطت السلطات الفرنسية تنفيذا لرغبتها فى استمالة الشيخ الخديم (جوقة شرف) برتبة فارس للحاكم العام الفرنسى فى السنغال ليعلقها على صدر الشيخ "تقديرا" له من الحكومة الفرنسية. فرفض الشيخ، وكتب رسالة إلى الحاكم العام جاء فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

إنه منى إلى أمير "أَنْدَرْ" ومن جرى مجراه. السلام على من اتبع الهدى، هذا وإنى حامد لله تعالى وشاكر له على ما عاملتنى به من الإكرام فى أنْدر، وبعد رجوعى منها فبذلك أعلملك ما فى قلبى. اعلموا بأن الذى تطلبونه من الدنيا لا حاجة لى فيها، وأن الذى أطلبه من الآخرة لا حاجة لكم إليها؛ واعلموا جميعا بأنى تركت دنياكم معكم متوجها إلى الله تبارك وتعالى، فلتطب نفوسكم ولتقر أعينكم بأنى لا أنازع أحدًا فى شيء من الدنيا، وكل من أتاكم بغير هذا الكلام فى شأنى فاعلموا أنه كاذب ومفتر ولا تلتفتوا إليه أبدا، والسلام على من اتبع الهدى".

"أحمد بن محمد بن حبيب الله البكى"

۞۞۞

المعلـم:

كُن كاتـمًا للضُّرِّ والبُؤسـى تَنَـلْ	قَصْدًا وتَعْلُ الجيلَ يا مُتعلِّـمُ
لا تُكْثر الشَّكْوى وكُنْ مُتجـلِّدًا	حتى يظنُّ الناسُ أنك مُنْعَـمُ
فالعلمُ لايُعطى لمن يَخْشى طَوىً	بل ربُّنا عبدًا صبورًا يُلْهِـمُ
لاتَشْتـغِل بالرِّزقِ إذ ربُّ الوَرَى	متكفِّلٌ رزقَ الَّذى يتعـلَّمُ
واخْشَ الإلِهَ لدينه مُتحـافِظًا	إذ لا يَنالُ العلمَ عاصٍ مُجرِمُ
لا تَشْتَرِ الدُّنيا بأُخـرى يا فتى	مَن باعَ نُورًا بالدُّجى فَسَيْنـدمُ
دَاوِمْ على درسِ العُـلومِ مُطالِعًا	ياويح طِمْسٍ للطَّـوى يَتَجمْجَمُ

* * *

يـا معشـر الشُّبَّـان	إن خِفْتـم خَجَـلْ

فقدِّموا تعلُّمــــا على عَمَـــــلْ

* * *

لا ينفع العلم ولا العبــادة بالأكل للحرام عند السادة

ولتكتفوا بما يُقيم الصُّلبَ تقويا لكى تُطيعـــوا الرَّبَّ

* * *

يا أيها الصِّبيـــانُ لا تشتغــلوا عن الهُدى وبالعـــلومِ اشْتغِلوا

اشتغلوا بالعـــلم والتَّـــلاوهْ واجتنبوا مجالس الشّقـــاوهْ

فكل من بـــادر وقت الصِّغَـــر إلى الهُدى استــراح وقت الكِبَر

واعلم بـــأن من أبى التَّعلمـــا وقت صِبـــاه سيُلاقى النَّـدمَا

فليس ينفـــعُ العبـــدَ علــــومْ يرومُها لحـــبِّ مـــدحٍ لا يريـمْ

فالعلمُ إن لم يفض شخصا للهدى فإنـــه يجـــــرُّه إلى الـرَّدَى

فالعلم لا بكثـــرةِ الرِّوايــــــهْ بل إنـــه نـــورٌ مع الـدِّرايـــهْ

فاقصدْ به وجْهَ الجليلِ يافتـــى تجـــد جـزاءَك نعيـــمًا ثبتـا

إن الذى لم يخش رب العالمـــين ليس بعـــالِم ولو افنى الفنـــون

❊❊❊

خذوا الحلالَ واتْركوا الحَرامـــا ولتَطْلبـــوا بالـــورعِ المـــرَاما

من أكل الحلالَ أرْضَـــــى الرَّبَّا أما الحـــرامُ فهو يُرضـــى الخِبَّا

❊❊❊

ولستَ تحتـــوى أخـــى المَزَايا مالم تُـــدِمْ صبرًا على الرَّزَايـــا

❊❊❊

ولا تُصاحب غيرَ مَن يُرشـــدكا وناءِ كلَّ صـــاحبٍ مُهْلـــكُكا

إذ رُبَّ غمرٍ قد غـــدا نبيـــلا بِصُحبـــةِ الصّـــالح لاتميـــلا

ورُبّ صـــالحٍ غـــدا ذليـــلا بصحبة الأحمـــقِ والجهـــــولا

❊❊❊

وفى يوم –وقد حف به الناس يلتقطون من بين شفتيه جواهر الكلام النفيس– نظر إلى الفضاء من حوله وقال:

"إنه من ابتداء سكنى بقعتنا هذه إلى يومنا هذا مائة قرن كل قرن

مائة سنة، وما فيها قرن عُبد الله فيها، فعبادتكم هذه هى أول عبادة عُبد الله بها فى هذه البقعة فاحمدوا الله على تمكينه إياكم من عبادته فيها، فبهذا تفهمون معنى أن الناس يكونون يوم القيامة صفوفا ويؤخذ من كل ألف شخص واحد إلى الجنة والباقون إلى النار".

۞۞۞

إنفاقه الدنيا

لم تكن الدنيا تساوى عنده شيئا لم يفرح بها إذ أقبلت، ولم يحزن عليها إذا أدبرت، لم تطمح إليها همته، ولم يسألها من أحد، ولما جاءته تحت أقدامه أسرع ببذلها، فكان بذله لها سخيًا فياضا..

وصف ذلك صاحبه الشيخ محمد الأمين فقال:

"إنه لا يمسك درهمًا ولا دينارًا، ويبذل للكبير وللصغير، والذكر والأنثى، والحر والعبد، والغنى والفقير، والصالح والطالح، كلما امتدت يد إليه ملأها، مع الإعراض عن مال الناس، والتمسك برأس ماله الذى هو الإقبال على الله بكليته وكنه همَته".

حتى الشيخ سيديا الذى كان من أجواد الزمان – وقد مرّ بنا خبره – لم يملك إلا أن ينبهر بالسماحة والسخاء اللذين كان عليهما الشيخ، فمدحه فى قصائد عدة، قال فى إحداها:

وهل يستوى مَن هَمُّه بذلُ مـالِه ... ومَن همُّهُ فى جَمْعِه واقْتِنـــائِهِ

أَمَنْ يشترى بالمالِ أجرًا ومفْخرَا ... كمنغمسٍ فى بَيْعِه وشِـــرائِه؟

فتىً يَظْهَرُ المعروفُ عِنْد ظهـورِهِ ... ويَخْفى منارُ العُرْف عِند خَفائِهِ

إذا ما احْتَوتْ يومًا قناطيرَ كفّـهِ ... تَقَسَّمها العافون وقتَ احْتــوائِهِ

يَعُدُّ نمـــاءَ المالِ عينَ فَنــائهِ ... وإنفاقـــهُ لله عيـــنَ نَمــائِـــهِ

***

تدفق الخير أنهارًا بين يدى الشيخ فى ظروف تعرّضت فيها البلاد للقحط وضيق العيش، فمع الاحتلال الفرنسى حلّت الفوضى ونشط اللصوص وأهل الفسق فأصبحت البلية بليتان.

وصف الشيخ محمد البشير مؤلف كتاب "منن الباقى القديم فى سيرة الشيخ الخديم" ما حل بالناس من خراب فقال:

"وما تركوا حيوانًا ولا أثاثًا قدروا عليه، بحيث يقيل معك إنسان وهو من أغنى الأغنياء، ثم يغدو عليك صبيحة الغد وهو من الفقراء المعدمين، لأن الجيش يغير على حيوانه الذى لم يزل يثمره السلف للخلف قرونًا فيستاقونه بالمرة محتقبين ما أعجبهم من المتاع والأثاث".

فجعل الله العوض عن ذلك فى سخاء الأسخياء، وإنفاق المنفقين..كانت الأموال تأتى الشيخ من مريديه فيفرغها مباشرة فى أيدى المحتاجين والمعوذين.

"كان يفرغ فى أيديهم الأحمال الثقيلة، ويجرى بينهم تلك السيول الجارية من البضائع المتنوعة.. فصار يخلف لهؤلاء ما أتلفه أولئك بكل

فرح وسرور، لايرى نفسه فى ذلك إلا قاسما.. فكان أبا اليتامى والمساكين ومفزعًا للمحاويج.

ويقول فى موضع آخر:

"أما إطعامه الطعام فحدث عنه ولا حرجّ! كيف لا (وهو) يعمل فيه العجب العجاب؟.. كانت الصحاف يُطاف بها على الضيوف والجيران وبيوت الضعفاء والعجائز فى الليل والنهار بالكثرة الفائقة، والغلمان مبثوثون فى نواحى القرية؛ هذا يذهب إلى فلان، وهذا ينادى فلانا، وهذا يجمع فلانا مع فلان وفلان. وهذا عمل متصل لا ينقطع صيفا ولا شتاء بأنواع الألوان والمشتهيات، فضلاً عما يُذبح من البقر والغنم ويُنحر من الإبل فى كل ناحية لطوائف شتى. كيف لا وهو المسخر له الدنيا المسوق له إياها -وهى صاغرة- بحذافيرها، وهو أزهد زاهد فى رغائبها".

ومع هذه النجدة، وهذا الإنفاق الواسع السخى ترى الشيخ أكثر الناس تواضعًا وانكسارًا، لا يرى نفسه إلا فقيرًا، ولا يرى الفقراء إلا إليه محسنين.

قال فى "منن الباقى القديم":

"كان ضعاف المسلمين يتجرأون على مخاطبته بكل استئناس.. ويطالبونه بحوائجهم كدين حل أجله، وصبيان المدارس وضعفاء العجائز يأوون إلى كنفه كالأم الحنون، ولا يصبر على أن يؤدبهم أحد أمامه، وإذا سمع صارخًا (يكون) هو أول من يهتم بإغاثته".

أكرم بها من خصال، جعلت أهل الفضل من الشعراء يتسابقون فى الثناء عليه، وامتداح مكارم الأخلاق التى زيّنه الله بها، والتى جعلته أحدوثة بين الناس، يتناقلون

خبره كما يتبادلون التهانى والبشارات :

وكان لأهلِ الفقرِ خِصْبًا يُوافون مِن شَتّى إليه مُهنَّئًا ليُرْفَـدوا

***

يلقىَ جموعَهُم ببشرٍ فكأنَّها تُعطيـــه ما أعْطـاهَا صـــادقٍ

شهدَ الطوائفُ أجمعونَ بـــرًّا كريمًا قانِتًا بكونِهِ أوّاهَـــا

مِمَّن يَرى نفعَ الأنامِ فى دَهْـــرِهِ والذاكـــرين فريضـــةً اللهَ

***

يُقبلُ الناسُ نحـــوه جَمَعـــت بين نيةٍ بقلـوبٍ اشْتـــاتِ

إنَّمـــا الشيـــخُ نعمـــةٌ أنعــــم اللـــهُ بِهـــا أيـــةٌ مـــن الآيـــاتِ

***

حتى أعدؤه ، بهرتهم صفاته وأخلاقه، هذا رئيس مدينـة "جُرْبيل" الفرنسـى -نقلاً عن كتاب الأدب العربى فى السنغال- يكتب فى تقرير له ما نصه:

"فإن الشيخ لراسخ القدم فى العلوم العربية، وهو محسن جدًا، وهو أتقى الناس، وكأنّ الله قد حلّ فى ذاته".

۞۞۞

مكان الولى فى الناس

لو قلنا إن الولى فى الناس كالبئر فى الصحراء الجرداء، أو كالنجم المضئ فى حندس الليل ما كنا مبالغين أدنى مبالغة. فالأولياء هم الذين عمروا البلاد، وزينوها بالطاعات، وفجروا فيها العلوم والمعارف عيونًا ثرة تفيض بالخير والبركة، دلّوا العباد على خالقهم سبحانه وتعالى، وحرّروهم من أغلال النفس وظلمات الجهالة.

أقاموا خلاوى القرآن ومدارس العلم وحلقات الذكر وأماكن الضيافة فى الفلوات والجبال وعلى الشواطئ المهجورة، أطعموا الطعام، وفرَّجوا الكُرب عن المكروبين، ومدوا أيديهم بالعطاء حيثما كانوا، فهم العلماء بحق الذين قال فيهم نبينا الأمين المبعوث رحمة للعالمين: "العلماء ورثة الأنبياء".

على الشواطئ الشمالية لمصر – مثلا – قامت مدن عامرة، وبلاد آهلة بالحياة والأحياء كانت فى أصلها أماكن مهجورة ثم حل بها أولئك الرجال فأحالوا قفرها حياة وصمتها ذكرًا وعبادة، وأقاموا بها الرباطات التى وقفت فى وجه المعتدين.

ما أصدق ما وصفهم به الإمام أحمد رضا خان –الذى التقينا به فى أول هذا الكتاب– حين قال:

بمجلسهم تحف طيور قدس ولا يشقى بهم لهم قعيدُ
إذا حلوا تمصّرت الفيافى وحين تَرَحَّلوا الأمصار بيدُ

اليوم تغيرت معالم آثارهم، ولكن بقيت أسماؤهم شاهدة على أنه فى تلك البقاع قام لله رجال أمثال: سيدى جابر وسيدى بشر وسيدى القبارى وسيدى العجمى وسيدى عبد الرحمن وسيدى كرير وسيدى برانى وغيرهم..

وفى المدن الكبيرة ووسط زحام الناس قام لله رجال آخرون أمثال سيدى أحمد البدوى فى طنطا، وسيدى إبراهيم الدسوقى فى دسوق، وسيدى أبى الحجاج الأقصرى بالأقصر، وسيدى عبد الرحيم القنائى بقنا.. وغيرهم..

تولوا تربية المريدِين وإرشاد التائهين وخرجت من بين أيديهم الأجيال التى هزمت الصليبيين والمغول.

إن القلم ليعجز عن أن يصف نعمة الله على الأمة بأوليائه الصالحين. ماذا يقول فيمن اصطفاهم الله من بين خلقه -بعد أنبيائه ورسله- ليكونوا امتدادًا لرحمة خاتم المرسلين وقيامًا بدعوته صلى الله عليه وسلم بين الناس إلى يوم الدين؟

اللهم ارزقنا محبتهم، وأنفحنا ببركاتهم، ولا تحرمنا أن نكون فى زمرتهم يوم القيامة يا كريم يا ودود.

***

من أولياء الله رجال إذا نزل بالناس بلاء لا يتكلمون ولا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون، يلقون جباههم على التراب بين يدى مولاهم باكين ضارعين كأن ما أصاب الناس ما أصابهم إلا بذنوبهم.. لا يقر لهم قرار، ولا تعود إليهم أرواحهم إلا بنزول الرحمة..

ومنهم من إذا نزل البلاء تحملوه عن الناس حتى تكاد تزهق أرواحهم من شدة ما تحملوا، رحمة بأمة حبيبهم وقرة أعينهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

أهناك فى الناس من يفعل هذا؟؟

نعم..

رجال الله.. أحباب الله.. أولياء الله.. أهل النجدة والفناء.

قال الإمام المناوى فى طبقاته إن سيدى محمد بن عنان رأى وهو يصلى الضحى بلاءً نازلاً على أهل مصر، فأرسل للشيخ على الخواص (وهو شيخ الإمام الشعرانى) يقول له: ما هذا؟

" فقال على الخواص: يرسل الله له من يحمله.

فنظر ابن عنان فى صلاة الصبح أنه ارتفع. فوقع ذلك اليوم أن شيخ الإسلام ابن النجار الحنبلى شكا الشيخ الخواص - وكان زياتا فى حارته- إلى المحتسب، فضربه وخزمه فى أنفه وكتفه، وطاف به مصر وبولاق حتى كاد الشيخ يموت من شدة ما فُعل به. فقال ابن عنان: الحمد لله الذى جئنا فى زمن فيه رجل يحمل بلاء مصر كاملاً وحده".

وقال الإمام المناوى أيضًا فى شأن سيدى على الخواص:

" وكان إذا نزل بالناس بلاء لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام حتى ينكشف. وكان إذا سأل الله رفع بلاء كشف رأسه، ويقف منكس الرأس حافيا يبكى ويتضرع".

* * *

استمع إلى هذه القصة عن الشيخ أحمد بمب يرويها الشيخ محمد الأمين حيث قال إن الشيخ مرض مرضًا شديدًا، وسهر أصحابه ومريدوه فى تلك الليله، وباتوا حول خيمته وهم يظنون أن شيخهم يحتضر، والشيخ يثبتهم ويقول لهم: ارجعوا، لا بأس.. ولكنهم كما يقول الراوى " لا سمع لنا ولا عقول". وبعد أن عوفى الشيخ أخبرهم عن سبب هذه العلة فقال:

"إنه كانت بلية من الله إلى أصحابى، وكادوا ينقرضون بها لو وقعت. فقلت يا رب: لم خصصت أصحابى بهذه عن سائر الناس؟ فقيل لى: لأن الله تبارك وتعالى جعلك فى مقام رجَحَك به على أقرانك، لابد لك من خصوص بلية تختص بها دونهم، فلا شىء أشد من هذا. فقلت: يا رب! هل لى أن أحملها عنهم؟

قيل لى: نعم لك ذلك. دونكها

فكأن صاعقة من السماء وقعت على، فوقعت مغشيًا علىّ، فرُفعت إلى الخيمة ولم أشعر".

۞۞۞

من كراماته أيضا:

قال صاحب "المنح المسكية":

• "تأخر (الشيخ) رضى الله عنه عن صلاة العشاء ليلة الأربعاء ثالث عشر صفر سنة ١٣٤١هـ إلى الثلث الأول إلا نصف ساعة.. (ثم) أقبل مسرعًا وأقيمت الصلاة، ثم لما فرغ منها أقام برهة فى محرابه ينظر فى بعض القصائد ثم فتح بعدُ ودعا إليه فاجتمعوا عليه كعادته، فمد لوحًا من تلك الألواح وكانت القصائد تُكتب له فى لوح.. فأمر بقراءتها وقال تجدون فيها ما ينبئكم عن سبب تأخر الصلاة شاهدًا على ما سأخبركم به بعد القراءة، فاستفتح القارئ إلى أن بلغ:

بانَ لكلِّ مـــن له سَعـــادة　　أنّ النّبى لِى قادَ خَرْق العَادَة

فاستوقفه فوقف وقال إنه بعد صلاة المغرب أُمر بالتوجه إلى البيت الفلانى فتوجه، وأُمر بالاستراحة، فماتم له الاتكاء حتى غُيب عن حسِّه نحو تلك الليلة. قال:

- ألا إن هذه الليلة لم يبق لى عائق ولا حجاب بل حصل الاتصال بخوارق الأنبياء والمرسلين. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

والله ذو الفضل العظيم".

***

• "ومنها ما حكى علينا مشافهة أنه احتبس ذات يوم عن الخدمة أيام خدمته لرسول الله ﷺ فى الغيبة الغراء البحرية لوجع عمّ بدنه، فقال فى مناجاته: اللهم إنى كنت أخدم رسول الله ﷺ كما علمت، فها أنا حبسنى عنها المرض فاصرفه عنى إلى من يدعو مع الله إلهًا آخر.. وكان بجوارى واحد من وزرائهم يستغرق فى الضحك مع أصحابه فسمعته فى الحين يئنّ أنينًا.

قال الشيخ: فكأنما نشطتُّ من عقال، فعلمت أن المرض نُقل إليه، فقمت إلى الخدمة كما شئت فلله الحمد".

***

• "ومنها ما حكاه لى أبو بكر جوف المريد الصادق أنه فى بعض سياحته توجه من القطر الجنوبى يريد دار الشيخ الخديم، فسار فى بعض الأيام بين قريتين متباعدتين عشية فإذا هو بسبع بلغ غاية فى العظم وثب عليه فصرخ: يا شيخ!! قال: فما تم كلامى حتى سمعت (صوت) ضربة مهولة.. فوصلت يده إلىّ ضعيفة الضرب من إصابة الضربة المذكورة، فسمعت قائلا ولم أر شخصه يقول: كان يريد بك قتلاً فقُتل، فالتفتّ فإذا هو ساقط يتشحّط فى دمه، أما أنا فما أصابنى كبير أمر إلا ضُريبة أضعفت منكبى وأدمته، فعلمت أن هذه إغاثة من الله بالشيخ".

***

• "ومنها ما أخبرنى به رضى الله تعالى عنه من أن رسول الله ﷺ أتاه ذات ليلة وأمره بتغيير بيت قاله فى مدحه. قال الشيخ: وكان البيت من أحسن ما قلت والبيت المغيّر:

حاز نبى الله مالا يعلمه   إلا الذى اللوح له وقلمه

وبيت التغيير

حاز رسول الله مالم يعلم   إلا الذى خاطبه بكلم

وسكت عن حكمة التغيير".

* * *

• "ومنها أن الشيخ قال فى مرة على الملأ: "كنت بعد الصلاة مع رسول الله ﷺ فقال إنى طلبت لك من ربى رب العزة تبارك وتعالى أن يجعل القرآن والحديث وديعة لك"!!

* * *

ومن أبرز كرامات الشيخ: البركة التى جعلها الله سبحانه وتعالى فى وقته وفى عمله والتى وصفها الشيخ محمد البشير بقوله:

• " ومن كمال عقله كثرة وفود الخلق عليه؛ الملوك والأمراء والعلماء والأولياء والمريدين والزائرين، والضعفاء والمساكين، وكثرة الصخب والضوضاء وازدحام الناس (على اختلاف أحوالهم وحاجاتهم) بأبوابه، ليلاً ونهارًا، صيفًا وشتاءً، وشغله الشاغل بإقامة الصلوات الخمس برواتبها أبدًا فى المسجد العام إمامًا، والكتابة الدائمة فى المدح والصلاة والثناء والتوحيد لله ولرسوله لاغير، وكان ربما يخرج لنا منه فى الشهر ما كنا نتحدث أنه لا يقوم به عشرة لا

تجف أقلامهم، وهو مع ذلك لا تلتبس عليه حاجة بحاجة، ولا يؤخر أمرًا عن وقته، ولا يختلط عليه أمر من أمر، ولا يتريث فى وعد أو ميعاد، فإنه، والحق يقال، لم تَصدق كلمة (أبى نواس) فى أحد بعد الأنبياء والصحابة مثل ما صدقت فيه - رضى الله عنه:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد"

* * *

قال الشيخ محمد البشير:

" وأما كراماته الخارقة من إبراء الأسقام وشفاء الأمراض وصرف الأمر وقضاء الحاجات والمكاشفات بما خفى من الأمور فلم أفرد لها بابا، لأنها لا تقع تحت حصر".

۞۞۞

الشيخ فى عيون العارفين

ختم الشيخ محمد الأمين جوب كتابه الجميل "إرواء النديم" بفصل جعل عنوانه: "فى شهادة الكبراء له بالجلالة والولاية" وهو –أيضًا– فصل جميل اشتمل على شهادات لكبار المشايخ والعارفين المعاصرين للشيخ، والذين وصفوا بعضًا من أحواله وأخلاقه الشريفة.

ولقد أحببت أن أنقل –فى هذا المقام– من هذا الفصل مقتطفات قليلة رجاء بركتها وبركة قائليها وبركة من قيلت فيه.

قال الولى الكبير الشيخ سيديا بابا –على جلالة قدره– وقد سبق الحديث عنه مفصلاً قبل صفحات:

الشيخُ أحمدُ نعمةٌ هَذى الخلائقَ كلُّها مَوْلاهـا
أوْلاها
فالحمدُ للهِ الّذى لا يستطيعُ عبادُهُ إحْصاها
نعمـاؤُهُ

وقال أيضا فى قصيدة أخرى:

فتى يَظْهرُ المعروفُ عِند ظُهورِهِ
ويَخْفى مَنارُ العُرف عِند خَفائِهِ
ومـــا عيبُـــهُ إلا عبـــادةُ ربِّـه
ونفعُ الوَرَى فى صُبحه ومَسـائِهِ

***

وقال ولى الله المتفق على ولايته الشيخ سعد أبيه من شيوخ الطريقة القادرية بموريتانيا فى رسالة له:

"أما بعد.. فسلام منى إلى الشيخ أحمد بمب، لعن الله من أبغضه.."

وكتب قصيدة تهنئة للشيخ عند عودته من المنفى جاء ضمن أبياتها قوله:

وبدرٍ منيرٍ غابَ فى الغربِ ثم لا
حَ مِن الغربِ شمسًا رِفْعةً وانْتِشارًا
فعجبى لكيميا امتحانٍ غَدا بِها
نُضــارُ الوَرَى ياقــوتَةٌ لا تُبَـــارَى

***

وقال ولى الله الشيخ المستعين الكُمليلى:

"تعجبت من أمر الشيخ؛ جلسنا معه مرة، مع جماعة من العلماء.. فيهم عبد الله بن مختارنا الحاجى، فشرع يتكلم علينا بكلام يبهر العقول، ونحن منشرحون مصدقون، ولا علم لنا بحقيقته، نيِّر يأخذ بمجامع قلوبنا، فعلمنا أنه من الله".

***

وقال الرجل الصالح العلامة الشيخ عبد الله الديمانى:

أَلاَ مِلْ إلى دارِالسّـلامِ وطُوبَى ... إذا خِفتَ مِن ريْبِ الزمانِ خُطوبَا

لِتَظْفرَ مِن غَوْث الزّمان بنظرةٍ ... تنـــالُ بِها حُســـنَ المآبِ وطُوبَى

***

وقال ولى الله العلامة الجليل الشيخ عبد الله بن صلاح البوحبيببى مخاطبا الشيخ أحمد بمب:

لئن فُقْتَ كلَّ الأوْليا متأخِّـرًا ... فخيرُ البَرايا فى القُرونِ الأَوَاخِـرِ

وقد مرت بنا الرؤيا العجيبة التى رآها الشيخ عبد الله والتى أوردناها فى الفصل الخاص بمولد الشيخ ونشأته فارجع إليها.

***

وقال الحاج مالك سه شيخ الزاوية التيجانية وشيخ المسلمين فى السنغال كما وصفه فى "إرواء النديم" قال:

"ما منا إلا من تاب عن إساءة، واستقام عن اعوجاج، إلا ما كان من الشيخ أحمد، فإنه نشأ محسنًا مستقيمًا".

وقال الشيخ الكبير قاضى القضاة مَجخَت كَل – وقد مر الحديث عنه ضمن شيوخه، قال له:

"أنت كنت ابنا فصرت أبا، وكنت تلميذا وصرت شيخًا".

وقال شعرًا:

مِنّى لأحمد بمب التَّارِكِ النّاسِ   غيرَ الإلهِ فأمسى سيِّدَ النَاسِ

***

وقال السيد الجليل الشيخ محمد الفوتى فى مطلع قصيدة سينية مدح بها الشيخ:

إلى مَن حباهُ اللهُ بالبَسْطِ والأُنس   وحكَّمهُ فى عالمِ الجِنِّ والإنْسِ

۞۞۞

الوفـــاة:

ثلاثين عامًا من حياة الشيخ أمضاها بين المنفى والإقامة الجبرية حتى انتقل إلى جوار ربه فى يوم الأربعاء ٢٠ محرم سنة ١٣٤٦ من هجرة سيد الأنبياء والرسل ﷺ الموافق ١٩ يوليو سنة ١٩٢٧ ميلادية.

وصف صاحبه الشيخ محمد الأمين جوانبا من مشهد الفاجعة فقال:

"فحُمل ليلة الأربعاء من موضعه فى سيارة إلى طوبى.. بخفية من العامة خوف فتنتهم، وفرغوا من أمره قبل انصداع الفجر، حتى جعلوا عليه بيتا يُغلق ويُفتح.

فلما علم الناس -بعد الصبح- قامت قيامتهم، فلا تسأل عن

الأقاويل والأفاعيل.. فلما فرغنا من أمره وخرجنا.. لقيت بعض أصحابنا -وهو لم يعلم بعد بالواقعة- فقال لى: إنى رأيتك البارحة فى المنام، فقلت لك: أين الشيخ؟ فتلوت على: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ فقلت: الأمر كما رأيت."

***

طوّق النبأ المفجع البلاد بأسرها، وبكاه الناس جميعًا صغارهم وكبارهم، رجالهم ونساؤهم، وبكاه الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل والعجائز والمحرومون – وما أغلى دموعهم على الله – بكوا فيه الأب الحانى، واليد الفياضة الممدودة لهم بالخير.

***

وكانَ لأهـلِ الفقـرِ خِصْبًا مُهنِّئًا ... يُوافـون مِن شتَّـى إليـهِ ليُرْفَـدوا

ولوْ جازَ أن يُفدى فَدَيْناه غيرَ أنْ ... قضت قبله السّاداتُ طُرًّا وما فُدوا

ألا أنّه إن غـابَ عنّا بجسمِـهِ ... فما غابَ عنّا خيرُهُ المُتجَـدِّدِ

***

بوفاته -رضى الله عنه- انتقلت الطريقة المريدية التى أسسها إلى مرحلة جديدة، أرحب وأوسع..

نُقل جثمان الشيخ فى الليل سرًا من الفرنسيين ليُدفن فى مدينة طوبا لما يدخره الله لتلك البقعة من الأرض، فما إن حل جثمانه الطاهر بها حتى أصبحت مهوى أفئدة

الملايين الذين صاروا يتوافدون عليها لزيارة وليهم الكبير أو للسكنى بها فى جواره، وهكذا أصبحت طوبا اليوم واحدة من أكبر مدن غرب أفريقيا، تسعد بأنفاس الشيخ وبركاته ميتا كما كانت تسعد بها وهو حى يغدو فيها ويروح.

***

روى أن المطر قد احتبس فى سنة من السنين -بعد وفاة الشيخ- احتباسًا فادحًا أيقن الناس معه بهلاك الزرع والضرع، فذهب بعضهم إلى السيد محمد الفاضل ابن الشيخ رضى الله عنه يطلبون منه التوجه إلى الشيخ فى هذه الحاجة الملحة.

قال السيد محمد الفاضل:

"فذهبت نحو الضريح الشريف وزُرت وقلت: أيها الشيخ أنت الذى نرجوك بربك لكل حال ونعدّك بكل ملمة وأنت الآن تعلم ما بنا أو نحو ذلك من العبارات ولم يزد، قال: فوالله ما أتممت كلامى وخرجت حتى وجدت السحب متراكمة فانحل وكاؤها كأنها أفواه قِرَبٍ فى الحال ودامت الأمطار ليلا ونهارا متتابعة أسبوعا على أسبوع حتى اشتد بالناس الحصار وفاتهم الخروج إلى الأشغال وأيقنوا بهلاك الزرع من الماء بل خافوا على أنفسهم وتتابعت الشكايات بالإقلاع كما تتابعت بالاستوقاع فعند ذلك ذهبت نحو الضريح الشريف وزرت وقلت: أيها الشيخ أنت الذى نرجوك بربك لكل حال بعبارات رائقة لاطول فيها فوالله كانت السماء وقت دخولى متراكمة السحاب على حالها ولم يشك الناس فى المطر حتى إن بعض الصالحين الزائرين حبس مركبه خوفا من لحوق المطر فانكشف من حينه وصحت السماء وانقطع المطر وعاش الزرع والضرع وحمد الناس وكان عام خصب

ببركة الشيخ الكريم رضى الله تعالى عنه".

* * *

نعـم..

ما غاب الشيخ عن مريديه، وما غابوا عنه طرفة عين، فروحه بينهم وحواليهم، وأنواره تضيء طريقهم، وأشعاره وكلماته حية فى صدورهم، وصورته التى تركزت فيها كل معانى البطولة والشرف لاتغيب عن نواظرهم، فيالها من علاقة جميلة حميمة نابضة بالحياة.

بنى تلامذته ومحبوه على قبره مسجدًا هو اليوم من أكبر مساجد القارة الأفريقية، وتعلوه منارة عملاقة تعد الأطول بين منارات المساجد فى القارة.

مثَّل بناء هذا المسجد ملحمة من ملاحم الحب والعرفان، إذ استغرق بناؤه أربعين سنة، كان المريدون الذين يُعدون بعشرات الآلاف يعملون ليلاً ونهارًا، يجلبون حجارة البناء من مسافات بعيدة، فيتناولونها يدًا ليدٍ فى طابور طويل حتى تصل إلى موضع البناء..

لقد تعلقت قلوب المريدين بشيخهم، وبقبره الذى ثوى فى مدينة طوبا، وأصبحت زيارته من أهم العادات حتى إن السؤال عن آخر زيارة لطوبا وعن موعد الزيارة القادمة أصبح سؤالاً تقليديًا يسأله الناس بعضهم بعضا كما يسأل أحدنا الآخر: كيف حالك؟

وفى يوم ١٨ صفر من كل عام تشهد مدينة طوبا مشهدًا يشبه يوم الحج الأكبر إذ يتوافد إليها أعداد غفيرة من المريدين من كل مكان تتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين، يحتفلون بذكرى شيخهم، وهى بالتحديد ذكرى اليوم الذى ركب فيه السفينة إلى منفاه فى جابون، ونال فيها من ربه مانال!

إنها المحبة..

إنها القلوب التى شفّت فرأت أبعد مما ترى العيون!

إنه الصدق.. صدق رجال الله الذين عاملوا الله وحده فرفع قدرهم وأعلا ذكرهم وجعلهم ملوك الأرض بحق؛ ملوك الدنيا وملوك الآخرة.

مَضى العبدُ الخديمُ حميد سعيٍ نَقيَّ السِّر مِن شوْبِ الهِنــاتِ
مضَى العبـــدُ الخديمُ ولَم يُفجِّر سِوى عينِ اللُّهى والأَعطيات
ومَا رَكْـــضُ الجِيـــادِ لهُ بِهِـــمٍّ ولا غرسُ النّخيلِ الْمُكْرعـاتِ
ومـــا عيشُ الْمُلـــوكِ له بعيـــشٍ وإِنْ أَعْطى الجِفانَ مُكلَّــلاتِ

***

ولا يزال سيدى أحمد بمب كنزًا مخبوءًا، لم تفتح بعد كل مغالقه، وأمه الإسلام فى أمس الحاجة اليوم إلى جواهره ولآلئه..

۞۞۞

وكان الفـراغ – بفضل الله وعونه – من كتابة الزيادات،

وعمل التصويبات، لهذه الطبعـة الموسّعة فى أواخـر

شهر الله المحرم سنة ١٤٣٠ هـ الموافق أواخر شهر

يناير سنة ٢٠٠٩م، وذلك بدارى الكائنة بجبل

المقطم بمصر المحروسة، حرسها الله من كل

سوء بجاه من بيته فى طيبة حـرم

واسمه قسم من أعظم القسـم

عليـه من الله دائمـا أبـدًا

أفضل صلاة وأتم تسليم

وسلام على المرسلين

والحمـد لله رب

العالمين

مراجع

• صفحات من تاريخ السنغال عبر العصور، عثمان أنجاى، القاهرة ٢٠٠٥

• السنغال والثقافة الإسلامية، جورتى سيسى، دار شمس المعرفة، القاهرة ١٩٨٩.

• أضواء على الطرق الصوفية فى القارة الأفريقية، مكتبة مدبولى القاهرة، ١٩٩٠

• من كتب الشيخ أحمد بمب ومطبوعة بالسنغال

– مفاتح الجنان ومغالق النيران

– كتاب مسالك الجنان

• الوسيط فى أوباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطى، مؤسسة الخانجى القاهرة ١٩٥٨.

• الشيخ محمد اليدالى، نصوص من التاريخ الموريتانى تحقيق محمد ولد باباه، المؤسسة الوطنية.

• منن الباقى القديم فى سيرة، الشيخ الخديم، محمد البشير البكى.

• إرواء النديم من عذب حب الخديم للشيخ محمد الأمين جوب

الدغانى، طبع دائرة خدمة الخديم، القاهرة، ٢٠٠٨م.

• النهج القويم فى سيرة الشيخ الخديم للحاج محمد المحمود ينانغ الطوبوى، طوبى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

• الأدب السنغالى العربى، د. عامر صمب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، ١٩٧٩م.

• أبحاث غير منشورة:

• المنح المسكية فى الخواق البكية لأحمد الحسن البوصوبى، قام بإعداده الطالب محمد غالا أنجاى، ٢٠٠٠م.

• الإحسان والخدمة السنية فى قصائد العبد الخديم للطالب محمد غالا أنجاى، جامعة الأزهر، ١٩٩٩م.

• هل يمكن الحديث عن مكانة للقصائد فى المكتبة العربية الإسلامية، صالح سلام، داكار، ١٩٩٣.

• بحث فى "المريدية" النشأة والتطور للطالب محمد المأمون امباكى، ١٩٩٩م.

• مكانة العلم عند الشيخ الخديم للطالب محمد مختار سك، كلية التربية، جامعة الأزهر الشريف، ٢٠٠٥م.